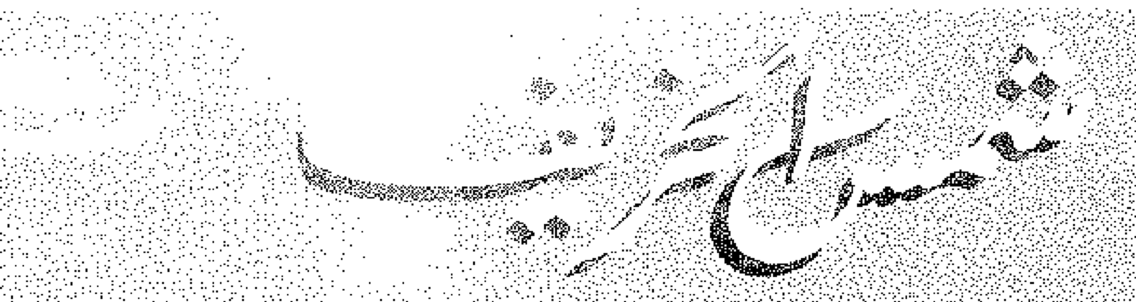
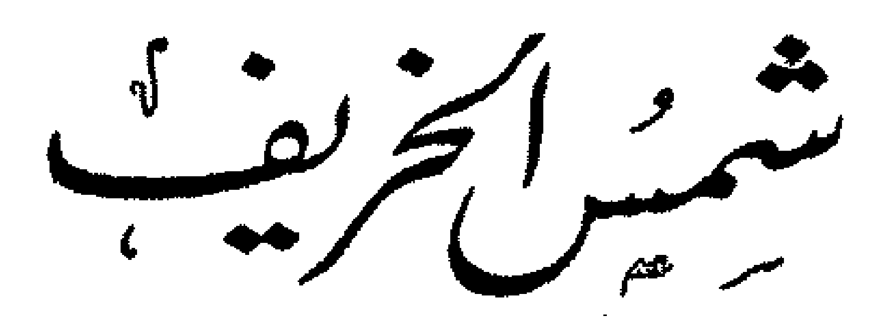

شمس الخريف

مطبوعات مكتبة مصر



شمس الخريف

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

مكتبة مصر
سعيد جودة السحار
٣ شارع كامل صدقي
"الفجالة" القاهرة

— ١ —

كان يسميه حينا بالسيد الخالد ، وكان يسميه أحيانا بسيد الخالدين.
وكانت نبرات صوته وهو ينطق بهذه العبارة حلوة مضطردة عذبة توقظ النفوس من كسلها كما توقظ رائحة الشواء شهية الناقهين . ويخيل إلى أنه كان يحبه بكل ما تستطيع القلوب أن تحب ؛ لأن حبه له أعداني وأنت تعلم أن أحاديث الهوى تلقح القلوب بالحب وتثير في خلاياها استعدادها للتآلف بالفطرة التي فطرها عليها الله . من أجل ذلك رأيتني أحبه .. أصبحت فدعوته بالسيد الخالد ثم أمسيت فدعوته بسيد الخالدين .

كنت في الصف الأول من الفصل أرقب مدرس التاريخ هذا الطويل الفارع الباهر المتناوح وقد وقف أمامي معتمدا بفخذيه على مقدم الدرج تاركا سترته مفتوحة تكشف عن صدر تكور فيه ثدياه تكورا غيركامل تحت قميص أبيض يستبدل به قميصا أبيض في كل مرة ، كأنه لايتغير ، وتبدو على بياضه حمالة السراويل قوية مشدودة لاارتخاء فيها ، ترفع السراويل إلى ما فوق الكشحين وعلى مقربة من الثديين بحيث لا يبقى من رقعة الصدر إلا مسافة محدودة يتمدد فيها رباط العنق على هيئة شريط قددا لا حرية فيه ، تمسك طرفه الأعلى بنيقة قوية منشاة ويندفن طرفه الأسفل بين « كمر البنطلون » وكرش الأستاذ .

وهناك دبوس ذهبي لامع يمسك الرباط من وسطه مثبتا إياه على أديم القميص . أما الحلة فقد كانت دائما سوداء . وأما الطربوش فقد كان جد

طويل يتناسب مع سمت من يلبسه ، وأما موقفه من الفصل فقد كان أمامي وقلما كان يتحول ، يظل هكذا طول الحصة مفرجا سترته عن صدره معلقا كفيه من الإبهامين في « كمر البنطلون » مرخيا إحدى رجليه كأنه يريحها ورجله الأخرى مشدودة ، معاقبا بينهما في الشد والإرخاء بحركة سريعة يهتز لها هيكله العظيم فتخال أنه يتراقص ، ثم تنسجم هذه الحركة بعد الدقائق الأولى من الحصة مع نبرات صوته وخلجات ذهنه وطرفات أهدابنا وتردد أنفاسنا فتكون كلا متسقا لايشوبه ضجر ولا تنافر ولاتناقض . إلى أن تمزق وحدته دقة الجرس بيد الفراش في الفناء الخلفي من مدرستنا الكبيرة.

كان يغضبي حين يلقب مصطفى كامل بالسيد الخالد وكان اغضاؤه حافلا بروحانية وجلال تبعثرت بذورها في نفسي على مر الزمن . وكنت لا أحول وجهي عن وجهه المنمق المتناسب وإن كان ضخما واسع الرقعة كبير الجرم . وكان نظري إليه في ارتفاعه يقتضيني أن أشرئب بعنقي فأطرحه إلى الوراء حتى تطول رقبتي من الأمام ويتلاشى طولها من الخلف ويرسم زر طربوشي مع جداره زاوية حادة تبلغ نهاية ضيقها عند قرص الطربوش ، ثم ينوس الزر - كما قال الجالس من خلفي - نوسانا هادئا بندوليا رتيبا متمشيا مع نبرة الأستاذ التي لاترتفع ولاتنخفض كأنها خرير أحد الجداول ، وأبقى هكذا طوال الحصة إلى أن تمزق سكتتي وجمودي دقة الجرس ، فأرد عنقي إلى وضعه الأول وتأخذ الزاوية الحادة التي كونها الزر في التلاشي قليلا قليلا حتى يكف البندول عن الحركة ، وهنا يكتم زميلي ضحكة معتادة ! وكنت إذا طالعت صورة الزعيم في صحيفة أو كتاب خفق قلبي له فعزوت حبي فيه إلى أستاذنا الذي كان يتعهد ذكره بمناسبة وغير مناسبة ، ولكني انتبهت عصر يوم من الأيام إلى شيء أحال قضية حبه العامة إلى قضية كادت تكون شخصية ، ونقلها من حواشي القلب إلى الصميم المستنير الواضح حيث

ينصب نور المعرفة على أشخاص قلائل يتمتعون بالإقامة فيه إلى أن تكف قلوبنا عن الخفقان .

***

كان الوقت عصرا والفصل ربيعا ، لكن اليوم كان خليطا من دفء وبرد كأنه أحد « الجيوب » التى ستنقى بزوالها مقاومة الشتاء . وكنت إذ ذاك فى حجرة النوم المستطيلة التى آوى إليها أنا وأمى كل مساء كما يأوى بقية الأحياء . وقد اقتعدت كرسيا من القش موضوعا أمام منضدة مربعة صغيرة جعلت على يسار الداخل وقد بسط عليها كتاب جعلت أحملق فيه غائب الفكر حاضر النظرات . كنت فى السنة الأولى الثانوية ولم أكن منقولا ، وكنت فى الثانية عشرة من عمرى وربما كنت أعبر إلى مابعدها . وكنت أحس بنفسى فى ذلك الحين إحساسا مشوشا مضطربا غامضا تشتبك معارفه بنكراته ، وتلتف مسراته بمساءاته ، كأنه إدراك السكارى أو المحمومين . ولم أكن أفكر فى الحياة تفكيرا يناسب سنى ولا أطبق عليها منطق الغلمان من لداتى ، ولكننى كنت أنظر إليها ببلاهة يكاد يسترخى معها فكى من الأسفل ، وأكن لها نفورا وسوء ظن وخوفا لاأعرف فحواه ولا مداه كنفس الخوف الذى ينتابنا حين تقسرنا الظروف على إدارة آلة لانعرف كيف تدور ولافيم تستعمل .

غير أنى فى ذلك اليوم أحسست أننى « أتأمل » وشعرت أننى حى من الأحياء . ولاتزال حتى الآن علاقتى بالدنيا مرتبطة بعصر هذا اليوم كما ترتبط بالزمان والمكان حوادث التعارف أو كما يستفيق المريض من أثر المخدر فيقرر أنه فى سرير . أجل كنت « أتأمل » ، فجعل بصرى يجوس خلال كل شىء حولى ، فقرضت أننى دخلت الحجرة من بابها المقفل فرأيت إلى يمينى سريرا كبيرا تقع العين على طوله ، وتعابث نسمات البحر المتلمسة

طريقها من المصراع المفتوح ـ دائرا من « الدنتلا » ترقص على أديمه عرائس يحملن المزاهر ، وتداعب أيضا ظهارة بيضاء مطروحة على الحشايا وكلة رخيصة ولكنها نظيفة ، تجمع أمي أطرافها كل صباح تحت سماء السرير على هيئة قبة مقلوبة ثم تربطها بشريط من الحرير الأحمر ، وأمام هذا السرير كنبة مريحة .

أما الشق الثاني من الحجرة والذي يقع إلى اليسار فقد كان حافلا بأشياء مهمة وإن كان قليل الأثاث : كان فيه الشباك الذي ينظر إلى البحر عن طريق « الكورنيش » وإن كنا في بقعة لاتعد راقية جدا . وكرسي أو اثنان من القش تنحط أمي على أحدهما في المساء وأجلس أنا على الثاني إذا شئنا أن نتحدث على مقربة من البحر . ومرآة للزينة يتقدم من بين يديها رف من الخشب يحمل أشياء شتى لكنها تدخل تحت اسم الزينة والعقاقير الطبية ليس غير. وأمام المرآة كرسي بلا مسند ، وفي مواجهتها على التقريب مع ميل يسير إلى البحر منضدتي الصغيرة وكرسي القش وكتابي المبسوط ، وأنا ، وعيناي المحملقتان ، وجسمي الحاضر ، وعقلي الغائب ، وصورة زيتية معلقة على الجدار فوق رأسي على التقريب ، بحيث يسهل على أن أراها منعكسة في المرآة فلا أثني إليها عنقي . وقد أكسبت هذه الصورة النصف الثاني من الحجرة أهمية خاصة على قلة الأثاث فيه وجعلت كفته راجحة جدا في ميزاني لأنها كانت صورة أبي !!

كانت صورة أبي ، وكانت موضع أفكاري ومتاهة شرودي والمفازة التي سرح في نواحيها لبي في عصر ذلك اليوم . وكانت كذلك الشيء » الذي قلت لك عنه إنه أحال قضية حبي « لمصطفى كامل » من قضية عامة إلى أخرى تكاد تكون شخصية ؛ لأنني أحسست بغتة أن هناك شبها كبيرا بين الزعيم وبين أبي ..

كان ظهري إلى الباب ووجهي إلى المرآة التي تعكس الباب بحيث أرى كل والج منه . والصورة الزيتية منعكسة على الصقال بألوانها الزاهية وإطارها المذهب . وعيناى ناظرتان لاتطرفان كأنما شدت أهدابهما إلى أديم المرآة ، والمنضدة منصوبة والكتاب مفتوح والسكون شامل وإن كان فى رأسى جلبة وضوضاء .

« آه .. كيف لم أدرك ذلك قبل ذلك . لو أن المقادير مدت لأبى فى حبل الحياة لكان فى يوم من الأيام مثل (مصطفى كامل) ، أم أن تشابه الوجوه يأتى اعتباطا ثم لايستطيع تشابها فى العقول ؟؟ لابد أن أبى كان عظيما وإن لم يعرف الناس ذلك عنه .. هل من شروط العظمة ـ أقصد أن أقول هل من مقوماتها ـ أن يعرف الناس أن صاحبها عظيم ؟ أظن لا . وإلا لنفينا عن الماس أنه ماس مالم يخرج من المنجم ! »

وابتسمت ، وخلت أن الصورة تبتسم إلى ، وتشكرنى على إطرائى بصرف النظر عن علاقتنا بالواقع . ثم أخذت شفتاى تستردان وضعهما الأول بزاوية الابتسامة ، واسترسلت فى أفكارى :

« .. إلا فى النظرة ! فى نظرة الزعيم وداعة لاتتوفر فى عينى أبى. أما الأنف فهو كالأنف . نفس الدقة والاستقامة واللطافة . والجبيـن ؟ .. رباه !! إنه كجبين أبى ، واضح نظيف لايزحف عليه شعر الناصية ، فيه ارتفاع فى المنطقة السفلى نظيف ينمو عليها شعر الحاجبين . إن المخ وراء الجبين ، فهل كان المخان متشابهين ؟! حكمتك يارب ! (ومصمصت بشفتى ثم تريثت أفكارى وعادت إلى التدفق) .

« والشارب !! . ولبسة الطربوش !! .. والشفتان المستطيلتان الدقيقتان الممدودتان على حفافى فم واسع قليلا !! »

حكمتك يارب !! (ومصمصت شفتى مرة أخرى) .

ثم خيل إلى أن الصورة فى المرآة قد شرعت تضطرب وأن معالمها أخذت تغيب كأن غلالة سوداء قد طرحت على « الأصل » المشدود إلى الحائط ثم أخذ الأمر يتطور حتى اتسع إطارها فانطبقت أضلاعه تماما على إطارالمرآة ، واختفت صورة الرجل ، وحلت محلها صورة امرأة !! وكانت هى أمى ، لأنها واقفة بلحمها ودمها بين يدى الباب بعد دخولها وعلى مقربة منى .

وزايلتنى الشرود فأحسست ارتباكا وتبينت أن لابد لى من أن أعمل عملا ما ، كان الكتاب مبسوطا والصفحة لم تتغير منذ دخولها الحمام فأخذت أهتف بصوت عال وأتناوح وأنا أقرأ كما يفعل تلامذة الكتاتيب : المميزات الطبيعية لحوض البحر الأبيض المتوسط هى : تمرة واحد .. »

كنت أعلم أنها محاولة فاشلة لكنها خير من السكوت ، غير أن أمى أجبرتنى على السكوت سريعا حين تقدمت إلى ووقفت خلفى يحول بين بطنها وظهرى المسند المقوس لكرسى القش ووضعت كفيها على كتفى ـ كل كف على كتف ـ ثم ابتسمت إلى ابتسامة صفراء اتسقت تماما ووجهها الشاحب وقالت لى بصوت خافض عاتب غاضب فى وقت واحد :

ـ سمعتك تقرأ هذه العبارة بصوت عال قبل دخولى الحمام منذ ثلاثة أرباع الساعة . البحر الأبيض المتوسط على مرمى أمتار منا ومع ذلك فأنت متشبث به تشبثك بالسنة الأولى ، لاتريد أن تفارق العتبة .

ثم غادرت موقفها فى طريقها إلى المرآة ولوت شفتيها بمرارة وهتفت بعنف :

ـ « بايت خايب عار » ليتك كنت فتاة إذن لشققت طريقك بوجهك الذى لايخلو من وسامة ، أما الصبيان فهم فى حاجة إلى شىء غير هذا .

وتنهدت على حين لذت بصمت عميق وجعلت أرقب ظهرها فى فضاء

الحجرة ووجهها في صفحة المرآة فتيسر لى أن أراها من كل ناحية .

كانت يدها ترتجف خفيفا وكذلك شفتها السفلى . وكانت تلبس مجسدا زاهيا فى لون أزهار البنفسج وتنتشر على ظهرها وكتفيها ذوائب شعرها المبلول تحت المنشفة الكبيرة التى جعلتها على رأسها من موضع الشال . وفى اللحظة التى استقرت فيها على الكرسى أمام منضدة الزينة أمرتنى بأن أغلق المصراع المفتوح من النافذة الوحيدة فى الحجرة حتى تفرغ من ترجيل شعرها ، ففعلت ثم عدت إلى مكانى ، وحسرت المنشفة عن رأسها فى حركة لاتخلو من عنف وضجر ثم زوت مابين حاجبيها وهى تنظر فى المرآة وأخذت أطالع وجهها المكدود وسط هذا الصمت المطبق الذى أمسك بتلابيبها معا على حين بدأت هى تتناول مشطها من بين زحمة الحاجات على الرف ، وما إن عثرت عليه حتى بدأت تعمله فى تلافيف شعر طويل أصفر وهى تغمغم :

ـ هيه .. هل تستطيع أن تنبئنى أيها الشارد الذاهل عما كنت غائبا فيه منذ مدة ؟!

كانت خطتى معها دائما هى أن أكبح جماح نفسى أمام غضباتها فقلما ثرت وربما لم يقع ذلك . ومرجع هذا إلى أننى كنت أراها ـ كما هى الآن ـ امرأة مترملة مريضة تدبر أمر معاشينا ببقية أعصاب وصحة ، كما أننى كسير الخاطر لتيقنى أمر ضعفى وأقصد ضعفى فى الدراسة ؛ لأننى كنت من الناحية الجسدية مستوفيا شرائط القوة .

فأجبتها فى تودد وخنوع :

ـ كنت غائبا فى .. فى لا شىء .

فقالت فى سخرية كأنها تشير إلى إخفاقى :

ـ معقول !! جدا .. وكيف غاب عنى هذا ؟!

فاغرورقت عيناى بالدموع للمرة الأولى فى تاريخ علاقتى بأمى

وأحسست كأن شيئا يعترض حلقي بل وكأن صدري قد نجم به ناجم ثقيل عسر على التنفس فلم أملك أن نفخت باشمئزاز .

كانت ذكريات أبي ـ ولاشك ـ هي العامل الرئيسي في إثارتي وكأنني كنت أقول بيني وبين نفسي : لو أن هذا الزورق لم يحتمله النوء على غارب الأمواج لماتلاحى هذا الراكبان أعنى أنا وأمي !! « وتابعت منطق الغلمان » ولو أنه تريث قليلا فلم يمت حتى درجت في دروب الحياة والمصباح في يميني لتغير الموقف . كان من الممكن أن تعيش أمي بمنجاة من الأمراض ؛ لأنها اعتامتها بعد موته مباشرة . وكان من المؤكد أن تعيش هي بمعزل عن مشاكل البيت ، وبخاصة الاقتصادي منها ، وكان من الجائز ألا أكون بليدا في المدرسة ..

لم لا ؟!

واحتقن وجهي حتى تجاوز احتقانه بشرتي إلى بياض عيني ، ورأت أمي ما بي فتحول غضبها من موقفي الأول إلى غضب من أجلي على موقفي الثاني ، كأنما كانت تأمل في هذه الآونة ألا أتخلى عن احتمالي لأعباء غضبها ، فلما تخليت ساءها ذلك . وتوقفت كفها عن المشط وتحولت بشقها إلى حتي واجهت كتفها المرآة ثم سألتني في هدوء نسبي وهي تمرر إبهامها على أسنان المشط :

ـ لماذا أنت غاضب ؟!

فأجهشت بالبكاء !! وكان من الطبيعي جدا أن تقوم وتقبلني حتى أحسست برودة شعرها الرطب على عنقي وخدي ، وكانت قليلا ماتفعل . لست أتهمها بالقسوة ولا بالانصراف عني ؛ لأنها في الحقيقة امرأة طيبة القلب ، لكن الظروف الخاصة التي تربصت لها عند مدخل الحياة الزوجية أكسبتها عدة عادات ألقت ظلالا من القسوة على معاملتها إياي . وفي

الحق أننى كنت أنا شخصيا نقطة ضعف فى حياتها الخاصة ؛ لأنها لم تكن تراني من الموفقين فى الدروس على حين كان الآخرون من أبناء الجيران والمعارف يكادون يقطعون سنى الدراسة وثبا لو لم تقيدهم السنوات ، وذلك على قلة عملهم وكثرة لعبهم . أما أنا فقد كنت كثير العمل قليل اللعب نادر التوفيق .

ومن أظهر العادات التى فرضتها الحياة على أمى أنها من صنف لايطيق أن يزاول التجربة للمرة الثانية مادام قد فشل فيها للمرة الأولى . فلن تعيد صنع فطيرة جديدة على يديها إذا خانها التجهيز بعد توافر العناصر، ولن تشرب الدواء غير مرة فإذا لم تحس ثمرة أعرضت عن زجاجته، حتى ازدحم رف المرآة بالزجاجات والأحقاق .

ولعل أطرف مظاهر عاداتها هذه هى مأساة خادمنا الصغير ذلك الريفى الطيب الذى كنا ندعوه باسم « عبده » كان فى الثامنة من عمره ضخم البطن قليلا من شرب ماء الترع ، أسمر لوحته الصفرة ، أو أصفر موهته السمرة ، يميز وجهه البرىء الساذج نقطتان من وشم أخضر كانت إحداهما فى أسفل ذقنه وكانت أخراهما على يمين أنفه عند السفح بحذاء الأرنبة . وقدر لهذا الخادم أن يمضى عاما واحدا فى بيتنا ، ولكنى ألفته حتى كدت أتخذه صديقا، وكانت أمى تحبه لأنها تثور عليه وتنفجر فى وجهه فيبتسم لها وهو يرتعش ، ولعلها كانت ترى فيه متنفسا طبيعيا لغضبها الدائم كأنها دخلت هذه المهمة ضمن المهمات التى يقوم بها المسكين !! لكن الظروف بخلت عليه بهذه المنة واستكثرت عليها هذه النعمة فيسرت « لعبده » فى ضحا أحد الأيام أثناء عودته من السوق كلبا ضالا نهشه السعار فنهش رجل خادمنا بأنيابه المسمومة . وقد تبعثرت أعصاب أمى فى كل فج صباح ذلك اليوم : فصرخت فى المطبخ وولولت فى الصالة وصخبت فى حجرة الجلوس ولطمت

خديها في حجرة النوم وركلت كراسي مائدة الطعام وبصقت تقززا واشمئزازا في حوض الغسيل ثم صبت على وجهها بعد ذلك ماء باردا لكي تستفيق . حدث هذا كله في خمس دقائق ، وربما في أقل .

وسرى السم في جسد الصبي حتى تراجع فعل الدواء ، وحتى مات في إحدى الليالي وهو يعوى بين نزلاء المستشفى كما تعوى الكلاب الضالة . ثم بقيت أمي مؤرقة عدة شهور تنتفض في الفراش لتشعل النور إذا ما سمعت في جوف الليل نبحة كلب ! ..

واعتبرت أمي هذه الحادثة موجهة لشخصها مباشرة ، ولعلها اعتبرتها ابتكارا من الزمان غير طريف ، فصممت على ألا تعاود هذه التجربة مرة أخرى ، فلم يدخل بيتنا خادم منذ ذلك التاريخ ، لا كبير ولاصغير ولا ذكر ولا أنثى ، وقمت أنا بمهام الخدم في حدود طاقة غلام مثلي .

وكان لمبيتي في السنة الأولى وقع سيىء على نفسها ، ولعل نفسها قد راودتها أن تطبق على قاعدتها المألوفة فتحول بيني وبين الدراسة . ولكن لعلها تساءلت : إلى أين إذن مسيرى وكيف يكون مصيرى ؟ فكفت وأمسكت .

هذه هي الأم التي سيطرت على حياتي بعد وفاة أبي وأنا في الثامنة من عمرى ، وما كنت ناقما عليها من قبل ، ولكنني أعاتبها بعد أن قام بيننا الزمن وأسائل روحها في عالم الأرواح قائلا لها : هل يلدنا آباؤنا ليكون وضعنا منهم كما كان وضعى منها ، متنفسا للغضب ، وتعبيرا للفشل ؟! كلا . إننا نتطلب من الأم العطف والرحمة والحنان مادامت البشرية في حاجة إلى الأمومة . ألست ترى أننا نتحسس بأيدينا طريقنا إلى أثدائهن حتى ولو كن محمومات ؟!

وفرغت أمي من تمشيط رأسها ، ثم أرسلت على ظهرها ضفيرتين من

شعر تشويه الصفرة ، وكانتا غزيرتين مجدولتين فى توثيق لطيف مربوطتين عند النهاية بشريط من الحرير الأسود .

ثم عادت تسألنى :

ـ لماذا أنت غاضب !

قلت :

ـ لأنك تعتبريننى بليدا !!

فأجابت بثقة فيها شىء من الرقة :

ـ هل ترانى عدوت الحقيقة ؟!

فسألتها متعطشا إلى أن تهدينى :

ـ ولماذا أنا بليد هكذا يا أماه ؟

فلم تأتنى إجابتها سريعا ، بل رأيتها تهز رأسها متلمسة سبيل الجواب فأحسست راحة ، أو استشعرت شماتة أنها بليدة مثلى . وانقضت فترة غير طويلة حتى سمعتها بعدها تقول :

ـ هكذا خلقك الله !!

فهمست وأنا أتنفس الصعداء :

ـ إذن فما ذنبى ؟! ثم ألاتعلمين أن شرودى وتفكيرى قد كان فى شىء هام ..كان فى هذه الصورة « وأشرت إلى أبى فى المرآة » .

فتنهدت ثم اشرأبت بجيدها الطويل الذى عاث فى رشاقته المرض ، وألقت نظرة على الصورة كأنها لم تكن تعرفها . كان وجهها إلى ناحية البحر ، وجنبها الأيمن فى تجاه المرآة . وجنبها الأيسر فى تجاهى . وهى جالسة على الكرسى الذى لامسند له ، فكنت بهذا الوضع أرى عينيها وهما تلقيان على الصورة نظرة جانبية ، كانت غامضة ، لم يكن فيها حنان ، ولم تندها الذكرى بالدمع ، لم ؟.

ربما استنبطت ذلك من خلال القصة التى روتها لى بعد العشاء ، حين ارتمت على أحد الكرسيين متهالكة إلى جوار النافذة . وجلست أنا على الكرسى الثانى .

***

أب من دمنهور ، وأم من المنصورة ، وبيت زوجية فى الإسكندرية التقى فيه رجل وامرأة ثم كان وليد أطلقوا عليه اسم « مختار » وذلك هو .. أنا !.

دعنى أقطع عليك سياق قصتى فترة قصيرة لن ترهق ذهنك لأسألك فى بساطة : ما الذى كان يحدث لو تخلف عنصر من هذه العناصر ؟ أعنى لو أن دمنهور لم تلتق مع المنصورة؟ أو أن الإسكندرية لم تجمع بين هذين الفردين؟ أو ماذا - وهو أتفه ما يجوز - لو أن هذين النصفين المتطابقين تخاصما ليلتئذ أوأفزعهما طارق ما .. ؟ لو وقع أحد هذه الفروض ، ما سمعت قصة « مختار » ، ولارتاح هو نفسه من أمور يراها غير ضرورية بالنسبة إليه ويعتقد أن فرضها عليه لايفيد هذه الرقعة الكبرى التى نسميها العالم !

كان أبى قبل أن يخطو خطوة واحدة نحو « وجودى » أحد تجار المنسوجات فى مدينة «دمنهور » مسقط رأسه . ويتخذ دكانا صغيرا فى شوارعها القائمة ، لكن رونق شبابه وجمال صورته وعذوبة حديثه كانت مجلبة للشارين ، ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى تفتحت له أبواب الرزق واتسعت تجارته وامتلأ كيسه بالذهب فأشير عليه أن يرتحل إلى الإسكندرية حيث الأفق واسع والمجال فسيح للمغامر الطامع البعيد الهمة . وقد فعل أبى وانتقل وراء حظه وحالفه التوفيق .

ولم ينقض ذلك العام حتى وقع فى حياته الحادث الهام الذى كان أشبه شىء « بالمقايسة » لبناء حياتى . فإن أبى سافر إلى « المنصورة »

لشأن من شئون التجارة . جالسا إلى صديقه أحد التجار فى محله حين لفت نظره وجه جميل ..

وتدخلت المهنة والطبيعة ، فمال إلى صديقه وشرعا يتهامسان لكن عيونهما كانت تشى بأنهما يراقبان فتاة تقف مزهوة بما منحتها الطبيعة ، كما تزهى الطيور بألوانها متعرضة للعيون . وانقضت مرحلة التساؤل فبدأت مرحلة المساومة ، ثم عقدت الصفقة ثم انتقلت « أم مختار » بعد بضعة شهور إلى أحضان زوج هادىء الطبع ركين رزين مستور الحال ميسر النفقة . واستوت لهما حياة زوجية كانت حافلة فى عامها الأول بما تحفل به بيوت الأعراس من حب وتسامح وسعة وإغضاء عن العيوب إلى حين ، لأن كلا منهما ـ وقد رسم لنفسه حياة طويلة مع نصفه الآخر ـ يرى نفسه ملجأ إلى أن يؤجل مناقشة الحساب فيما لايرتضيه إلى فرصة مقبلة ، وبقيا كذلك إلى أن اتسمت حياتهما بميسم « القدم » الذى يتربص دائما لكل جديد، وبدا طبع أمى النارى يصطدم مع طبعه الهادىء فى كثير من الشئون التى تخرج عن « الاقتصاديات » كأن تحاسبه على تبسطه فى الحديث أمام امرأة أو مبيته خارج بيته لشئون التجارة مع استطاعته العودة فى فرضها هى . ولكن هذه الغارات كانت ترتد وقد اكلت نفسها بنفسها كما تفعل النار ؛ لأن أبى كان يتراجع إلى أن يتحصن بصمت وابتسام كادا يستحيلان طابعا له .

على أنها كانت تحبه ، وقد أورثها حبها حرصا عليه ودت لوتحول فى يوم ماقفلا كأقفال الخزان . إلى أن شاركتهما أنا مسكنهما بعد ثلاثة أعوام من زواجهما فكنت أشبه بعلبة صغيرة من المرهم تمتد إليها يد كل منهما بعد جراح الثانى ، ولو أن حياتهما فى مجموعها كانت ترفرف عليها السعادة .

لكن الزمن سدد إلى أمى سهمين قاسيين لم يدع بينهما فترة حتى ترقأ دماء أولهما ، فإنه انتزع منها أباها وأخاها فى عام واحد ، فبدأ بالشيخ ثم

ختم بالشاب ووجد أبى نفسه مضطرا إلى أن يواجه طبع زوجته « باعتماد » جديد من التلطف والمصابرة فى غضبها الذى ما كانت تسبقه النذر ، وقد كان رجلا واسع الحيلة فى هذا الفن ، ولعل ممارسته لتلك الحياة قد أكسبته فيها خبرة من لون التى يفتخر بها مدربو الوحوش أو رقاة الثعابين .

غير أن المقادير تحتفظ لنفسها دائما بالمرقعة الأخيرة .. لابد أن يكون لها الظفر فلا تدع قوانا قادرة على تحمل كل شىء ولاتدبير كل مشكلة وإلا لوجد بيتنا القادر الكامل . وامتحنت المقادير أبى بمحنة جديدة حين بدأ الوسواس يسيطر على فكر زوجته فتوهمت أنه يحب . ولعله حاورها قائلا:

ـ ولماذا يا سيدتى مادمت غير محروم من الجمال ، ومادام فى بيتى أنموذج منه تستضىء به أركانه ؟

فأجابته قائلة :

ـ أعلم ذلك ، ولكنى أضايقك أحيانا .

ـ ولماذا تفعلين ؟

ـ لأننى .. أحبك .

ـ إننا نتطلب المعنى الذى يسعدنا لاالمعنى الذى يشقينا ، فإذا كان الكره هو الذى يسعد فلنسمه الحب .

ولكنها لا تجيب . ثم تبكى . ثم تفعل الدموع بجمالها مايفعله الغمام فى سرارة الروضة فيقوم إليها ـ فيما أتخيل ـ ساعيا مصالحا مفسدا نظام الدموع على خدها بتنقل شفتيه المرتجفتين .

وهكذا تفعل الجميلات .

لكن الإنسان يتذكر دائما ما يبذله ، وقد بذل الكثير دون أن يحس ، لكنه لابد له من لحظة يحاسب فيها نفسه ويراجع فيها دفاتره . وذلك هو عين ما كان يحدث عقب كل منحة يقدمها أبى « لأم مختار » ، قد تكون منحة

يستلذها ساعة ولكنه ولاشك كان يزنها فى ساعات الهدوء ليعلم ما مقدارها ، وفى ذلك دليل حاسم على أن فى القلب شيئا ما من النقمة .

والقضايا بين الأحباب والأزواج « المتعاشقين لا المتصادقين تستأنف نفسها بنفسها كما تستأنف فصول السنة بداياتها بلا استئذان . ومدلول هذا أن قضية ما تقوم بين زوجين أو حبيبين من المحال أن تنتهى بالنقاش ولو كان منطقيا مرتبا سليما ؛ لأن العقل فى هذه المواقف لا يكون أبدا على المسرح ، أقصد أنه لا يشترك فى الموضوع وإنما يكون فى « الشرفات » يرقب وينظر، وربما عن له أن يحكم ، ولكن بعد اسدال الستار على الفصل الأخير .

من أجل ذلك كانت المشكلات القائمة فى بيت أبى متجددة بطبيعتها حتى أضحت فى بيتنا كمزرعة البرسيم لا يبلغ الرعاة آخرها حتى ينبت أولها من جديد . واستمر أبى صابرا مرابطا فى عش الزوجية متعلقا بالعصفور الصغير خالقا من المعاذير لغلطات زوجته ما تعجز هى نفسها عن خلقه لو شاءت ، وقلما كانت تحاول !!

ثم بلغت قدرة أبى ذروتها وبلغ احتماله نهايته ، بل وأخذ دوره فى صف جديد هو صف الذين يحتاجون إلى المواساة والترفيه ، وأصبح لزاما على أمى أن تتخلى عن مكانها له ولو إلى فترة من الزمان . وسر ذلك منغصات خارجية بدأت تناوشه ، كانت سوق المنسوجات فى تلكم السنوات أشبه ماتكون بأرجوحة الصناديق ذات صرير وضجيج وارتفاع وانخفاض ، حتى محيت أسماء تجار كانوا من اللامعين ، وارتفعت أسماء كان أصحابها فى الحضيض . وأصبح التاجر المتوثب من أمثال أبى فى عراك مع نفسه دائب دائم . ونشط الوسطاء وتسلح المضاربون بحيل خسيسة . وحينما تسود الخشية من الفقر تسود كذلك الرغبة فى الغنى ، أعنى الذين كانوا يريدون أن يتخلصوا من بضائعهم بأقل ثمن مخافة الإملاق وجدوا من يقبلونها منهم

تطلعا إلى الثروة ، وكان أبى دائما من المتطلعين .

وتخلى عن طبعه المألوف في البيت فلم يطاول زوجته اللجوج الملحاح ولم يصبر على أذاها . كان كالجالس على مائدة القمار في هذه الفترة من حياته ، فلم يكن يطيق أن يسمع إلا ما يوافق أفكاره ، أما أن تنهاه عن اللعب أو تحدثه في شيء خارج عن المائدة الخضراء فذلك كفيل بأن يشعل ثورته .

والتقى طبعان ناريان أحدهما دائم والآخر موقوت ، فأرسلا شرارا ودخانا كثيرا ماتصاعد من النوافذ ومساقط النور ، فتأذى بهما الجيران ، ولم تعد علبة المرهم الصغيرة مجدية إزاء الجراح الخطرة . وتطورت الحالة في الخارج ، فنجا الذين تطلبوا السلامة وخافوا من الفقر ، أما طلاب الثروات فقد ماتوا تحت أكداس البضائع ، كما مات أحد العلماء تحت أكداس الكتب .. كلاهما طامع في الثروة فأهلكته أدواتها !!

ضاعت ثروة المسكين . أجل ضاعت ثروة أبى . ودخلت عليه الفاقة من نافذة كان يفتحها للغنى بيديه . وتلقى الصدمة بأعصاب استهلكت في ميدان البيت ، ولم تكن الهزيمة داخلة قط في حسابه ، وهذا شر ما فعل الحاسبون ، وأنصفت أمى فأطفأت كانونها لفترة وحبست دخانها مدة : حتى يثوب الرشد إلى رجلها المنكوب . ولكن ليس الكف عن جلد الموتى مما يستحق الثناء ، ولاهو داخل في حساب الفاضلين ، وإن كان جلد الموتى من الكبائر .

ولم تطل الهدنة كثيرا ؛ لأن أمى كانت محاربة بطبعها ، لكنها لا تحارب إلا في الجبهة الداخلية ، وأطلت المشاكل القديمة بين الزوجين برموسها ورفعت أغطية القماقم ، وأسرعت أمى فشهرت السلاح ، ولم يطق الرجل التحدى ؛ لأنه كان كما حدثتك جديرا بأن يأخذ دوره في الترفيه والراحة .

وكان لزاما على أمي أن تتخلى له عن مكانها ، ولو إلى فترة من الزمن . لكن اللجاجة طالت ونشط الكانون ، وكان كانون شتاء وقوده مبلول ، فارتفعت سحائب الدخان حتى أعمت الجيران .

وكان أبي في ذلك الحين يعمل وسيطا في السوق . ويتردد على تجار كانوا بالأمس يترددون عليه وهذا شيء يستدر العطف ، لكنه احتمل على كل حال صابرا أو ناقما أو يائسا أو مقتنعا ، فذلك لا يعنى ، لأن الذي يعنى إنما هو كسب الرغيف .

ثم استشرى اللجاج ، واضطرمت المخاصمة ، وكنت إذ ذاك صبيا أستطيع أن أفهم مغازي بعض ما يقال ، ولعل أبي قد أحرز انتصارا لم ترضه سيدته فلجأت إلى سلاح جديد ، اعتقد أن قوانين الحروب تحرم استعماله في البيوت ، كما تحرم في الميادين إطلاق الغازات أو جراثيم الأوبئة . أما ذلك السلاح فهو التعيير بالفشل !!

لم أر يا صديقي ثورة رجل هادىء ، ولاغضبة رجل غضوب تقارب في مظهرها غضبة أبي في هذا المساء ، فقد استحال وجهه الوسيم إلى شيء غريب أنكرت فيه ملامحه ، وأشد ما أفزعني هوجحوظ عينيه واحمرارهما ، والزبد الذي كان يسيل من جانبي فمه ، وكفاه المتكورتان في قبضة مجموعة لم ينازل بهما إلا أشباحا في الهواء كان يكيل لها الضربات ، أما هي فقد انزوت كالهرة المقرورة راجفة خائفة متوقعة بطشه بين طرفة وطرفة ، ولم يفعل أبي شيئا مما توجست ، بل كان يدمدم ويخلط قائلا في ألفاظ متداركة متشابهة النبرات :

ـ أنا فاشل ؟. أنا خائب ؟! لو لم أكن أستحق هذا لما رزأني به الله ؟! هكذا .. عيرني من ظفرت وحدها بثمرات حياتي ؟! نساء .. نساء .. آه .. آخ .

ثم ينهار متهالكا على مقعد قريب ، ثم يدور في نواحي الشقة مرة أخرى ليستأنف الشوط ، على حين تركته هي ولجأت إلى فراشها . ولعلها وقفت إلى مرآتها قبل أن يدخل المخدع لتهيىء سلاح جمالها فى هذه المرة كذلك . ولم يسمع الرجل منها كلمة اعتذار ، ولاحتى كلمة مناوشة جديدة ، كأنما رأت من الأفضل أن تتركه يهدىء نفسه .

واستغرقت أنا فى نومى قبيل منتصف الليل ، فلم أحس ما وقع لكن صيحات متفرقة عالية أجبرت شعورى على أن يسجلها فى نومى الثقيل ، وكانت فيما أتذكر أشبه شىء بالطلقات المتقطعة التى تتجاوب فى الفضاء فى جوف الليل البهيم . وأصبح الصباح فلم أر أبى على مائدة الفطور ؛ فتساءلت بعينى ، ولكن أمى كانت تقابل ذلك بالإغضاء والإهمال ، فلما لم أجد مندوحة من النطق سألتها بلسانى ، فغمغمت فى ضجر وسرعة واستنكار :

ـ ذهب لشأنه .. كل !!

فأمسكت ، ولم أزد .

ولم تكن هناك مائدة غداء فأكلت وحدى ، لا ولا مائدة عشاء فأكلت وحدى ؛ لأن أبى لم يعد ولم تجلس أمى إلى طعام قط . وبدا عليها أنها قلقة ، وأنها ذهبت عدة مرات ففحصت خزانة الملابس ، ثم عادت ففحصت صناديق وعلبا وأشياء أخرى . وكانت تقول فى كل مرة :« حسن . كده .. زى بعضه » نبرات توحى بخطر أو جزع ، أو عدم مبالاة يبدو فيها تكلف واصطناع .

ثم أفصحت الأيام التوالى عن مدى حزنها وندمها ؛ لأنه قد هجر البيت وأحست « أم مختار » أن مسألتها لم تعد فى حدود الجيران بل قد تجاوزتها إلى الخارج عن طريق غير طريق النوافذ ومساقط النور ، فاستشعرت خجلا !!

ولكن ماذا يصنع لها الخجل ؟

كنا نملك بطبيعة الحال ما يسد حاجتنا وييسر لنا الإنفاق ، ولكن كثيرا من الناس لا يتبينون إلا بعد فوات الفرصة أن المسألة ليست مسألة قرش ولاأكلة شهية ، إنما العبرة كلها بالجو العام . وقد أدركت ذلك أمى فاستشعرت خجلا ولكن ماذا يصنع لها الخجل ؟!

لم تمض أيام حتى تلقينا رسالة معنونة باسمى كانت أول رسالة يحملها إلى البريد ، وشاءت المقادير أن تكون هذه هى ظروفها ، ومزقت « أم مختار » غلافها على مشهد منى بعجلة خفت معهاعلى رقعة الرسالة ، لأنها عرفت خط أبى ثم طالعتنا بعد فضها مباشرة رقعة صفراء لم تعجز مداركى القاصرة يومئذ أن تدلنى على أنها ليست خطابا فقد كانت حوالة بريد بعدة جنيهات عليها خاتم إحدى عواصم الوجه القبلى ولم يكن معها قصاصة تحمل كلمة واحدة !!

وحملت أمى رأسها بين كفيها ، ثم شرعت تنتحب فأطلقت السبيل لدموع الحزن بعد أن فرغت من دموع الدلال وبكيت بجوارها ، وأحببت أبى جدا فى هذه اللحظة ؛ لأنى قرأت فى تلك الدموع شهادة منها على أنه مظلوم . ثم جففت دمعى بكمى على أثر صرختها التى تأمرنى بالسكوت لأن الأمر بسيط لايستلزم بكاء !! على حين كانت العبرات لاتزال تجرى على خديها .

ثم رأيتها بعد ساعات تجهز حقيبة وتلبس ملابس شأن من يستعد للسفر . ولما سألتها بعينى الملهوفتين لم تمن على بجواب ، فسألتها فى اضطراب وإخلاص :

ـ أمسافرة أنت كذلك ياأماه !؟

فتشاغلت أو لعلها لم تسمع ، فقلت :

ـ مسافرة أنـ ....

فجاءتني صرختها تقول :

ـ إذن فما تظنني فاعلة ؟ ألا ترى أنه من المحتم أن نبحث عنه ؟ لو كان رجلا عاقلا ما اجترح هذه الخطيئة ، « منه لله » !!

ثم ذهبت إلى النافذة فنظرت إلى الفضاء برهة ثم رجعت فوقفت أمام المرآة ساهمة جامدة شاردة اللب إلى مدة خلت معها أنها تجمدت أو أن سحرا أحالها في موضعها إلى تمثال من الشمع ، أؤكد لك أن شيئا من الخوف قد زحف إلى قلبي لأنني شعرت أنني أمام مخلوقة خارقة بل ضعيفة يجب أن يحمل بها وتولد من جديد . كانت في حاجة إلى من يمد إليها يده ليخرجها من الأنقاض قبل أن تختنق ، ولكن لست أدري لماذ لم تستشر أحدا، لعلها كانت تخاف من الفضائح !!

ثم رأيتها تتناول الحقيبة لتفتحها وتستخرج منها ما قد كانت رتبته ثم تنحو على ملابس الخروج ناضية إياها في عنف وثورة ناسية أن بعض أجزاء جسدها بان من أعلى القميص لعين لا يجب أن تراها ولو كانت عين ابنها ، ولبست ملابس البيت فنظرت إليها أسألها بلا ألفاظ : هل عدلت ؟ فلما قابلت تساؤلي بالإغضاء لم أحاول تكراره ؛ لأنني خفت أن يصيبني مكروه.

واحترفت أمي الكذب مدة شهر ولعلها كانت تجهز مجموعة من الإجابات كل ليلة وهي في فراشها لتواجه بها السائلين ، ثم جاءتنا رسالة أخرى لم يكن فيها إلا الورقة الصفراء كذلك ، أعني حوالة البريد التي تحمل إلينا النقود . وكان الخاتم من مكتب المنصورة فلم تتردد أمي في هذه اللحظة فإنها لبست وسافرت تاركة ابنها عند أسرة في الشقة التي فوق شقتنا ، نزلت عندهم ضيفا ذليلا وإن عاملوني معاملة الأعزاء . ولعل الذي شجع أمي على السفر أن المنصورة معروفة لديها وأن معاونة حقيقية ربما بذلت في

التحرى عن مقام أبى . وانقضت ليلتان عادت بعدها وملامح وجهها تحمل نتيجة الرحلة ، ثم تبينا بعد ذلك أنه لم يكن يرسل خطاباته إلا قبل رحيله عن مقامه المؤقت بيوم أو يومين .

وتنقضى خمسة شهور كوامل يطرق علينا الباب بعدها فى منتصف الليل رجل تعرف أمى صوته وتنكر صورته ، لاتلبث أن تهتدى فيه إلى ملامح رجلها القديم فتتلقاه فى أحضانها هيكلا طويلا ناحلا مريضا ويجهشان بالبكاء فى وقت واحد . وكان عجبى شديدا حين نفضت عنى أغطية النوم فى وقت الصباح مستيقظا على صوته لكننى كنت أنكره كذلك فلم أملك أن أحبس سوابق دموعى .

إنى لأعجب لتلك الأيات التى تطبع وجوهنا بطابع الحياة التى نحياها ، أهى حركات ذهننا فى سبيل العيش أو فى نواحى المهنة هى التى تؤثر فى صفحات وجوهنا هذا التأثيرالظاهر ؟! بحيث نقرأ فيها اللصوصية أو الشعر أو الفلسفة أو التحايل والاستهتار وبحيث نلمح الخلل والجنون مطلا من نوافذ العيون ؟ لعلى مصيب فيما أظنه ؛ لأن ماء النعيم وتورد العز ونظرة التاجر وابتسامة التودد كل أولئك كان قد غاض من هذه الصفحة فعرفت فى وجه أبى وجوه السماسرة المرضى المعوزين الذين كانوا يدخلون إلى محله وقد رأيتهم من قبل .

ثم سارت الحياة ظالعة عرجاء ، وابتدأ الشريكان يقتسمان البؤس اقتساما حقيقيا حملت أمى نصيبها منه دون أن تجأر بالشكوى أو التذكر ، لأن أبى إن جازت مسئوليته عن موقفه فى التجارة فإن « أم مختار » يجب أن تحمل مسئوليتها عن موقفها الأخير الذى حمل أبى على التشرد إلى مدى شهور ثم أرجعه بعد ذلك مثخنا بالجراح . كان مريضا فى غير سعة بعد أن كان صحيحا يعيش فى بحبوحة . فانظر كيف أن البلايا لاتسير إلا فى

قوافل أو أسراب أومجاميع !!

ثم من يدرى ؟! لعل أمى كانت تعزو فقدانه صحته إلى ارتمائه فى أحضان مومس طالما أنه لم يلق الهناء فى أحضانها هى . لعل هذا الخاطر كان ينتابها ولكن هل تستطيع أن تتفوه بكلمة ؟ إنها استهلكت حظها من الكلام فى أعوام قليلة !!

أجل سارت الحياة ظالعة عرجاء حتى كلت من الظلع وتعبت من العرج فرأت أنه لا بد من أن تتوقف !!

وكيف تتوقف الحياة ؟! هل رأيت دوحة ضخمة عظيمة محلالا دائمة الخضرة فخدعتك بخضرتها طوال الفصول حتى ظننت أنها لاتسقط ورقة ؟ ذلك هو غير مايحدث ؛ لأن هناك أوراقا يحين حينها فتسقط عندما تحبس عنها الشجرة عصارة الحياة . وهكذا دنيانا تتوقف فى بعض أجزائها فلايشعر المجموع !! وقد توقفت الحياة فى بيتنا بعد عام من عرجها الطارىء وعودة أبى إلى البيت ، وتوقفت مع الأسف فى أجمل نواحيها نفعا .

مات أبى فغاب عن سوق السمسرة ، كما قد غاب من قبل عن سوق التجارة !!

***

« قصت على أمى بعض هذه الحوادث بعد العشاء حين ارتمت على أحد الكرسيين متهالكة إلى جوار النافذة . وعلمت أنا بالباقى فى سياق حياتى .. وإنه على كل حال .. لشىء فاجع !! » .

٢

إنها على الرغم من طيشها ورعونتها وأنها زوبعة لاتكف عن التدويم امرأة مستقيمة فى أخص المعانى التى نقصدها بالاستقامة إذا ما ذكرنا النساء .

على أنها قد أثيبت رغم أنفها فلم تلبس على أبى ملابس الحداد السوداء وحدها ، بل لبست معها قميصا أصفر غطاها من الفرع حتى القدم ، ألا وهو لباس المرض الكئيب حين كسل الكبد ونشطت المرارة وازدادت حموضة المعدة ، وهموما أخرى لست أدريها وإنما يقول عنها الأطباء ، فأى رجل بعد ذلك تطوع له نفسه أن يهتم بأرملة ذات ولد وهى بعد صفراء سقيمة فى ملابس سوداء !!

وانطوت أمى على نفسها انطواء السجين يستلقى على فراش السجن بعد جهد المحاكم والأمل الخداع ، فأحست نفس الاستقرار الذى يحسه حين يلمس جنبه الفراش فيتنفس الصعداء لأنه بدأ حياته واضحة وإن كانت كريهة .

جعلت ترتب شئونها المالية لعام أو عامين فتحصى ماتركه أبى من مال قليل ، وانتعش سقمها فترة حين كشفت بين أوراق أبى ما يدل على أن له ديونا بسيطة فى ذمة بعض الناس ، وكانت ديونا عادية تستطيع « أم مختار» بتحصيلها أن تأمن على معاشنا سنة جديدة .

وأدخلتنى فى اعتبارها على أننى مرفأ يؤوى إليه على قلة أمانى

وضمانى . غير أنى على كل حال نخلة فى صحراء قد ألقى ظلا خفيفا على الرمل المتقد وقد أسقط بلحة فى وقت جوع .

أما حقيقتى الشخصية التى كنت أقف عليها سريعا إذا ما سبرت أغوار نفسى فى وحدتى فى هذه الأيام فهى : أننى غلام أصلح لأى شىء إلا الدراسة . وأسرتنى هذا الوهم فلم أستطع أن أفلت منه . خلت يوما من الأيام أنى فاسد المخ ، وأن هذا المخ الفاسد لابد أن ينتهى صاحبه إلى الخبل أو إلى الذهول . فكرهت المدرسة . وأحببت يوم العطلة من بين الأيام جميعا ، وأبغضت اسم المدرس واعتبرته بينى وبين نفسى جاسوسا مهمته فضح أصحاب العقول الذين هم من طائفتى . وجعلت أجلس إلى المكتب جلسة المريض إلى مائدة الطعام . شىء يزاول بحكم العادة أو فرارا من اللوم والتعنيف .

وشغلت عن أمى بشئونى وشغلت أمى بشئونها عنى . كنت ألح على الكتاب ليصلح حالى وكانت هى تلح على الدواء ليصلح حالها ثم عدنا بنتيجتين متشابهتين بعد عامنا الأول فلم يجد عليها الدواء كما لم يجد على الدرس . وكما ازدحم رف مرآتها بالأدوية العديمة الجدوى ازدحم رأسى بالمعلومات العديمة النفع : فأخفقت هى فى العلاج وأخفقت أنا فى الامتحان فى الدور الأول .

ولعلك تذكر أننى كنت معيدا فى السنة الأولى أعنى أننى لم أكن منقولا وأننى مهدد بالفصل إن لم أكن من المستحقين دخول الدور الثانى ، وقد كان بشروط ، وقفت صبيحة ذلك اليوم أمام الورقة البيضاء المثبتة على أديم السبورة الأسود بدبابيس صفراء أربعة تلمع على زوايا الورقة تحت شعاع الشروق .

وقفت أقرأ الأسماء واحدا واحدا وأنا أتذكر جلسة كل شخص من

أصحابها في مكانه من الفصل إن كان في فصلي ، حتى إذا ماترك بصرى بياض الورقة واصطدم بسواد السبورة دون أن أعثر على اسمي ، غطت الدموع ناظرى حتى تراقصت أمامهما الأشياء . ثم جررت رجلي في حذاء قديم واسع إلى الباب حيث يخرج الراسب والناجح فخيل إلى أن البواب النوبي يرثي لحالي ، ولكني لم أكد أطأ العتبة حتى تراجعت مرة أخرى لأعيد قراءة الأسماء ، وفي هذه المرة لم تدمع العينان حتى لكأن المصاب اختلط بنفسي فأصبح جزءا منها أو لعلى اعتقدت فيه العدالة ، وربما سألت نفسي : إذن ماذا أريد ؟ أالنجح ؟ .. محال ! .

وخلفت فناء المدرسة حيث وقفت على إحدى النواصي أدبر أمرى بنفسي . قلت : كيف أزف إليها البشرى ؟! إنها مريضة مكدودة ناقمة تتوهم أن الحياة ظلمتها وأن ولدا مثلي ينسب إليها لهو من أفدح ما رمتها به الحياة ؟! فكيف العمل ؟ ولم أجد جوابا ، فأصررت على ألا أتحرك من مكاني حتى تجود على السماء برد ، ثم نظرت إلى أعلى فضلت عيناى في القبة الضخمة اللازوردية وعيناى في جيب بنطلوني تحرك فيه عدة ملاليم ، فلما رأيت السماء قلت : يارب !! ثم رجعت نفسي خائبة محسورة لأنني لم أعثر على مخرج ، فسرت ، ولم تكن وجهتي إلى البيت ، بل لم أكن أعرف إلى أين وجهتي .

وتذكرت الموت وناقشت موضوعه لكنني عدت فرأيت أنه ليس من حقي !! . من حقي فحسب أن أفشل في كل شيء .

ثم حدث ما لم يكن في حسابي إذ رأيتني أدق باب مسكننا دون أن أرتب الخطة . ورأيت أمي تفتح بوجه مقفل وعينين تبدو في بياضهما « الأزمة » وجعلت أخلع ملابسي في فتور وكسل وأنا أستمع إلى صياح المصطافين على بعد ، وأعجب من حيف الحياة وتعنت الزمن .

ودخلت على أمى عجلة مذعورة وهى تقول : « حسين » نجح ، و «عبده »
نجح ، وأنت ألم تعلم بعد فى أى شىء رسبت ؟؟

فأسعفتنى حيرتى بحل موفق ، إذ قلت : فصلت نهائيا من المدرسة لأنه لاحق لى فى الدور الثانى ، ثم شرعت ألبس ما قد كنت خلعته من ثيابى وأنا أوحى إليها بحركاتى ونظراتى أننى سأهجر البيت ، وبذلك أوقعتها هى الأخرى فى مشكلة ألهاها تطلب حل لها عن أن تجلدنى بسياط الكلام : وأفلحت خطتى بعد الشوط الأول من الجدل الذى نشب بيننا

قالت « أم مختار » بكلمات تتطاير تطاير الشرر :

ـ ألم يكفك أنك فشلت فجعلت تفكر فى جريمة الهرب ؟

وهمت أن تقول شيئا آخر، همت أن تربط الحوادث فتذكر أمرا ارتكبه أبى فى ساعة ضيق واضطرار ، فنظرت إليها محذرا فجمدت الكلمات على شفتيها المتشققتين .

لكنها على الرغم من ذلك أرغت وأزبدت وطافت بأرجاء الشقة تسب فى كل حجرة مرة وتلعن فى كل خطوة لعنة ، لكنها لم تتجاوز الأحياء إلى الأموات فارتحت لمافعلت وكافأتها بعد ساعة من الزمن فصارحتها بالحقيقة وبأن لى دورا ثانيا فى عامى الثانى وأننى لست من المفصولين . غير أنها أبدت عدم مبالاة وإن لاحت على وجهها دلائل الراحة .

ثم حدث فى الخريف التالى حدثان هامان طبعا حياتنا بطابع حسن بالنسبة إلى أسرة كأسرتنا فى حاجة عظمى إلى الترميم ، أول هذين الحادثين هو : نجاحى وانتقالى إلى السنة الثانية ، وأما الثانى فقد كان فى خصوصيات « أم مختار » .

تعرفت أمى على صديقة جديدة عن طريق صديقة قديمة عزيزة على كانت تناديها « بأم نعمات » . أما الجديدة فاسمها« زينب » ، وكانت لونا

عجيبا بين أفراد هذا الجنس .

لم تكن جميلة جدا ، وإن كان يلذ للعينين أن ترعيا ملامحها بلا توقف وخصوصا في أسفل الذقن حيث يرقد نظر الناظر على شيء كالكمثرى شهي لطيف . وأجمل من ذقنها هذا تدفق حديثها الحلو ، كانت تتكلم بطريقة تثير النهم ، كنت أنصت إليها وهي تحدث أمي فيخيل إلي أن كل مقطع من مقاطعه شيء يلتهم بالفم لا بالأذن . ويحسبك أن تعلم عنها أنها عاقر عرفت كيف تمسك زوجا شابا جميلا ميسورا بما تبذل من فتنة لاتدعها قديمة في عينيه . وحتى أنا شخصيا ـ وكنت من المراهقين ـ خيل إلي أنها تغير ملامحها ساعة تغير ملابسها ، وأنها تعمل في وجهها ما كنا نعمله في عجينة الصلصال من تبديل وتغيير. لم يخل حديثها قط من التوابل وإن كان لذيذا لا يحتاج إلى ما يحليه ، فكانت توشي كلماتها بضحكات متفرقة كل ضحكة منها كفرقعة البندقة بين شقي الكسارة ، أو بقسم لذيذ هو من خصائص المرأة المصرية ، فتقسم بعيني محدثتها الجميلتين أو بحلاوة الصداقة ، أو بحياة المحبة أو بالنبي الكريم . وكنت في كثير أستمع إليها وأنصت فأتمنى أن يستحيل حديثها قسما خالصا وقتها ضحكة طويلة . كانت مرحا وحياة وحركة ، اتصلت عن قريب ببيتنا الهامد فذكرته بالوجود . ورأت أمي فيها شخصية نادرة واعتبرتها بسرعة صديقة مخلصة ، وتدخلت جدة الصداقة بتأثيرها القوي في حياة « أم مختار » فأخذت تصغي إلى مشورة الست « زينب » بكل اهتمام فيما أشارت به .

تشعب الحديث بهما في إحدى الخلوات حتى تناول الأمراض فعلقت الصديقة في مرض أمي ، سمعتها تقول لها :

ـ مسكينة أيتها الأخت تمرضين بمحض إرادتك ، وتهزلين بمطلق مشيئتك .

فقطبت أمى مستفسرة عن غرضها فتنهدت ضيفتها فى ثقة ودلال ثم شرعت تصب فى أذنيها قطعا من السحر تعدى فعلها إلى نفسى ، فقالت :

ـ ليست قصة وعكتك بجديدة على الناس ، بل إنها قديمة قدم الأطباء والأمراض . عانيتها أنا شخصيا ، وعاناها كثير من صديقاتى لكننا تخلصنا منها لأننا لم نشأ أن نكون من المريضات .

أما خطواتك فى محنتك أنت فهى ـ بكل بساطة ـ أنت تستعينين بفعل طبيب على فعل طبيب وتتداوين من عقاربمقار ، ثم تتطلبين بعد ذلك الخضرة التى لا تمنحها إلا يد الحياة . اتخذينى اختا لك واعملى بمشورتى أو اتخذينى عدوة وضعينى تحت التجربة ثم اعدلى عما نصحت به وعودى إلى مسلكك حرة مقتنعة أومتعصبة .

أنت حزينة لست سقيمة ، وزهرة تحت ناقوس من الزجاج محرومة من الندى والنسيم ، فهلمى نجرب تحطيم الحواجز ، ونخرج معا إلى حضن الحياة مندفعتين نحو ذراعيها المفتوحتين .. وهلمى نجرب ، ماذا فى التجربة ؟! هل ترينها محظورة ؟! إنها باب المعرفة !

ثم فرقعت ضحكتها المعهودة كما تفرقع البندقة بين شقى الكسارة فخيل إلى أن أمى رأت من خلالها الحياة وأنها أطلت على مائها وبستانها ، وأن الشهية الكامنة فى كل نفس وفى كل جسد قد تيقظت فيها كما تتيقظ البراعيم فى أعواد التوت قبل الربيع . وكان مظهر هذه اليقظة عنيفا بارعا غير عادى كطبع أمى فى كل ماتفعل فإنى رأيتها صباح أحد الأيام التالية قد قامت فجلست إلى رف المرآة لتأخذ دواء يتعاطى على الريق فإذا بها تمسك بالزجاجة ثم تعيدها إلى مكانها ، ثم تعود فتمسك بها ، ثم تكف ثم تجمد ، ثم يشرد بصرها مطالعة صورتها على الصقال ثم تنتفض فجأة مهتاجة كأنها لسعت فتتناول كل ما على الرف بحركة عرفت منها حقيقة

الخطر ، ثم تذهب إلى المطبخ حيث تحطم على بلاطه كل ما كان فى حجرها من زجاج . ووقفت أطالعها من بعد مخافة أن تقذفنى بشىء ، فرأيتها بعد أن فرغت من مهمتها قد انتصبت واقفة تلهث وعيناها تبرقان ببريق من فرغ من عملية انتقام .

ولشد ما فرقعت ضحكة الست « زينب » بعد ليال حين عادت إلى بيتنا ، فأنهت إليها أمى نبأ هذه الحادثة ولم تكف عن تقبيلها إلى مدى طويل مهنئة إياها بهذه العزيمة .

تعلقت أمى بأهداب الحياة وهى فى سن تجعلها جديرة بأن تعيش . كانت لا تزال على قيد سنوات من الأربعين حين أيقظت فيها صديقتها هذه الرغبة ، وكنت دائما أشم من حديثها معى رائحة التذمر من أن الظروف حالت بينها وبين أن تتمتع بسنواتها تمتعا عاديا فقد ركزت لها اللذة فى حقبة من عمرها ، ثم ركزت لها الألم فى حقبة أخرى . ولذلك استجابت أمى إلى حديث تلك التى بشرتها بالحياة فطفقت أمى تنادى الحياة من باطنها وتستثيرها بالتحريك كما تستثير انتباه النائم .

وتعثرت شيئا ما عقب إضرابها عن الأدوية لكنها أصرت كأنما تحولت شكاسة طبعها إلى هذا الميدان « المفيد » فما لبثت أن عادت بالغنيمة .

وكان لبوادر النضرة التى لونت خديها بعد شهور وقع رائع على قلبها الظامىء .. فأخذت ترقب انتفاض اليقظة فى جسدها بلذة حببت إليها اللذة وربطت بينها وبين الست « زينب » برباط ماسى من المودة جعل أمى تذكرها بالفضل كما تذكر شخصا نجانا من الغرق . وقد كان لهذا الحادث أثرحسن فى ماليتنا طبعا لأنه وفر لنا عدة جنيهات كانت تحول إلى الطبيب والصيدلية فى كل شهر ، كما وفر لأمى طاقة عصبية كانت تحرقها بلاضرورة أيام كانت تلبس ملابس الأسقام .

وربما عن لك أن تسألنى : وهل صرت سعيدا بما آلت إليه أحوالكم فى المدة الأخيرة ؟ وجوابى عن هذا هو أن سعادتى بهذه الطوارىء لم تكن بعيدة ولاعميقة ، كانت أشبه شيء بأضواء المساء التى نراها على الأفق ثم لاتلبث أن تسطو بها جحافل الليل . جعلت أنظر إلى المستقبل نظرة حائرة ملهوفة لأنه بدا لى مظلما عميقا كمدخل الكهف ، خصوصا لأننى رأيت أمى وقد تحولت حالها .

همست إليها « زينب » بأن تخلع السواد فاستمهلتها أمى بابتسامة المقتنعين ثم سارعت بادىء زى بدء بأن ربطت ضفيرتيها بشريط من الحرير الأحمر بعد أن قلفت بالشريط الأسود من إحدى النوافذ . فذكرتنى حمرة الشريط بين الملابس القاتمة بتلون البلح الذى لا يلبث حتى يشمل كل أجزاء الثمار. وقد صح ماتوقعت فسرت حمرة الشريط من الضفيرة إلى بقية الملابس وإن اتخذت ألوانا غير زاهية جدا ، وبدأت ألمح فى بيت أبى الغائب مخايل المرأة التى تتثنى فى كل خطوة أيام كان أبى تاجرا ميسورا .

وكرهت « زينب » هذه ووددت لو أن الله من على بمنزلة أستطيع معها أن أقفل باب مسكننا فى وجه هذه المرأة ، لكننى كنت مكفولا كبير السن راسبا فى السنة الثانية معتمدا فى معاشى ونفقاتى ومطالبى جميعا على تدبير امرأة فقيرة سقيمة . وطفحت وساوسى حتى نقمت على أمى أنها عادت سليمة ، إنها تنظر اليوم إلى خيالها فى المرآة بعين تفيض بالرحمة . بل ربما تبسمت لهذا الخيال !!

***

شتان ما بين صديقتى أمى هاتين ، فالفرق بينهما عظيم . كانت « أم نعمات » صدى دقيقا لحركات أمى ، وشخصية تذوب فى كل شخصية ، هيبة منكسرة ، بيضاء بدينة تقوم فى تثاقل من عجيزتها الكبيرة ، وكثيرا

ماتعتمد بكفيها على ركبتيها وتئن وهى تقوم . فى الخمسين من عمرها ولكن فيها آثار من حسن قديم استهلكه زوج أنانى أستقل بالطيبات وحده ، وحملها وحدها بالمتاعب .

كانت تشاركنا غداءنا يوما فى الأسبوع على الأقل ، وتستمع إلى شكوى أمى بعينين نديتين بالدموع ، ومن العجب أنها كانت تأكل وتدمع ويبدو فى عينيها الحزن كما تبدو فى شفتيها الشهية .تبثها أمى أحزانها فتبدأ بالشكوى من صحتها ويأسها يئست من البرء فتوافقها وتبذل من أجلها دمعتين تسيلان على وجهها الطويل ، ويخيل إلى أن أمى كانت تخاف إذ ذاك من شهادة صديقتها بسوء حالها فتأخذ فى التراجع بنظام حين تعزو معظم مابها إلى سوء تصرف الطبيب لا إلى طبيعة المرض نفسها فلا تلبث « أم نعمات » أن تجود ببضع لعنات ترسلها إليه فى عيادته ثم تستعدى عليه الله !! وسرعان ما يتحول الحديث إلى سوء البخت وقلة الحظ ونحس الطالع فما يكون جواب ضيفتنا إلا أن تقول : أجل ما رأيت قط حظا وجمالا تخالفا مع أنثى . ثم تمصمص بشفتيها وتسند رأسها على كفها وتنقل بصرها بينى وبين أمى فى حسرة من يشاهد ميتا على فراش .

أما يوم أن نجحت في الدور الثاني فإنها كادت تهد بيتنا بالزغاريد هذا نالنى بسببه تهكم كثير ، وأما إذا أشارت لها أمى ببارقة أمل لمعت فى شىء يتعلق بنا فإنها تبدو بمظهر من رأى كل شىء وقد تحقق . وهكذا كانت امرأة لا لون لها ولاتأثير، بحيث أتخيل أن أمى كانت لا تجنى من التحدث إليها إلا مايجنيه شخص ما من مناجاة هرة أو من مطالعة وجهه فى المرآة ، لكن أمى كانت تلقى إليها بكل ما فى نفسها غثه وسمينه ، لأنها كانت الصندوق الوحيد الذى تستطيع أن تحفظ فيه أشياءها !!

ولما من الزمان على أمى بصداقة الست « زينب » أخذت « أم

نعمات » تغوص شيئا فشيئا فى ضباب الإهمال ، ولعلى لم أكن متوهما حين كنت أرى فى عينى الصديقة القديمة شيئا من عتاب يشوبه ندم كانت تلقيه فى يسر وتسامح على مسامع أمى التى لاتلبث أن تقسم لها بقسم صديقتها الجديدة أنها لن تنساها .

لكن الحقيقة البينة والواقع الواضح هو أن « أم مختار» بدأت تذوب فى شخصية « زينب » كما كانت تذوب من قبل « أم نعمات » فى شخصية أمى ، حتى بلغ الأمر مبلغا جعل أمى لا تلبس إلا مما تنتقيه والا ماتشير بتفصيله ، ولا تدبر حلا لمشكل إلا على هدى من مشورتها. ولست أعدو الحقيقة حين أقرر أن هذه السيدة كانت تصيب الهدف فى كل مارمت نحوه وكثيرا ما كانت تسلط على المشكلات العابسة ضحكتها فتنحل بين يديها كما تنحل عرا ألسنة السكارى بين أيدى الخليلات الحسان .

شكت إليها أمى مخاوف تنتابها من شبح أزمة مالية تبدو على أفقنا وقد لانجد منها ملجأ ، فإذا بها تحملق فى الفضاء ثم ترسل شهقة ثم تقول برقة : كذا ؟ ما أيسر هذا ! ثم تتوج عبارتها بضحكة يعقبها صمت فتنهد ترتفع به ترائبها وتنخفض ، ثم تميل باسمة على أمى وهى تقول بلطف استطاعت به أن تنسى زوجها حلواء البنين لعدة سنين : صدقينى إننى كدت أخوض فى هذا الموضوع من تلقاء نفسى لحرصى عليك لكنى ـ وأحمد الله ـ آثرت أن أدعك تفاتحينى فية ..

هناك أمور ممكنة ياصديقتى ولكننا لانعملها من تلقاء أنفسنا . لماذا ؟ لسنا ندرى ! فأنت مثلا تسكنين شقة فيها غرف تكفيكم واحدة منها فى فترة خاصة من السنة ، ثم كفت عن الحديث تاركة أمى تتناول الموضوع بنفسها حين قالت : أتقصدين أننى أؤجر غرفتين من المسكن خلال أشهر الصيف ؟! فأومأت برأسها أن نعم ، فأسرعت « أم مختار » تقص ما قد يقع من

متاعب إذا هي قارفت هذا الأمر ، فضلا عن أن طائفة خاصة من النساء قد استقللن وحدهن بهذه الخطة في ذلك العهد . فقالت « زينب » في هدوء لايشوبه وسواس : كثيرا مايتزل عندكم ضيوف في هذه الفترة فلماذا لاتوهمين الناس بأنهم ضيوف . حتى إذا كانت هناك عقبات من المالك أو أقاويل من الناس ، عالجتها في وقتها ، أم تراك ذهبت إلى طبيب الأمراض الباطنية مستشيرة في حموضة المعدة قبل أن تحسى حرارتها في المرىء ؟! وأرسلت ضحكتها الناعمة فابتسمت أمي وأشرق وجهها بنور الراحة على حين ترامت صديقتها إلى الوراء على الكنبة أكثر من قبل حتى كادت تستلقي على ظهرها وجعلت تحول إحدى ساقيها وهي راكبة على ساقها الأخرى وتتطلع نحوالسقف ، ولست أدرى أى نوع من الغرور كان يهدهد أفكارها . أهو الغرور بالأنوثة أم هو الغرور بالذكاء ؟!

ونشطت أمي في حركاتها وسكناتها !! أؤكد لك أن سكنات « أم مختار » كانت نشيطة ؛ لأنني كنت أرى أحلامها من خلالها ، كما نرى أشربة الفواكه الناضجة من خلال جلدتها الرقيقة . بدت كثيرة الأحلام تجرى أيامها إلى الوراء ، فهى في هذا اليوم أصغر عمرا من يومها السابق وعراها نوع من التفاؤل والثقة ، ولم تعد تحسب للغد حسابه المخيف الذى كان يسيطر على وجدانها حتى خلت أنا شخصيا أن السفينة التى مخرت بنا عبابا مظلما كثيفا قد بدأت تدنو من جزيرة خضراء لسنا نعرف اسمها ، لكن هذا الإحساس لم يكن يسعدنى ، لأنني ارتميت بين براثن شك لا أعرف فحواه جرعنى كثيرا من الضيق حتى آلت إلى حال شعرت فيها بمس البغضاء للست « زينب » . بل وبمس خفيف حيال أمي كذلك !! لماذا ؟ ! ذلك ما لم أتبينه إلا بعد فترة أخرى من الزمن .

وأخذت أمور الحياة تبين وتتضح شيئا فشيئا أكثر مما كنت أراها ، كما

تبين لعين المسافر أهرام الجيزة وهو على متن الطريق .

لكننى قررت فى هذه الآونة أن مصالحى أخذت تنفصل عن مصالح أمى ، وأن طريقنا الواحد قد آض ذا شعبتين ، وعما قريب سيدرج كل منا على إحداهما . أما نهاية الشوط فعلمها عند الله ، لكننى مستوحش منه خائف وجل تتفق خواطرى جميعا على أنى لن ألقاها بعد الفرقة وأنها لن تلقانى لأن مصالحنا سوف تتعارض !!

ثم جعلت أفحص زادى وسلاحى مادمت متيقنا أننى سأسافر وحدى وأن أمى لن تكون رفيقتى فى الطريق ، فألفيت الزاد قليلا والسلاح كليلا : جسم سليم وعقل مريض وعواطف مشتجرة تجمع أشتاتا غير واضحة كأنها كناسة السوق . وانحيت باللائمة على أمى التى خلتها ستتخلى عن مخلوق هذه حاله ، فكادت عيناى تدمعان لكننى استمهلتها حتى أراجع نفسى فأسألها : من منا جدير بأن يتلقى من صاحبه المعونة ؟ فأجابت بأن يدى يجب أن تكون هى العليا ، وبأننى ساعجز عن أن أفعل ومن أجل ذلك يجب أن تفترق بنا السبيل !! ولم تخل هذه الإجابة مما يثير رثائى لنفسى ، وحقى على أم لم تصبر على عجزى !!

كان الربيع فى إبانه واليوم جمعة والبحريفاير بين ألوانه ، كأنما يتأهب لاستقبال السابحات . وكنت ضائقا بنفسى وأمى وبيتى و« زينب » وأم «نعمات » وبالبحر كذلك والإسكندرية ، أعنى بالمحيط الذى نشأت فيه من أرضه إلى سمائه فلجأت إلى دراجتى التى عراها ماعرا كل مرافقنا من تغير وتبدل وتراجع فجعلت أقطع بها أرض الله يتعاون باطنها مع ظاهرها تعاون المقدمة والمؤخرة فى الجيش المنظم ، قصدت من هذا الذى أقول أن باطن الأرض فى كثير من الأحيان يكون أولى بنا من ظاهرها فلم يكن هناك داع إلى أن أعيش ، مادام التفاهم قد فقد بينى وبين هذه الكائنات .

كنت أرقب العجلة الأمامية وهى تدور فى سرعة جعلت أسلاكها متصلة كأنها استحالت إلى قرص من الزجاج ، وكنت متجها نحو الجنوب الشرقى مخترقا أرضا بورا تؤنس رقعتها الفسيحة شجيرات ونباتات ذات أشواك تحمل حياة الجدب حتى تسقيها اليد التى زرعتها ، أعنى يد الطبيعة فى فصل الشتاء . كنت أرقب هذه الشجيرات المتطفلة التى لم تستنبتها كف فأكاد أجد شبها بينها وبين نفسى ، بعد أن مات ذاك الذى استنبتنى منذ زمن فأحببت البرية ، وانبسطت أساريرى إلى وجهها الكالح ، فأخذت أدور بالدراجة فى طرقها المتربة الجيرية البيضاء فى دكنة التى أنشئوها من نفايات الخرائب . وقسموا بها الأرض إلى مساحات هندسية أعدوها للبناء . حتى إذا ما أعيانى ارتفاعها وانخفاضها ، وأحسست أن تعبا جسمانيا أوشك أن يسرى فى قواى ، جددت السير نحو الطريق العام بين « كفر الدوار» و« الإسكندرية » وكانت أشباح الأشجار إلى يسارى تجرى نحو الشمال بنفس السرعة التى أجرى بها أنا نحو الجنوب .

ثم رأيتنى أعرج على طريق جانبى ضيق ينحدر نحو الشرق تتوسده رءوس المزارع من الشمال وتوازيه من الجنوب ترعة ضيقة تستمد ماءها من ترعة المحمودية الواسعة التى تزدحم فى بعض مناطقها سفن الملاحة النهرية بسواريها الطويلة فتبدو كأنها غابة من السرو بلاأوراق ولاأغصان .

عرجت على هذا الطريق دون أن أتبين مقصدى ، وكانت « عزبة خورشيد » تبدو لناظرى على بعد قريب وهى تقف على الطريق العام جنوبى الترعة بدورها المتواضعة التى تتواءم ألوان جدرانها مع لون التربة تمام التواؤم ؛ لأنها بنيت من الطين ـ نظرت إليها فلم يعننى من أمرها أكثر من أننى تدبرت اسمها ثم سرت فى طريقى لاألوى على شىء .

كانت الشمس ناقهة من ضعف الشتاء متربعة فى دست الأفق تتمارج

بين يديها مواكب الضوء والنور . أما الحقول فقد أطلقت فيها الطبيعة مجامر بخور انعقد دخانها على هيئة ضباب خفيف جدا شفاف مسف ينسحب على خضرة البرسيم وأعواد الفول وأخاديد الترع وأقدام الشجر ، وتنطلق رائحته متمثلة فى عبق النوار وأنفاس الأزهار التى نمت بطبعها بين أعواد القمح أو استنبتها الزارعون فى حقول البسلة . وكان هناك نغم خفيف خافت تنشده الطبيعة للمكدودين من أبنائها والذين تخلى عنه الآباء أو قست عليهم الأمهات . ويتمثل هذا النشيد فى زقزقة عصفور أوغطيط طنبور أو أنين ساقية أوبكاء طائر أوغناء فلاح .

كان صدرها رحبا بسيطا فى ذلك اليوم فألقيت فيه بنفسى !! ولم أسر على الطريق شوطا بعيدا ؛ لأنى رأيت بقعة يحسن الوقوف عندها ، وكانت بين الحقول أشبه بالزهرة الوحيدة وسط مفرش من المخمل الأخضر .

أخذ الطريق يرتفع بالتدريج ويبدو مستويا جميلا ؛ لأن يدا ترعاه فى أوقات معلومة ، أما الترعة إلى اليمين فلم يكن سيفها مقفرا عاريا وإنما دعم بأنواع من النبات تساعد التربة على التماسك فلا تنهار فى الماء ، فاتسقت عليها زمرتلاحقت فتلاصقت من نوع الحلفاء خشن جاف يطول حتى تتحلى أطراف عيدانه بما يشبه أذناب الهررة أوالثعالب . زغب من الحرير اللامع الناعم أبيض نظيف لبدته يد الطبيعة فى نهاية الأعواد بترف يتنافى تماما مع خشونة الحلفاء !

وعندما تبدأ الحلفاء فى الانقطاع ويظهرسيف الترعة أجرد عاريا من كل شيء تقوم شجرة الصفصاف منكبة على الماء تاركة شعرها لتياره يعابثه فى رفق ناعم ، على حين تنشر هى ظلها على عدة أحجار رصت لتكون درجا ساذجا يؤدى بالنازل إلى الماء على اختلاف المناسيب فيستطيع أن يجلس القرفصاء ليتوضأ ثم يصعد ثانيا إلى رقعة مستوية صغيرة حنت عليها

الشجرة وأحيطت بالطين وفرشت بجفيف الحشيش ، وهناك . حيث البساطة والدعة والعزلة عن البذخ والمظاهر تتصل نفوس المصلين بمصدر كل وجود .

أما البقعة التى كانت أشبه شىء بالزهرة الوحيدة وسط مفرش من المخمل الأخضر فقد كانت إلى يسار السائر ، كانت أغراسها القائمة على رأسها الذى يتوسد الطريق توحى بأشياء عدة :

توحى بأن زارعها يتعهدها منذ سنوات بجهد نافع متصل الحلقات لأنه نثر عند مدخل الحقل عدة شجيرات من السنط والتوت وشجرة من الجميز، وتدل أعمارها جميعا على أن يدا صناعا عملت فى هذه البقعة منذ عشر سنوات .

وتوحى بأن الزارع مقيم فيها لايبرحها ، فهناك كلب ينبح وديك بلدى كبير يقف على سطح الكوخ ناصبا ساقيه الطويلتين متلفتا فى نواحى الأفق يتفقد نجوم الفجر التى رآها قبيل النور . وتبدو قمة هذا الكوخ المبنى من اللبن خلال شريط من أشجار الموز تزاحمها فى بعض النواحى نخلات نهضت قريبا على ساقها فأخذت سعفاتها تقبل التربة . ولعل الزارع قد قصد من هذه الغراس أن يجعل منها سورا منتجا يحمى ما بداخل المزرعة .

وقفت عند المصلى أرقب الحقل من حده الشرقى وأتأمل جزءا منه نهضت فيه شجيرات البسلة متشبثة بأعواد من الغاب أوحطب القطن باسمة عن أزهار ذات أجنحة كأنها فراشات ، وأتأمل جزءا آخر منه قد نهضت فيه لفائف الكرنب واقفة على رءوسها الطويلة كما يقف سرب من النعام وأتأمل أطراف الحقل وقد نثرت مختلف الأحجام كل على رجل واحدة ..

وأتأمل أطراف الحقل وقد نثرت عن حواشيها شجرات لاتزال تلمع على إحداها ثمار البرتقال حمراء زاهية مستديرة لامعة كأنها بين خضرة الأغصان شعلة بلا دخان .

كانت شجرة الصفصاف من ورائى تنوس شعورها مع نسيم الربيع والمصلى على قيد خطوة منى والحقل مستأثر بعينى فأحسست فجأة أنى نسيت الهموم أو أن الهموم قد ضلت عنى فلم تنجح فى مطاردتى . وأحسست فوق ذلك دعة وطمأنينة مفعمتين باللذة من نوع تلك التى نحسها بعد زوال المخاوف . ثم تأملت موقفى فوجدتنى على الرغم من شبابى طفلا يبغى الهدهدة فذكرت عبارة رأيتها ذات مرة كتبت تحت لوحة رسام : « الطبيعة أمنا الرءوم » فكدت أمرغ وجهى على صدرها ثم أجهش إليها بالبكاء !!

لست أدرى كم مر على فى وقفتى هذه . حقيقة أن فقدان الشعور بالزمن شىء لذيذ جعلنى ألتمس العذر في هذا الضحى لأولئك الذين يتوسلون إليه بالعقاقير التى تؤدى بهم إلى غياب شامل . غاب عنى الإحساس بالزمن فلما عاودنى تمنيت أن لم يكن عاد ولو أن « المنبه » كان جد لطيف .

كانت تتهادى فى طريقها نحوى وعلى رأسها جرة فارغة تمسكها من إحدى أذنيها بيد وتحرك الأخرى مع مشيتها فتموج فى هيئة يتألف منها التأود . وكان جلبابها الأسود مرفوعا إلى ما فوق أردافها وقد حولت ذيله الواسع إلى حزام شدته على وسطها فبان من تحته جلباب آخر ضاف طويل يسمون نوعه « بالشيت » . وإذا شدت فتيات الريف أحزمتهن بأذيال الجلابيب فمدلول هذا أنهن فى « عمل » . ولم يكن فى قدمها نعل ولكن خيل إلى أن الثرى يقبل نظافتها . وجعلت تدنو شيئا فشيئا وأنا فى مكانى جامد جمود التمثال حتى إذا مرت من أمامى قاصدة إلي الدرج الحجرى لتملأ الجرة ألقيت عليها نظرة شاملة فاحصة واعية لم ألق مثلها قط على كتاب من كتب المدرسة فعرفت الجمال فى الطبيعة والفتنة فى الفطرة ، ورأيت اتساقا

عاما بين أجزاء الكون لايشوبه خلل ولاثلمة حين عاينت وجهها البكر الذى لايعرف المرآة إلا فى الغدير الراكد ولاالعطر إلا فيما يرشه الطل ، ولا الطلاء إلا على الجدران !!

ولمعت بشرتها فى عينى بنفس الوميض المتوهج الصافى الذى أشرقت به ثمار البرتقال تحت أشعة الشمس .

كان الوجه مستديرا يقرب أن يكون قد رسم بالفرجار ، عليه جبين غير واسع يستسلم فوقه شعر أسود جعد متلبد غزير مستدير مع استدارة الجبهة ، ويشرق فى وسطه تماما فرق واضح تبدو منه جلدة الرأس فى نصاعة اللبن ، بحيث لوتخيلنا هذا الفرق خيطا يمتد لتدلى على قصبة أنفها المستقيم . أما العينان فصادقتان صافيتان تموجان بالصدق والصراحة . وأما الفم فقد تميزت فيه شفته السفلى بشىء من الغلظ كان ينبغى أن يقسم بين الشفتين بالتساوى ، لكنها مفعمة بالإغراء كأنها كانت بين ملامح وجهها الهادىء «نقطة المناوشة والإثارة » واللون فخارى ألف الأشعة وعرض للحر والبرد فلبس نضرة ثابتة كأنها صبغ لا ينصل . تفتح من الربيع فظهرت على الخدين تحت العينين مباشرة حمرة الوردة أوتوهج الشفق . والقوام إلى الطول ، والصوت هادىء خالص لايقلق الأسماع .

ودلفت إلى الدرج الحجرى بعد أن ألقت إلى نظرة عابرة عنيفة أفصحت بعض الشىء عن عجبها لموقفى فى هذه البقعة ، حتى لكأنها رأتنى كائنا لا ينسجم مع كائنات الريف ، ثم حملت جرتها وهى جالسة وقامت معتمدة بكفيها على الركبتين ، وكأنها قذفت هذه الحركة بنصف دمها إلى وجهها فرأيتها وكأن الدم سينبثق منه . ثم جعلت أتأمل ظهرها وهى مدبرة وأرقب تأود جسمها تحت ثقل الجرة ولون منديلها الأخضر فى زرقة تشف عنه «طرحة » من « التلة » أمسكت يدها بأحد طرفيها وجعلت تغدو به وتروح

فى حركة المشى . ثم غابت عن ناظرى فلم أعد ألمح منها إلا شبحا يتخايل فى التفاريج بين أوراق الموز المتعانقة عند مدخل الحقل .

وانقضت دقائق كان ينبغى بعدها للسائر العادى أ مضى إلى لباناته لكننى لم أشأ أن أمضى بل وقفت محملقا نحو المزرعة متوهما أنها ترانى من خلال الشجر أو نافذة الكوخ أو نبات الفول وإن كنت لاأراها . ثم جعلت أسائل نفسى : إن صح ذلك فما الذى أبتغيه ؟؟ فلما لم تجب بشيء اقتنعت بأنه هناك مسائل تنشد لذاتها لالغاياتها . .

لكننى لم ألبث أن تصورت عينى أمى وهما تنوشانى فى موقفى كما تفعل أطراف الرماح ، ثم تخيلت ابتسامة التهكم تولد على شفتيها بل كدت أسمع صوتها يأتى قائلا : « فالح ، ناصح . ألاتريد أن تنجح فى أى شيء ؟! » فخارت قواى من وطأة الخجل ، لكن موجة من العناد سرت فى أعصابى فأفقت وألقيت ببصرى نحو الغرب أنظر من جديد فإذا بالحادث يتكرر وإذا بها تتهادى واضعة يمينها على أذن الجرة فوق رأسها .

كان شبحها يتخايل مرة أخرى من خلال التفاريج قبل أن تعبر إلى الطريق ساعة هبطت على فكرة شرعت فى تنفيذها على الفور .. دلفت نحو المصلى فخلعت حذائى وجوربى ثم ألقيت على فرشها بسترتى وطربوشى وجعلت أشمر كمى قميصى فى تلكؤ وبطء ، كل هذا وأنا أخالس النظر نحو الطريق متظاهرا بأنى لا أشعر بقدمها . ثم دلفت إلى الدرج لأتوضأ فى اللحظة التى كانت هى فيها عند نهاية الطريق على قيد خطوات منى فشغلت المرقق قبل أن تشغله ، فلم تر بدا من الانتظار . شعرت بأنها تتأملنى حتى كدت أحس وقع نظرتهاعلى كل عضو من أعضائى وإن أوليتها ظهرى ! وخيل إلى أنها تبتسم وأنا أتمتم بالأدعية التى يتمتم بها المتوضئون ، وأظهرت تحرجا ووسوسة وأنا أزاول هذه العملية كانا سببا فى أننى سمعت

ضحكة مكتومة فأحسست زهو الناجحين لأول مرة فى حياتى خصوصا فى مسائل العاطفة التى لم أجترىء على تجربتها فى المدينة مع أية فتاة ؛ لأن أمى اعتبرتنى فتاة . فأسعدنى أننى قمت بالتجربة فى مكان بعيد .

هذه هى الأفكار التى كانت تجوس خلال رأسى وأنا جالس على الدرج أرى صورتى فى صفحة الماء . وكانت بطبيعة الحال أفكارا لاتتناسب مع العمل الذى أؤديه . لكننى كنت فى مرحلة من العمر تتميز بشدة الحرارة فلا تسمح لبذور التخنث أن تنمو أو تعيش . ثم نهضت فاستقبلتها بوجهى الذى كان هو « الصواب الوحيد » فى كل مرافق حياتى . وقلت لها : معذرة فما كنت أقصد إلى تعطيلك . فعمدت إلى أن تنفى عنى القلق بابتسامة يقطر الرضا من نواحيها . ثم شمرت أذيال ثوبها الطويل عن مخلخل أبيض فاتن قبل أن تهبط إلى الماء لتكسر بالجرة صفحة وجهه الساكن .

ـ ٣ ـ

لم تعد أمى تأبه بى كثيرا فى هذا الربيع . وآية ذلك أنها كفت عن أن تعيرنى بالخيبة . كأنما انفصلت عواطفها عن مساءاتى ومسراتى جميعا . فأصبحت شخصا غريبا عنها .

على أن عواطف الناس لا تنفصل عن الناس فى مساءاتهم ولو كانوا غرباء عنهم . فإنى لا أفرح كثيرا ولاقليلا لشخص رماه الحظ بعدة آلاف من الجنيهات من إحدى منظمات « اليانصيب » . ولكنى آلم جدا وقد أبكى حين أقرأ فى نفس الصحيفة حادثة رجل أفضت به الغيرة إلى أن يلوث يديه بدماء امرأة طالما مزج الحب بين أنفاسهما !! لذلك فاضت كأس آلامى حين

كفت أمي عن نبزي بألقاب الخيبة حتى هممت في إحدى الإمسيات أن أسألها قائلا لها : أمي !! لماذا لاتشتميننى !؟

وكنت قبل ذلك أنظر في الكتاب وأنا ذاهل من لاشىء شارد في غير شيء ، فجد لى فى هذه الفترة ما قد أصبح موضوعا لشرودى وسببا للهولى ، بعد أن عرضت في طريقي هذه الريفية الحسناء . وأخذت الأشهر تتوارى بتوارى ورقات « النتيجة » المعلقة على الحائط في الحجرة المشتركة بينى وبين أمي ، وامتلأ الليل بالنذر التى تنادى بقرب الامتحانات : من سهر طويل في غرفة على الأقل في كل شقة ، ومن أزيز مواقد الجاز في أوقات غير مألوفة كل ليلة ، ومن شحوب وذبول وإهمال ذقون يشيع بين الطلبة قرب نهاية العام ـ يحدث كل هذا وأنا أنا لاأتغير ، لأننى لم أعد أرهب الرسوب ، بل لأننى أحسست أن نجاحى في الدور الأول أو انتقالى بعد عام واحد في الفرقة ـ شيء غيرطبيعى بالنسبة إلى ، كما أنه من غير الطبيعى أن أبلغ مبلغ الرجال وأنا في سن الثامنة . ومغزى هذا كله أننى تبدلت وفقدت الإحساس بالمسئولية المدرسية فقدانا يكاد يكون على تمامه ، خصوصا بعد أن انفصلت عنى عواطف المرأة التى كانت سندى في الحياة .

ما أتعسهن ثلاثا : مالي صرت أمقتهن !؟

أم نعمات ..

جرت الشيخوخة في بدانتها فاتسع جلدها عليها ، وبدت كل عضلة فيها تهتز إذا مشت ؛ كمايهتز النشا المطبوخ تحت مس الملعقة . وسلبتها أمي كل ما كانت توليها من اهتمام وعناية ، ولكنها على الرغم من هذا كله متشبثة بجثة الصداقة !!

وزينب ..

كل يوم في زينة ولها دور جديد !!

لو شغلت الطبيعة بزينتها كشغلها هى لألهت ساكنى الأرض عن أن يعملوا عملا، ولعاشوا يتأملون مفاتنها حتى قضى عليهم الجوع ! إننى متضايق!!..
وأم مختار ..

تقف أمام مرآتها فى تأمل طويل كأنها ترقب عودة أبى من الخارج وقد تنسى أننى أراها فتتأود فى تكسر تأود العذراء مست جسدها الأنوثة . وأنت عليم بأن هذه الحمى ، إنما سرت إليها من صديقتها الجديدة ، وبأنها لاتزال مسوقة بعصاها إلى غاية لست أدريها ، وإن كنت أخشاها !!

كل ذلك جعلنى ضائقا حرجا أتطلب الفرجة فى مكان فسيح ، فلم أصبر على الأسبوع الطويل حتى يأتى يوم الجمعة ، فتسلقت سور المدرسة من الخلف بعد الحصة الثانية فى أحد الأيام ، ووثبت إلى الشارع حيث استرددت دراجتى من دكان أحد الباعة الذين كنا نشترى منهم قطع « الساندويتش » . ثم أخذت سمتى إلى عزبة « خورشيد » . وقلبى يدق دقا عنيفا ، يجف مع ريقى كلما فكرت فيما أنا مقدم عليه ، ولكن ذلك كله لم يثننى عن الإقدام .

ووقفت عند المصلى قبيل الظهر بعد لقائنا الأول بيومين اثنين ، وكانت شمس الربيع تنفح وجهى بدفء لذيذ يوائم الدفء الذى بدأت أنفاسه تلامس قلبى . وكنت أنظر إلى الدخان وهو يتصاعد من كانون أمام الكوخ أتلهى بمنظره حين يخفق به الهواء فى كل صوب فيلف أوراق الموز وفروع الشجر برهة ينحسر بعدها متخبطا متعثرا ، وهو يتلمس طريقه إلى السماء كأنه ذيل شيطان . وكنت أتخيل جلستها أمام الكانون وهى تشعل النار ، وأسأل نفسى عن أسرتها ومن تكون ، وأتمنى من صميم فؤادى أن لو عرضت لها حاجة تدفعها نحوالطريق ، ثم جعلت أشتت الوقت بنقلة طرفى فى حواشى الأفق المونق الصافى ، لكن الوقت لم يتشتت ، فبدا لى أن أذهب إلى

الكوخ فأقف قريبا منه ثم أتادى من هناك حتى إذا مابدت لفقت لها سببا ، ولعل لها قلبا رقيقا يدلها على حقيقة الحاجة . أطلب طاقة من أزهار البسلة أو شيئا من ثمار الفول أو الفواكة !! ولكن القدر أعفانى من هذا العناء ، فقد بدت فى طريقها تحمل الجرة .

« هل جربت ياصديقى تلك الأشواط الأولى من علاقات الهوى ووشائج الحب ؟ ورأيت خفق الروح على مقربة من الروح وقد قامت بينهما المخاوف أو التقاليد ؟ ثم رأيت كيف تعبر إحداهما إلى الأخرى ولو أتلفتها الحواجز وقست عليها المقادير ؟! »

هكذا كنا ، فأقبلت على كأنما أحسست أننى جئت من أجلها فقطعت بضعة كيلومترات على دراجتى المنهوكة . وكانت الحرارة الباكرة التى غمرت طقس هذا اليوم عاملا مساعدا فى تضريم وجهينا أولعلها كانت أمام النار، قلت لها بعينى لما سامتتنى : لاتخافى . إننى طيب السريرة !! فألقت بالتحية ثم سألت فى إطراق وخجل جميل :

ــ ألست هو ؟!

قلت :

ــ نعم . هو بعينه الذى رآك يوم الجمعة.

قالت :

ــ إذن لم أخطىء .

ثم استردت نظرتها فى رفق أحسست معه أنها لم تكن نظرة وإنما كانت شيئا ناعما أدركته بحاسة اللمس . وندت منها فى هذه الوهلة تنهيدة حاولت أن تخفيها لكن نحرها دل عليها دلالة حلوة .ثم خيم علينا صمت كان يشى باتفاق بالغ فرأيت أنه من الضرورى أن أقول شيئا ، فأطريت جمال البقعة وخصصت مزرعة أبيها بقدر من الإطراء. قلت : إنها جنة ، وإن الذى

يقيم فيها يوما أو بعض يوم لابد أنه ناس همومه . فصعدت نظرها نحوى وكانت جالسة على أسفل الدرج هامة بأن تلقى جرتها فى الماء فقرأت فيه عجبا . كأن عقلها لم يكد يصدق أن يكون لابس هذه الحلة وصاحب هذا الوجه الجميل والشعر الطويل شابا قد ألقى به فى مدرجة الهموم . فعدت أسألها عن الأيدى التى تعمل فى حقلهم فعرفت منها أن أسرتها مكونة من أبيها وأمها ومنها ومن أخ صغير يقضى شطر النهار فى المدرسة ويقضى شطره الثانى فى الحقل . وقضت الكلمات العادية على التحرج الذى كان يمسك بتلابيبها فأمنت جانبى أو أخرجتنى على الأقل من نطاق الريبة ، فابتسمت وهى تحول خرقة فى يدها إلى قرص تضعه فوق رأسها لتستقر عليه الجرة . ثم قالت :

ـ ومن أين أنت ؟

قلت :

ـ من الإسكندرية .

ففتحت عينيها دهشا ، وأباحت شفتها السفلى لثناياها أن تبين ثم قالت :

ـ وهل تحب الريف ؟

قلت : لنجعل الدليل عمليا .

فسألتنى فى سذاجة فطرية لايحسها إلامن عانى حياة التكلف والتعقيد :

ـ هل معنى هذا أنك ستجىء كثيرا ؟

فبلغ بى الأمر حد أننى لم أجد ريقى فلم أستطع إلا الإيماء بالإيجاب . فانتصبت على الأحجار حتى بدت مفاتن جسدها من ثنايا ثوبها الواسع ورأيت ثغرها وقد أشرق بابتسامة تعدته إلى ملامح وجهها كله ، فقلت :

ـ وبعد ، فهل لى أن أعرف اسمك ؟

فهزت رأسها كأنها تسألنى عما أعنى ، فأردفت موضحا :

ـ أقصد أن أقول : بماذا ينادونك ، هل يقولون لك : ياجميلة مثلا ؟!

وأعجبت بنفسها فتهافتت ضاحكة ، وقد كنت أنا أشد إعجابا بنفسى منها لأنى جاوزت قدرا كنت أظننى سأتحطم دون إدراكه ، ثم جاءنى صوتها الهادىء بعد برهة يقول :

ـ لى اسمان ، فعن أيهما تسأل ؟

قلت بعينين متكسرتين وصوت تشوبه رجفة :

ـ لك اسمان ؟.. هذا جميل !! إذن فأنا أسأل عن الذى توافقين على أن أحب صاحبته !!

وساد صمت كالذى يعقب انطلاقة الرصاصة ، وبدا لون الشفق على وجهها كله بعد أن كان من قبل منطقة الخدين . وكانت الخرقة التى تريد أن تحيلها قرصا لاتزال بين يديها تنشرها وتطويها ، ونمت هذه الحركة عن داخلها فأيقنت أنها فى طى ونشر . كان الاستسلام باديا على الأجفان الملقاة فى تطرح وتعب على حين كان الفم المزموم ينادى بالمقاومة والإصرار ، لم تحمل الجرة ولم تجب ولم ترفع طرفا ولم تمدد يدا بل جمدت فى موقفها فبدت كالأحجار من تحتها كأنها قاعدة من الصخر قام عليها تمثال بديع . وسارعت أنا إلى أن أمحو عن نفسها آثارا جرها كلامى ، فقلت :

ـ هل يغضب الناس أن يسألوا عن أسمائهم ؟ هاك يا سيدتى اسمى وعنوانى .

فابتسمت ، فتابعت :

ـ هيا تشجعى وأجيبى .

قالت :

ـ حقيقة أن لى اسمين ، ينادوننى بـ « سكرة » على حين أن اسمى الحقيقى هو « سكينة » .

فعدت إلى اللجاج الجميل قائلا لها :

ـ لكن .. هذا حسن .. حظينا بنصف الإجابة ، ويقى نصفها الثانى .

فلم تشأ أن تقول شيئا بل تلفتت في ذعر كأنها انتبهت للزمن أو خافت عين رقيب ، وهمت بأن تحمل الجرة لتعود أدراجها إلى الكوخ ، لكننى حاورتها حتى عرفت أن أباها يدعى « عم خليل » وأن لها أختا أكبرمنها تزوجت منذ سنين فى مركز الدلنجات . وأن أباها كان يدعوها « بالعدوية » وأن اسم أخيها الوحيد هو « أبو اليزيد » وأنهم يدللونه فينادونه « بالبسطامى » كما تدللها أمها وتناديها « بسكرة » ثم انصرفت عنى بعد ذلك وهى تقول :

ـ إن بقاء ساعة واحدة فى المصلى كفيل بأن يحقق لقاء بينك وبين عمك « خليل » الذى سيصلى العصر بعد عودته من السوق .

وما هى إلا لحظات حتى رأيتنى وحدى جالسا أطالع الأفق فأرى القرى القريبة وقد انعقد حولها دخان أكثر من المألوف لأن اليوم يوم سوق ، ولأن بيوتا كثيرة فى تلك القرى توقد النار لمدة طويلة تحت لحوم البقر والجمال التى تكون عادة أكبر سنا مما يساق إلى المدينة . يبعثون إلينا بأطيب الخيرات ويستبقون لأنفسهم النفاية !!

ثم جعلت أدير حديثا بينى وبين نفسى مرة أخرى لأكون صورة عن « عم خليل » . تصورته ريفيا طويل القامة كبير الرأس تشع من عينيه قسوة مريبة ، لكننى تراجعت عن أفكارى حين ذكرت أسماء أبنائه ، ووثبت إلى مخيلتى فى الحال صورة مدرس العربى « ناصف أفندى » المتصوف الشطاح الفاتر العينين فى حول يبدو من وراء زجاج منظاره وحضرتنى

معلومات كان يلقيها كلما ركب استطراده المحبب فى حصة الإنشاء الشفوى، وكثيرا ماتعرض « لرابعة » و « البسطامى » فى حماسة تفقده نصف وعيه، وتكسو سحنته هيئة تراه معها درويشا فى ثياب نظيفة .

تذكرت هذا فاعتقدت أنه عدة قد أحتاج إليها إذا مالقيت « عم خليل » . ثم فتحت كتاب « الجغرافيا » فتذكرت أمى ، وتذكرت « المميزات الطبيعية لحوض البحر الأبيض المتوسط » يوم ضبطتنى متلبسا بقراءتها وأنا شارد ذاهل ساعة كانت خارجة من الحمام . فعجبت للحوادث التى تلقى بالعشرات فتذكرنى « بأم مختار » فى كل خطوة أنشد من ورائها اللذة . لكن صورتها مالبثت أن غابت وحلت محلها صورة « ناصف أفندى » ثم امحت هذه أيضا حين رأيت « عم خليل » أمامى بلحمه ودمه وهو يلقى على السلام .

كان ربعة متوسط القامة تبدو على وجهه آثار الزمن وتخريب السنين . وكان أبلغ ما يوحى بذلك أسنانه التى تثلمت فيما يقابل فتحة الفم . وغابت بعض الأضراس كذلك فجم فى خديه أخدودان متوسطا العمق . وجهه على العموم قريب من الاستدارة تكمن فى ملامحه العتيقة غير المنعمة ملامح ابنته « سكرة » كونا مندثرا غير واضح لا يدركه إلا من تملى ملامحها بإدمان . أما العينان فلا تزالان سليمتين على الرغم من أنهما نظرتا إلى الدنيا خمسة وخمسين عاما تفيضان بنظرة تدل على سلامة الطوية ، وشعر الذقن مهمل سطا عليه شيب كأنه سال من الشارب لأن شارب « عم خليل » أبيض كله فيما عدا شعرات بقيت سليمة تدل على اللون كأنها أعواد حطب تخلفت عن الحريق . وإذا ماتأملت وجهه استوقف نظرك اصفرار فى شاربه تحت فتحتى أنفه على شعره الأبيض نشأ من إدمانه التدخين . وكان يلبس جلبابا من القطن واسع الفتحة حول العنق ينطبق طوقه تماما على طوق صداره

لمخطط وتطل من أعلى مباشرة ثلة من شعر صدره تشف شفافية واضحة عن وشم يمثل نخل بدت سعفاتها من خلال الشعر في أعلى الصدار وغاب باقيها تحت الملابس .

وحياني وسلم وهز ذراعي في تودد كأني صديق قديم ، ثم حملق في وجهي وسألني من أكون ، فلما عرف أنني طالب من الإسكندرية أقصد إلى موطنه الجميل هذا طلبا لمتعة النفس واستذكار الدروس ازدهاه ما قلت كأنه أيقن أنه شيء مطلوب ، وجرنا الحديث عن المدارس فذكر ابنه وتمنى أن يعيش حتى يراه مثلي ، فضحكت في ضميري . ثم دفعه الفضول الذي يكثر في نفوس السذج كما يكثر في نفوس الأطفال الذين يتطلبون المعرفة بالغريزة ـ دفعه إلى أن يسأل عن الكتاب الذي كان بين يدي .

قلت :

ـ إنه في علم الجغرافيا أيها العم .

فسألني عن معناها مرة أخرى فألفيتني أقول :

ـ به نعرف أحوال الدنيا وأسرار الأرض كما تعرف مناطق حقلك .

فأنتجت هذه الكلمات ثمرات لم تكن مرتقبة إذ طغت عليه موجة من تصوف جميل في ذاته لولا أنه يستغل في بعض الأحيان حتى يصير حظيرة للمتخلفين وملجأ للفاشلين . قال « عم خليل » وهو يهز رأسه حركة بندولية ويدق كفا بكف في رفق وشرود :

ـ أسرار الأرض ! الأرض لله يا بني خالصة له وحده فلنشغل بأنفسنا قبل كل شيء ، لأن أنفسنا أولى بالمعرفة!

ولم يكن الرجل في حالة تسمح لي أن أجادله ، ولم تكن الكلمات من أفكاره وإنما هي شيء تلقاه في مدرسة المتصوفين ، ولم يكن يعنيني أن أزحزحه عن مكانه لأنني عاينت مجال أعماله فلم أجد فيها إهمالا على ضيق

المجال . وبعد ذلك كله فإنه لم يمهلنى بل استطرد إلى زهد العدوية التى رفضت الأزواج وأكياس الذهب لأنها رأت الدنيا ممرا إلى مقر . ثم إننى لم أكن معنيا إلا بكسب وده ووصل حبله فقطعت عليه حديثه بأحاديث كنا سمعناها من « ناصف أفندى » فى حصة الإنشاء . ولعل « عم خليل » قد رأى فيها جدة وطرافة ثم لعله أحب نفسه حين رأى أفكاره تجول فى رءوس شباب مثقف فى مثل سنى يقيم فى المدينة وراء النوافذ الزجاجية والستائر الزاهية !! فغرق فى سعادة حببت إليه كل شىء عشية ذلك اليوم ، ودخلت أنا فى نطاق الكائنات التى أحبها . وثار فيه كرم الريف وطاف به حسن الضيافة فأصر على أن أصاحبه إلى الكوخ حيث نشرب الشاى معا وحيث يرينى « البسطامى » الصغير فإنه لا شك عائد من المدرسة ، وأحسست أن الحوادث كلها فى صفى وأن الأقدار تحابينى . وكنا نخطو على الطريق المستوى الذى نظمته فأسه وهو يحدثنى عن أصناف الشاى قائلا فى فخار :

ــ عندى منه والله قدر كبير وأصناف لا بد أن يعجبك منها صنف .. لاتقل إننا فقراء فالنفوس غنية : شاى ناعم ، وآخر ورق ، وثالث متوسط . نستطيع أن نذبح لك خروفا وإن شئت فزوجا من الدجاج السمين . أو دعنا على الأقل نشعل التنور فنعمل فطيرا . ألست ترى أن خيرات الله غزيرة جدا وأن الرزق أكثر من الخلق !!

ثم دلفنا إلى الممر عند مدخل الحقل حيث تتعانق أوراق الموز على جانبيه وحيث يجرى بين أيدينا كلب كأنه يريد أن يعلن قدوم غريب . لم أكن أفكر فيما أسمع ولافيما أرى ، وإنما كنت أفكر فى المفاجأة التى أعدتها الأقدار « لسكينة » .

جعل بصرى يفتش عنها فرأيتها جالسة القرفصاء أمام الفرن حيث يسطع من فتحته بخار امتزج بالدخان فشاعت فى الجو روائح لاتحس إلا فى

الريف ، تتميز فيها برائحة الرز المطهو باللبن أو رائحة أوانى الحلب الفخارية حين تعرض للنار بعد فراغها من اللبن . وتمتزج هذه الأنفاس بأنفاس الحقل حيث نوار الفول أو زهرات البرسيم أو رائحة الندى والعشب .

قامت واقفة حين رأتنى أعبر المجاز وقد كانت فى الحقيقة أجمل ماتقوم في هذه البقعة من أشياء . وبدا فى عينيها عجب وسرور والتقت شفتها العليا بأختها المثيرة على هيئة تنبىء بأنها تغالب ضحكا ثم مسحت وجهها بطرف « طرحتها » بحكم العادة . كأنها تجفف عرقا أوتزيل غبارا فتلهب وجهها بزينة مونقة ذكرتنى بتلك الزينة الصناعية التى كانت تلجأ إليها أمى حين يلح على وجهها السقم . لكننى تجاهلتها عامدا ونحن نتحرف إلى اليمين حيث تقع الحجرة الأساسية جنوب الحقل يفتح بابها نحو الشمال فيرى المزرعة ، وليقع منه الناظر أول مايقع على شجرة واحدة من المشمش مستها عصا الربيع فتألقت مسحورة يغطى أغصانها الحمر العارية من كل خضرة زهر أبيض لايهتز مع النسيم ، كأنه نوع من الفراش يطلق عليه فى الريف اسم « ابو دقيقة » أما الجهة اليسرى التى انحرفنا عنها فقد كان فيها الفرن وحظيرة فيها بعض ماشية وطير .

ودخلنا الكوخ الذى سأسميه حجرة على سبيل التجوز ، فرأيت فيه الفاقة النظيفة والفقر المرتب : حصيرمبسوط يبدو عليه أنه غسل قريبا ، لاكراسى ولا ارائك إلامسندان غليظان اتكئا إلى الحائط كأنهما مهيآن لزائر مرتقب . وعلى مقربة من الركن الأيمن وفى مواجهة الداخل صندوق نصل لونه وغاب زخرفه تحت تراب الليالى يومىء إليك بأنه شهد الليلة الأولى لعروسين لهما اليوم أحفاد ، أما الزاوية التى يكونها الركن فقد شد فى تجاهها حبل أكمل أضلاع المثلث يسمونه الحمالة ، رمت فوقه الأسرة بملابسها التى تكون عادة تحت الاستعمال قريبة من اليد . وغير هذا وذاك آنية نحاس ووابور

جاز وسقط فيه خبز وعدة أحقاق لست أدرى مافيها . وانقضت فترة الترحيب ثم شربنا بعدها الشاى ، ورأيت فى هذه الأثناء ربة البيت ، وكانت فى مثل سن « عم خليل » تبدو عليها طاعة هى من مقومات الزوجات فى القرية ، لكنها لم تكن ذات ملاحة ولاذات شخصية ، فأحسست أنها قطعة من الأثاث لكنها متحركة .

ثم دخل أبو اليزيد عائدا من المدرسة التى يقطع إليها كل يوم بضعة كيلومترات . غلام فى السابعة . واحد بين بنتين ، تبسمت له جوارح أبيه حين أهل من الباب . وهتف أبوه بقلبه قائلا قبل فمه حين أهل :

ـ أهلا « بالبسطامى » الصغير .. سلم على الضيف .

فانحنى محاولاتقبيل يدى ثم عرج على أبيه فأعطاه يمناه ، ثم انتقل إلى الداخل فخلع عن كتفه حمائل كيس من القماش جعله حقيبة حشر فيها مصحف وعدة كراسات . ثم شد الكيس إلى مسمار دق فى الحائط وجلس إلى يمينى تفيض عيناه بالأنس والبراءة وتشف بشرة وجهه عن نفس الدم الذى أحببته فى « سكينة » . ربت الغلام وأحسست كأنه قريبى ثم طفقت أسأله فى بعض معلومات يتلقاها من هم فى مثل سنه فكان يجيبنى بلهجة تقطر شهدا . ثم اقترح على أن يقرأ لنا شيئا من محفوظاته فلما فعل أحس الأب بنشوة كاد ينسى بها وقار الريف ، وسألنى فى عجب وثقة :

ـ هيه يا سيدنا الأفندى .. أيعجبك « البسطامى » الصغير ؟ قلت له:

ـ بلا مراء أبقاه الله !!

فحاورنى قائلا :

ـ لكنه ابن رجل لايخاف الله .

فجمدت ملامحى فى بلادة لأننى أخذت بمايقول لكننى لم ألبث أن أفقت على ضحكة من صميم قلبه اضطر معها أن يسند رأسه فى الحائط ،

قال « عم خليل » بعد أن فرغ منها :

ـ ألا يعجبك أنني لاأخاف الله ؟!

قلت :

ـ وهل يعجبك أنت ذلك ؟

فأومأ بالإيجاب لأن الضحك عاد إلى مغالبته . فاحمر وجهى وأحسست خجلا أيقنت منه أننى تلميذ بليد حتى ولو كان مدرسى أميا ، ولعل الضيف أدرك مايجول فى نفسى فسارع إلى أن يفسر الشطحة :

ـ هكذا قال « البسطامى » الكبير أيها الضيف العزيز ، أحب الله غاية الحب فلم يخالجه خوف منه . هكذا قالوا !!

فجعلت أتدبر الأمرحتى تبين لى أن الحب والخوف لايسكنان مكانا واحدا فى قلب إنسان . فهتفت :

ـ صدقت ياعم « خليل »حقيقة أننا لانخاف من نحب !!

وتلمست عبارتى هذه طريقها نحو الباب حيث كان شبح « سكينة » ماثلا عند العتبة وفى يمينها زمرة من أغصان المشمش تضامت أصولها وتفرقت نهاياتها منتثرة . وكانت بسمتها الحلوة البيضاء مضاهية لنصاعة الزهر . وقدمتها إلى أبيها ليقدمها إلى على حين ترقرق صوتها الوادع قائلا لنا :

ـ إنهم هناك يشترون الأزهار !!

أصبحت حياتى منذ ذلك الأصيل ذات ثلاث شعب أوكالحبل المفتول من ثلاث طاقات : طاقة من الحرير خضراء ناعمة تمثل علاقتى بهذه الأسرة ، وطاقة من الكتان فيها قوة وخشونة وتلك هى التى تربطنى بأمى ، وطاقة من الليف سمجة مقورة ذات نشوز وشذوذ وتلك هى التى تربطنى بالدراسة . وكثرت أحلامى كما كثرت أحلام « أم مختار» !!

كنا غارقين فى الأفكار ، فلم ينتبه أحدنا إلى وجود الثانى ، اللهم إلا فى سويعات محدودة ، كانت تعلق أمى على مظهرى فيها كأن تستفسر عن سبب لفحة الشمس لوجهى أو عن تلوث حذائى بالطين الكثير ، أو عن تغيبى ساعات طويلة خارج المنزل ، وماكنت أعدم أن أجد لها علة كلما سألتنى .

وأصبح للشقة مفتاحان أحدهما فى جيبى والثانى فى جيب امى ادعيت أنا أننى أذاكر مع أحد إخوانى وأن ظروف عودتى لم تعد منتظمة بحيث وقع لنا أن اختلفت أوقات خروجنا واقامتنا فى المنزل . أنا أذاكر عند صديق وهى تزورصديقات !! وطبعا بصاحبة المرشدة « الست زينب » أما « أم نعمات» فقلما كنا نراها ، بل وقلما كانت تخرج معهم .

وأنذرتنى الشمس فى حقول عزبة « خورشيد » بحدتها النوعية أن الصيف على مقربة منا ، وأن الامتحان على الأبواب ، وآية ذلك عربات الملانة والخس التى تدرج داخلة إلى المدينة تحمل أصوات باعتها الذين لايتغيرون ، ذكريات عن الامتحانات تثيرها نداءاتهم فى نفسى !! وما أكثر ذكريات الامتحانات عند كل طالب مخفق !! إنها الفجائع الباكرة التى نمنى بها فى مراحل أعمارنا الأولى .

على أننى استطبت « المسكن» حتى أصبح داء مع الداء !!

استطبت ترددى على العزبة متناسيا بذلك الهموم والمخاوف ، فأصبح ترددى عليها بعض مخاوفى وهمومى !! وأحببت « سكينة » فالتمست الأعذار لمن يحبون ، ولوكانت علاقاتهم القلبية تعود على بالإيذاء !! هذا هو الذى دار فى خلدى فترة من الزمن ، بعد أن تمكنت العلاقة بينى وبين أسرة « عم خليل » .

حملت إلى « بسطامى » الصغير جملة من الكتب الإضافية ليستعين

بها على دراسته بمعاونة منى فى فترات متقاربة هيأت له أن يبرز بين أنداده، وحملت إليهم شيئا من الحلوى التى تنفرد بصنعها المدينة نظير ما كانوا يحملونني من أزهار ، ودسست قلبى بين ما كنت أحمله ! فلمسته « سكينة» حتى أحست به ، فاستخلصته لنفسها مباحا حلالا .

وبدأت آلف طبائع الريف ، وبدأت لهجتى المدنية تصاب من حواشيها بتنافر وخشونة كانت عينا أمى تلمعان بسببهما حين تحسهما فجأة فى أثناء حديثى ، ثم تتساءل فأقول : صديق من الريف . فتراجعنى قائلة : أهذا هو الذى تذاكر عنده ؟! فأجيبها باختصار: طبعا !! ثم ينصرف كل منا بعد ذلك إلى شغله الحقيقى ، لأن مصالحنا لم تعد متفقة .

كان الامتحان على الأبواب وبدأنا نغيب عن المدارس . وأخذ المصطافون الخليون الذين لاتثقل الحياة كواهلهم بشىء يغدون إلى المدينة باكرين ، وكنت أنا أوليها ظهرى كل صباح خارجا عنها آخذا سمتى إلى العزبة .

وبدأت كتب المدرسة نفسها تشاركنى حبى ، لأن كل صفحة من صفحاتها كانت قد احتفظت بين سطورها بذكرى يوم من الأيام . كنت أجوس خلال الحقول على غير هدى ، والكتاب فى يمينى ونحن فى مستهل « مايو » فيلهينى تدبر الأماكن عن تدبر المعلومات ، ويشغلنى مابين السطور عن ذات السطور . لكن ماذا أعمل وما الحيلة مادام الله قد ابتلانى بفكرسريع التزحلق ، لايثبت طويلا على شىء كأنه « النعل ذات العجلة » التى يزلقون بها على الجليد !!

وأخفقت فى الامتحان ولم يكن لى الحق فى الدور الثانى ، وكان مجموع درجاتى يدعو إلى السخرية . كأننى كنت جالسا على عتبة الفصل ، والحق أننى عرفت من فنون الزراعة وطبائع الأرض وتغير الجو وأسماء

الطيور والدواجن فى عامى المنصرم هذا ـ أكثر مما حصلت من معلومات دراسية . فلم أستشعر ندما ولاحسرة ، ولم أقف عند الناصية متدبرا أمرى ناظرا إلى السماء أستلهم منها الصواب . بل خرجت بعد أعلان النتيجة محتملا الفشل فى غير خجل ، كما تبسم المخدوعة للناس وعلى كتفها وليد غير شرعى . وكنت فى هذه المرة أجرى نحو البيت جريا مستعجلا الواقعة طائرا إلى أمى لأنهى إليها الحوادث . وطرقت الباب ففتحت هى بنفسها ثم ارتدت إلى الداخل حيث اتخذت مجلسها بجوار « زينب » وتقدمت أنا حتى وقفت بين يديها ولم تخل فعلتى هذه من مظاهر التمثيل ، قلت وأنا ناصب عودى واضعا يدى فى جيبى سترتى مشرئبا بعنقى ناظرا نحو السقف :

ـ أمى .. هل تعلمين ؟ لقد رسبت فى الامتحان ، وليس لى الحق فى الدور الثانى .

فغاب عنها لونها ووضعت كفها على جبينها وأطرقت قليلا كأنها تعانى صداعا طارئا ، ثم نظرت إلى « زينب » كأنما تستلهمها التصرف ، فإذا بالضيفة تنوب عنها سائلة إياى :

ـ أحق ماتقول ؟

قلت وأنا انصرف عنهما :

ـ أجل .. لم يعد هناك وقت للمزاح .

ثم صفقت الباب من ورائى متلمسا طريقى إلى البحر غير آبه بعواطف أمى حين أيقنت أن مسألة إخفاقى أو نجاحى إن هى إلامن المسائل الشخصية التى لا تشاركنى « أم مختار » فيها بشىء أبدا . وماكدت أهبط الدرجات الأربع التى يرتفع بها مسكننا عن مستوى الأرض حتى صادفنى « نونو » بائع الثلج والفازوزة ، الشاب الأسمر الجعفرى الذى يعرض بضاعته فى صندوق كبير يجثم على إحدى النواصى القريبة ، وهو فى موسم الصيف

يعمل سمسارا للمصطافين . صادفني عند الباب الخارجي ومن ورائه رجل في الخامسة والأربعين قائلا :

ـ « ياسي مختار » ، رب أسرة تريد الاصطياف كأمر السيدة الوالدة.

فلم أجد بدا من العودة بهما ، وسمعت وأنا عند الباب صوت أمي يعلو في صخب يتناثر من حواشيه غضب ذكرني بالشرر الصغير النفاذ الذي يستوقفنا في حارات المدينة حين نرى السنان والحجر والسكين !! وطرقت الباب فعرفت طرقتي فكفت عن الصخب وقامت لتفتح . فلما دخلنا ثلاثتنا فهمت الأمر والتقى بصري ببصرها فلمحت في عيني بريق الخنجر يستل من جرابه لكنها فرت بنظرها . ورمى استهتار « زينب » ولينها على الحريق شيئا ثقيلا فطوى على دخانه ، ثم تولت هي عقد الصفقة وأفهمته أنه سينزل ضيفا علينا أي أنه غير مستأجر من الباطن . وسرعان ماقبل الشروط .

***

أصبحت أعرف كل شيء عن «سكينة » ولو أنها لاتعرف عني شيئا . إن « عم خليل »يأمنني على بيته كما يأمن أحد أبنائه ، ولعل سر هذه الثقة راجع إلى تعلق « البسطامي » بي وهي أنني صرت أحبه ، كان يعاتبني عن انقطاعي عنهم إذا طالت الفترة بين الزورتين عتابا أقرب إلى التعنيف يشق طريقه إلى قلبي شقا شعريا ساذجا لذيذا فكنت لاأملك معه إلا أن أقبله .

عرفت عنهم كل شيء حتى دجاجتها البيضاء المغسولة ودجاجة «البسطامي » المنقطة « ترار الفول » ثم ما لبثت أن صار لي بين دجاجهم دجاجة لم تكن ملكي بالمعنى المفهوم من الملكية ولكنه تملك صوري قصدت به الذكرى ومعرفة الطالع . وقد كانت رمادية دكناء في لون الذئب .ولشد ما كنا نضحك حين اتضح لنا أنها أقل الدجاج بيضا !! وحملت إليهم بنطلونا من التيل قصيرا تركته عندهم ألبسه عند إصراري على مشاركتهم بعض

أعمال الفلاحة ، أنا وهى و « البسطامى » الصغير كنا نشترك فى زرع أو سقى أو حصاد فنلتمس الحيل أوتسعفنا المصادفة فينفرد بنا المكان ، وهناك تختلج شفتها السفلى فى تقلص ينبىء عن حركة الداخل ثم تسترخى الأجفان فرارا من أن تقول عيوننا شيئا فأهمس قائلا لها :

ـ هيه . ألم يقل لك أحد بعدها يا « سكينة » ؟ هل بقى هذا الاسم من خصوصياتى فلم يهتف به إنسان ؟ .. كلهم يدعوك « بسكرة » إلا أنا وحدى فإننى أدعوك « سكينة » . ألسنا متفقين على أنه الاسم الذى تبيحين لى أن أحب صاحبته ؟!

لم تكن كثيرة الكلام بطبعها ولابارعة العبارة . كانت من أولئك اللاتى يختص باطنهن بالشق الأكبر من المعركة فلا يترك للظاهر إلا الشىء اللطيف ، كان حبها لى أشبه بأن يكون انفجارا تحت الأرض لكن آثاره كانت تبين على الخدود ومن نافذة العيون .

وكان أقرب ما يكون إلى المتعة الروحية الخالصة التى يتعاقب فيها التعب والراحة والقلق والإيمان لأنه حب فارغ من كل أمل .

على أن بعض الشجيرات كانت تحنو علينا حينا فتسترنا عن الأبصار كما أن ظلمة المساء كثيرا ماهبطت علينا قبل أن نعود إلى الكوخ ، فثارت فى طبيعة الطين وأدمنت النظر إلى شفتيها وخاصة إلى البقعة المثيرة فيهما التى تستخف الأحلام وتطيش ميزان العقول . وكانت الحقول تشاركنى الموقف فتدفعنى بسكونها إلى الحركة ، وتذكرنى بوظيفتها وظيفة المرأة على حين تزقزق فوق رءوسنا الطير غادية أو رائحة زوجين زوجين ، وتتوارى المرئيات عنى عامدة إلى أمد لتفسح الطريق كأنما خشيت أن تفسد علينا الخلوة . يحدث هذا جميعه فأنظر إليها راجف القلب مضطرب النفس فألفيها هرة أنيسة بيضاء جميلة آمنة مستكينة كأنها واثقة أنى سأحرسها منى فأحوط

نظافتها أن تتسخ .وأشفق على أمنها أن يبدده الحارس ، فأغمد المدية فى قلبى بيمينى حتى يغيب النصل وأستعيض عن مطالبى كلها بطلب واحد يتمثل فى سؤالى إياها قائلا لها :

ــ « سكينة » .. هل تحبيننى ؟!

وهنا فقط وليس فى لحظة سواها ترفع أجفانها سامحة لنظراتها أن تجوز إلى ثم تقول مبتسمة :

ــ ألازلت غير مصدق ؟ سأقول لك نعم نعم حتى آخر العمر .

وتتحول عن المكان قليلا ثم تعود ، ثم تبدأ فى إحدى القصص وكثيرا ماكانت تعيد ماقالته من قبل لأنها تقصد الإفادة من هذه الإعادة ، فالموضوع موضوع إحدى العذارى فى العزبة أو فى القرية البعيدة . عذراء أنساها الحب نفسها فجرت حتى الغاية وأدركها « المكتوب » على حد قولها ، فلما تسلمت قمة اللذة رأت أنه لابد من أن تنحدر فأشعلت فى نفسها النار .

لكن عينيها كانتا تقولان لى بعد كل حكاية من ذلك اللون : وعلى الرغم من هذا كله فإنى لاأدفعك عن شىء ، ولكننى واثقة من أنك لاتريد.

ثم تغنى لى بصوت خافت لين أغنية الحبيبين اللذين يقف كل منهما على بر وبينهما « معدارى » عنيد لا يقبل أجرا ولايبذل صدقة !!

— ٤ —

ما أعجبها أسرة التى جاءت تقضى الصيف عندنا على الشاطىء فرارا من حرارة الشمس فى « دمنهور » !

ربها « عباس أفندى » الذى استأجر حجرتين فى مسكننا لمدة شهرين، وهو أنموذج يدل على أن أسرار الله فى الخلق غامضة عميقة نقف أمامها بلهاء عاجزين .

أسمر الوجه ممتلئه تميل سمرته قليلا إلى السواد ، وتبدو عليه معالم الإهمال متمثلة فى شعر الذقن . كما ينتشر فيه عبث الجدرى الذى استخصب ماحول الأنف فرعاه جيدا ومر بالباقى مرا خفيفا ، غزير الشارب تنمو شعيرات شاربه فى كل اتجاه حتى اشتجرت مع شعر الأنف فى فوضى غير مهذبة ولانظيفة ، واسع الفم ، يرسب لعابه عند زاويتى شفتيه فترك أثرا جيريا باقيا لاترتاح إليه العيون ، ويبدو أنه مصاب بالتهاب فى الخياشيم مزمن قديم قد استحال مع الأيام إلى زكام دائم يحمله على استعمال المنديل حتى فى الصيف ، ويخرج الهواء من أنفه المرة إثر المرة حتى يصلح مجرى التنفس .

وبين هذه الملامح التى ترى كأن كل عضو منها يخاصم أخاه ترى عينين هما حقيقة سر الله فى ذلك الكائن ، ومن عينيه هاتين تنبثق شخصية قوية ، فلو فرضنا أنه يكلمك دون أن ينظر إليك أحسست أنك تخاطب أتفه إنسان،

أما إذا مانظر فإن الموقف سرعان مايتغير . فى الخامسة والأربعين متوسط الطول يكاد يكون سمينا ينحشر لحمه فى الحلة حشرا ، طربوشه إلى الوراء على حدود منابت الشعر من الجبين ، وقلما يجاوز حده ، طربوش غير زاهى الحمرة ولا أسود الزر، يوائم لونه بقية الملابس من رباط عنق لايعقد كل صباح بل يلبس معقودا ويخلع معقودا كأنه طوق من الحرير ، إلى بنيقة لاتأخذ وضعها حول العنق ساعة من نهار، إلى أزرار ناقصة على الكمين أو على الجنبين ، إلى حذاء يلبس مربوطا ويخلع كذلك ، وبنطلون لايخلو من التكسر فضلا عن انتفاخ خفيف حول الركبتين يقال : إنه نجم عن السجود ، إلى ملابس تدور كلها حول اللون البنى الذى لاينسجم مع سمر الألوان ، ويمشى فى حركة أدنى إلى السرعة ، ويتكلم بلهجة من نوع حركة المشى فيها تقلقل ولهوجة . أكول شروب يتنافى ما يحمله من السوق مع هيئته التى تبدو عليها دلائل الفاقة ، هذا هو « عباس أفندى » .. وهو أحجية من أحاجى القدر !!

أما زوجته فلا أدرى كيف أصفها ، ولكنى سأحاول ، فأقول أولا : إنها تومىء إلى من يراها بأنها مخلوق غريب تخلف عن عصر تاريخى سحيق ، سطا الزمن على كل أفراد نوعه فلم يبق أحد سواه !! ولعلى مبالغ ، فلست متأكدا من صدق ميزانى !! ولكننى واثق من أن « عباس أفندى » قد استعاض بلذة الأكل عن كل لذة سواها بعد أن تزوج منها بقليل .طويلة !! ولكن ليس كطول البشر ، بل طول تنفر العين منه منذ الوهلة الأولى ، سمراء حمراء فى وقت واحد كما تخلط صبغا بصبغ . رخية البال واسعة الصدر وإن كان صدرها ممسوحا على الرغم من فراهة العود . لاتغضب مهما يغضبها ، لأنها تخاف على عش الزوجية أن تتقوض أركانه ، وأنجبت منه بنتين أكدت بهما صحة قانون الوراثة !! تقوم بحاجاتهم جميعا خادمتهم « وهيبة» الشابة

التى لاتعد مليحة إلا إذا رأيتها فى محيط الأسرة وإن كانت بيضاء صافية. لكنك على كل حال تحس أنها أنثى قد ابتذلت فى الخدمة فنمت كفاها أكثر من المألوف من مزاولة المسح والغسل والأعمال العنيفة ، وتضخمت قدماها وتفرطحتا من الحفاء وتباعد مابين الأصابع واتسعت الفرجة وترهل الصدر ، ولست أدرى لماذا ! تنظر إليك بعينين فيهما حول غير منفر، وتحدثك بفم يعتبرلجماله غريبا بين بقية الملامح ، صغير ناعم أحمر قان مستدير ، كأنه خاتم من العقيق .

هذه هى الأسرة التى شاركتنا مسكننا لمدة شهرين من زمن الصيف ، وكنت أحس بوجودها إحساسا مؤلما قويا كما تحس الشظاة تحت الأظافر. ولعل سر ذلك أن مقام هؤلاء المساكين الذين لم تمن الفطرة على أحدهم بوجه حسن هو أن وجودهم كان منبها يخلو من القصد جعل امرأتين فى بيتنا تشعران بنعمة الجمال وتعتزان بها كما يعتز السليم ـ فى ضميره ـ بنعمة الهضم حين يستمع إلى شكاة الممعود . فزاد مزح « زينب » واستشرى تأود « أم مختار » فى مشيها حتى خلت أن العظام قد استلت من بدنها أو أن الأربطة التى تشد النصف الأعلى من الجسد بالأسفل منه قد وهت وتقطعت!!

وكثر جلوسهما فى الصالة على الكنبة التى أحدق بها كرسيان فتهيأت بذلك الفرصة لاجتماع عام لاتظهر فيه روائح التدبير .كانت الأغراض مختلفة والمصالح متشابكة : « فزينب » يلذ لها بطبعها أن تعرض ماتستطيع من محاسنها على كل رجل لغاية أو لغير غاية ، كما يلذ لها أن تبعث برائحة « شوائها » إلى المحرومين ، ولعلها كانت تجد فى ذلك لذة لاتقل عن لذة الأكل نفسه ، أقصد أنه يحلو لها أن تترك « عباس أفندى » يشعر بأن هناك لونا من النساء « رخيص التكاليف » « مصنوع محليا » غير باهظ الثمن يغنى الرجال عن هذا التقشف !

لاتستطيع السنوات التى مرت على هذه الأحداث ياصاحبى أن تنسينى اختلاج حدقها وهى تسقى رب الأسرة كل هاتيك المعانى . وكان الرجل يبتلع ريقه أو ينفخ فى الهواء من أنفه ، أو يستعمل المنديل ، أو يتحسس رباط رقبته المعوج فى ارتباك وتطلع يفسد على النفوس رضاها بالمقدور ، ويحمل ساكن الكوخ على تقويض أركانه : لأنه رأى على مقربة منه قصرا باذخا يرنو إليه بعيون من الزجاج وأحداق من الأضواء .

أما « أم مختار » فكانت تخدع نفسها بنفسها وتتناسى غرضها من مجلسها بينهم ، تخدع نفسها بأنها ربة المثوى التى يجب عليها أن تلاطف وتتودد وتسهر على الحاجات والمطالب ، أما غرضها الحقيقى كما تصورته أنا وقت ذلك وعرفته بعدئذ فهو أن تعرض جمالها فى معرض القبح ، وأن تسوق نحو السوق سلعة مليحة . وغايات الأمور يعلمها الله !

وقليلا ماكنت أشارك فى هذا الاجتماع إلا إذا قصدت الملاحظة . على أننى كنت ألاحظ ما أكره وأعرف مايسعدنى أن أكون جاهلا به . وعلى أن ظهورى فى الصالة ولو إلى آماد قصيرة كان مدعاة إلى ظهور الفتاتين والخادمة وثلاثتهن من جيلى . كانت نظراتهن تتكسر على محياى فى تطلع ونهم حبب إليهن المقام كما حببه إلى العائل ، ولعل نفسا واحدة هى التى كانت محرومة من المنفعة - مع تجوزى فى التعبير - بل وكانت تتوجس شرا ، تلك هى زوجة « عباس أفندى » ، المتحركة بذاتها ، الصامتة كأبى الهول ، المستسلمة للمقادير الهوج استسلام كل فارغ من المزية !

وينقضى الصيف كسلان حارا متثائبا كئيبا ، لايعجبنى فيه شىء لأننى كنت على وشك أن أفقد غاليا جد عزيز .. كنت على وشك أن أفقد حنانا واهتماما فطرت عليه الأمهات ، كنت فى ذلك التاريخ شابا لاأزال فى أول مراحل الشباب التى يكون الطابع الأصلى فيها الحدة والثورة والحرارة

والاندفاع ، والتي تكون شبه خالية من التجارب وبخاصة تجارب الرجال الذي يقفون من المرأة على أسرار الجسم والنفس بحكم السن و عالم الزمن . ولكنني كنت قادرا على أن أصف لك ـ لما رأيته من صدوف أمي عني ـ إحساس زوج محب يرضيه من زوجته القليل التافه . لكنها أبت إلا أن تدير إليه ظهرها من أجل رجل آخر ! هذا هو الذي وقع وذلك حقيقة إحساسي في ذلك الحين لأنني كنت أنظر إلى « أم مختار » بحنق أحس حرارته على قلبي كأنها زوجة حبيبة .

ثم يأتي بعد ذلك شتاء كئيب كالح !!

كانت أيامه تناوىء أسرة « عم خليل » في عزبة « خورشيد » كما كانت ترسل إلى بيتنا بالنذر هنالك على شاطىء البحر .

أما ما انتاب عزبة « خورشيد » في ذلك الشتاء فإنه لم يكن قاصرا عليها وحدها بل كان موجة من غزو سيل جارف طما عبابه على الريف في مصر ، وإذا كان الفلاحون قد تعارفوا على مواسم الحصاد فقالوا « موسم القمح » و « موسم القطن » فإنهم كذلك قد تعارفوا على مواسم الأمراض حتى قالوا « موسم التيفوس » !!

وقد كنا في موسم التيفوس » !

كان الموت فيه عملاقا عظيما يحمل تحت إبطه منجل الفناء الماضي المعقوف ، وماكان يضعه أبدا لأنه مافتر يوما عن نقل خطواته بين القرى والدساكر يحصد أرواحا اصفرت أعوادها قبل الموسم . وكثيرا مارمى بمنجله على وحيد لأبوين قد شاخا ، أو عروس مازالت تحلم بعطر الزفاف ، قصارى القول إنه كان ينشر الثكل واليتم والدمع والجزع في كل مكان .

وانقسم الفلاحون ازاء هذا الوباء قسمين طبيعيين : أفراد أحدهما قدريون متعصبون يجلدون الصابون ولكنها لايحتاطون . وقد رعى الموت

فيهم رعبا خفيفا . أما أفراد الفريق الثانى فهم قذرون متعصبون كذلك لكنهم لايجدون الصابون ، وإن وجدوه فإنهم لايجدون مايغسلون ، وقد أكل الموت هذا الفريق أكلا لما ، وطارده حتى فى الحقول والمزارع .

وانتشر رجال الصحة فى الريف يحاربون الوباء بطرق متعثرة يائسة تدعو إلى الرثاء لا إلى الإعجاب . فضربوا فى الأجران عدة خيام حشدوا فيها الحلاقين ليستأصلوا شعر الرجال من جسدهم كله !! الظاهر منه والخافى !! حتى لاتجد تلكم الحشرة البليدة البيضاء الخبيثة ملجأ فيهم تأوى إليه .

دخلت هذا المكان فى ضحا يوم من الأيام مع موظف منهم فرأيته شيئا يحبب إلى النفس المرض . كل مافيه قذر : الشعر منثور فى كل ناحية ، والحلاقون فى ملابس داكنة غريبة كأنما أعدوها لذلك اليوم ، وهناك طست فيه من محلول الفنيك سيح قليل رقراق تبدو منه أجسام أدوات الحلاقة المغمورة صدئة سوداء كأنها تستعمل من عهد « خوفو » ويخلع الفلاح قلنسوته الصوفية مسلما رأسه ليد مستهينة وأدوات تالفة عقيمة ، فسرعان ماتتقلص ملامح وجهه لتدل على الألم . وتنقضى ساعة يخرج بعدها لامع الرأس تحت الشمس كما يلمع قشر البطيخ تحت ضوء القمر . تفوح من أردانه رائحة الفنيك وتبدو على وجهه آثار الموقعة . أما النساء فقد ضربت لهن خيام منعزلة فيها نساء مثلهن يقمن بالتنظيف والتسريح والتعطير بحامض الفنيك .لم يكن العلم قد بسط ذراعه فى ذلك الزمان حتى يبلغ مكمن هذه الحشرة . فكر فى الأسد والفيل فنصب لهما الأشراك حتى اعتقلهما وجعل منهما ملهاة ينظر إليها النساء والأطفال فى الحدائق ، ولكن أنامله لم تكن نالت « قرادة » التيفوس !!

لن أنسى الذى يعنينى مما أقصه عليك فإن الذى يعنينى منه شخص

واحد .

نصبوا هنالك بين الحقول خيما جعلوها معزلا للمرضى ، كانت ريح الشتاء تنازعها أنسجتها بين خضرة الأرض حتى تكاد تطير بها كما تطير بأشرعة السفن . وفى ذلك المعزل البارد والكن غير المكنون ترقد طائفة من الناس يطعمون الألم ويستدفئون « السخونة » ويغنون بالهذيان . حيلة الطب فيهم أن يجس نبضهم فحسب ، حتى يعلم الحالة التى آلت إليها قلوبهم . وحولهم ممرضون لايستجيبون النداء ولا يحاورون الداء ، مهمتهم تسليم الجثث أو تقبل الهدايا من أسر الذين ينقسم المرض فى أجسامهم إلى سم و ترياق فيشفون بلا عقار .

وبين هؤلاء المرضى فى هذه الخيام رقد « البسطامى » الصغير !!

وهكذا ناوأت الأيام أسرة « عم خليل » فالصبى مضطجع فى الخلاء منذ ثمانى ليال ، ولم يستطع أحد أن يزور مريضه كما استطعت أنا أن أزور مريضى ؛ لأن رجال الصحة قد خدعهم مظهرى فتسامحوا معى كثيرا .

زرت الكوخ ذات مساء ـ لأن زياراتى لم تعد موقوتة ـ فلما اقتربت من بابه أحس أن هنالك صمتا ثقيلا يلقى بكلكله على المكان ولو أن الريح المتتابعة الأشواط أبدت نشاطها فى أزيز أعواد الحطب على سطح الحظيرة وتصفيق أوراق الموز عند المدخل ، وفى نشيش شجرة الصفصاف والسنط ، وهفيف زمر الحلفاء على الترعة . وعلى الرغم من هذا كله فإنى أحسست سكون المكان . وناديت ففتحت « سكينة » وكان الاهتمام باديا على محياها. لم تقل شيئا ولكننى فهمت من صمتها أنه يجب أن أعجل بالدخول . فإذا « البسطامى » الصغير نائم أمام الصندوق الكبير القديم الحائل ، تحت رأسه وسادة تستعمل سندا فى النهار ومخدة فى الليل . وعليه كساء من الصوف الغليظ المخطط وقد ربط رأسه بمنديل أبيه ، وألقى المصباح

الوانى المدخن الزجاجة من أنفاس الهواء كلما فتح الباب ـ ألقى على وجهه المحتقن ضوءا خابيا لاهثا مكدودا يرمز إلى الحظ . وأسبل الغلام أهدابه واستسلم لنوم . لم يكن نوما وإنما كان عناء وإرهاقا وشدة جلست الأم عند رجليه والأب قريبا من رأسه فى يده مسبحة من تسع وتسعين ، وشفتاه تدعوان فى رجفة . أما « سكينة » فلعلها كانت أمامه ولكنها أخلت لى هذا المكان .

واستعذت بالله فى سرى من تحليق القضاء فوق رءوس الناس .. فى تلك الفترة المشحونة بالقلق والمخاوف ، واستعذت بالله فى سرى ودعوت بل لعلى كنت خجلا من نفسى ساعة وضعت يدى على جبين الغلام لأعرف مدى الحرارة ، متوهما أن هذه الأسرة الطيبة المسالمة ربما عزت مايقع لها ومايصيبها إلى طالعى أنا لا إلى طالعهم ، وفى الريف يتفاءلون ويتشاءمون ويرجعون الأشياء كثيرا إلى غير أسبابها . ثم رفعت كفى عن جبينه وأنا أقول :

ـ لا .. لفحة هواء .. لاتزيد . ستصبح بارئا بإذن الله .

فكتمت الأم دمعها ، وهتفت الأخت قائلة :

ـ ليسمع الله منك !

أما الأب فقد أبدى استسلامه قولا وفعلا حين نهض من مكانه ليصلى النافلة .

تسلقت سور المدرسة الخلفى بعد الحصة الثانية أربعة أيام على التوالى لأطمئن على حال صديقى الصغير . أحسست خوفا عليه وحبا له ، ولست أجادلك إن اتهمتنى بالأنانية فى ذلك الموقف وزعمت أننى أحبه من أجل سواه . وماذا فى هذا ؟! ليتنا إذن نحب عباد الله من أجل حبنا فى الله !!

كنت عندهم قبل الظهر فى اليوم الرابع ، وكانت الحال تجرى من سىء

إلى أسوأ فقد أصابته العدوى . وما كاد المكان يستقر بى حتى فاجأنا رجال الصحة الذين كانوا يلاقون عناء في البحث عن المرضى . وهذه كلمة حق . كانوا يخبئونهم في باطن الفرن وفى مخازن التبن وتحت أكداس الحطب وعند أقربائهم البعداء لأن أسطورة قديمة كانت تعيش وتجدد فى كل قرية مع موسم الأوبئة ، فحواها أن الذئاب تسطو على المعزل فتجر منه جثث الموتى من بين أحياء بعضهم يهذى وبعضهم نائم !! ومن أجل ذلك كان رجال الصحة يهجمون على البيت وسمعتهم يومئذ وهم يقولون :

ـ لا داعى للإنكار ، فإن المدعو : أبو اليزيد خليل ، متغيب عن المدرسة من أربعة أيام مضت وقد أبلغنا ذلك الناظر .

فذعرت الأسرة وتوليت أنا إقناع الأب بأن هذا عمل صالح وأن المرضى هناك يكفلون بما لايكفلون به فى البيوت . على أنه لم يكن هناك مناص فأصررت أنا على أن أحمل الغلام بنفسى . ورأى الرجال إخلاصى فعطفوا على آلامنا .وفرت الأم تجرى نحو الحقل فى ذعر محزون ، ووقفت « سكينة » تبرق عيناها كالمرآة بدمع كان له على حشاى ملمس النار . أما الأب فإنه رفع إلى السماء عينين لم يخفف الدمع عن صاحبهما البلوى وهمهم بالدعاء ، ثم رفع صوته قائلا :

ـ كله بأمره .. إنه ليس أفضل من النبى محمد ، ولا من « البسطامى الكبير » .

فلم أملك سوابق دموعى . وسرت وساروا من ورائى !! ولست أدرى كيف تطول أجسامنا حين تغيب عنها الإرادة فلقد كانت أقدام الغلام تلامس ركبتى على طولى وفراهة عودى . كان محمولا على صدرى من الجهة اليسرى بعد أن عقدت ذراعى تحت مقعدته وبحيث ارتاح رأسه على كتفى . كنت أحس دقات قلبه مسوقة بعنف شديد ، وأحس لفح أنفاسه على صفحة

عنقى وحول أذنى ، وسرعان ماسخنت بفعلها البنيقة . وكان يهذى هذيانا متقطعا أسمعنيه بوضوح ، وقد هذى بأشياء كثيرة ، فيها « جدول الضرب»، وفيها الأنشودة الوطنية » « مصر العزيزة » وفيها غير ذلك ، ولكن الذى أبكانى مرة أخرى هو أنه نادانى .

واتجهت إلى السماء دون أن يرشدنى أحد حين رأيت أن الأزمة لا حل لها على الأرض . وددت أن أفديه بنصف عمرى ، فلجأت إلى المصلى على الترعة تحت شجرة الصفصاف وسجدت على الحشيش بل وكنت مستعدا أن أمرغ خدى وجبينى فى التراب فيخفف عنه الله ، فقد اكتشفت أننى أحبه .

ودخلت على أمى ذات مساء فسمعتنى أهتف بقلق وشرود واهتمام وإخلاص قائلا : يارب !! فتهافتت ضاحكة كضحكة « زينب » تماما معترضة على بأننى لم أفعلها من قبل متسائلة عن الدافع ، فعجبت غاضبا وسألتها فى جرأة أهداها إلى سلوكها الجديد :

ــ لك أن تعترضى على حين ألتجىء إليك .. إننى لم أقل يا أماه قلت يا رب !!

فانصرفت عنى .

لكن ذلك حملنى على أن أتفحص الأمر حتى كدت أدرك فى هذه السن أن الحب معنى يجب ألايخلو شىء منه وإلافسد ما بين « وحداته » . إننا نقبل القطط فى بعض الأحيان أو نهم بأن نفعل ، وما ذلك إلا أن الحب بين نفسينا !!

ثم بدا اللطف يحف بظلمة الكارثة حتى أحال ظلامها نورا فإن الحياة دبت من جديد فى جسمه الضاوى . وتبين لى ذلك فى ضحوة من الضحوات يوم ذهبت لأزوره غير معرج قبلها على كوخ أبيه ، وكانت فرحتى عظيمة وكدت أجود على المرضين والخدم بسترتى بعد أن وزعت عليهم نقودى

القليلة وهممت أن أهب أحدهم دراجتى المنهوكة لولا أنها تيسر على الذهاب إلى المدرسة والنزول إلى العزبة .

كان « عم خليل » فى الإسكندرية يوم ذاك يبيع بعض خضره فعدت أنا بالصبى أحس دفء أنفاسه لالهيبها وأستمع إلى حديثه لاهذيانه ، وفوجئت بذلك أمه فلم تملك أن تتحرك ، ودخلنا إلى الحجرة حيث تركتها تكيل له القبلات وتجهز طعاما عاجلا ، وجريت إلى نهاية الحقل نحو الشمال حيث كانت « سكينة » مشغولة فى عمل . قلت لأمها اختصينى إن شئت ودعينى أحمل إليها البشري ، فوافقت وتركتنى أجرى مدفوعا بحرارة وحب حتى إذا ماوصلت إلى هناك أبصرت بها واقفة بين شجيرات الفاكهة على حاشية الحقل ترمى فى حجرها ببعض أثمار البرتقال . وقرأت البشرى على وجهى قبل أن أفوه بحرف حتى إنها سألتنى فى ابتسام وشرود :

ـ هل عاد ؟؟ لعله عاد .

قلت وأنا أجرى نحوها :

ـ نعم .. نعم لقد عاد .

فتركت حجرها ينحل فتهاوت الأثمارمبعثرة على الأرض ؛ لأنها كانت محتاجة إلى يديها . وقفت تجاهها فى الظل آخذ أنفاسى بعسر وعنف من جريى واضطرابى معا فلم أستطع أن أقول لها كلمة ، لكنها استشرفت ناظرة إلى عليا قوامى رافعة وجهها محدقة نحو عينى واضعة كفيها على كتفى لتفصل بين جسمينا مسافة قليلة . وكانت فى موقفها أشبه بمن تخاطب أحدا فى النافذة وهى على الأرض ، فأتاحت لى أن أرى عنقها الطويل التالع ، وأن أرى استدارة وجهها البدرى ، وأن أرى من صدرها ما تحت النحر فى تلك المنطقة التى تسترها الجلابيب فى الريف فلا تراها الشمس . فلما وقع بصرى عليها ألفيتها بيضاء ناصعة جميلة وأحسست نعومتها كأننى ألمسها.

وبقينا كذلك برهة ، الألسن صامتة والعيون نواطق ، لكنني مالبثت أن وضعت ذراعي حول خصرها فأحسست لينا كلين الماء وأيقنت أنه قابل للانجذاب إذا ما جذب . ثم أخذت عيناى تتحولان عن عينيها هابطا بنظراتي على التدريج منهما إلى الأنف والخدين فى وقت واحد ، ثم إلى ما تحت ذلك حيث الشفة العليا تتوسطها نقرة جميلة ، حتى وقفت عند الفم الباسم كله جمله واحدة . ثم انفصلت عنه نظراتى حيث نامت الشفة السفلى وحدها واستقرت على نقطة المناوشة والإثارة ، فإذا بها ترجف خفيفا كورقة الورد مع نسيم الربيع . وهنا نسيت كل شيء . كانت هذه اللحظة آخر عهدي بالبقظة فقد غبت غيبوبة لست أدرى ما مداها ، أفقت بعدها فأدركت ما مررت به كما ندرك حوادث الأحلام . وكان الذى حدث هو أنني جذبتها فانجذب خصرها الذى لايقوى على المقاومة ، فلما تماس الجسدان رميت بفمى على شفتيها فى قبلة كانت بابا ذهبيا عبرت منه للمرة الأولى فى حياة كلها أشواك ، بائسة محرومة ، وبخاصة من الحنان !! فلما فرغنا نظرت فإذا هى بين ذراعى أنيسة وادعة كأنها فى أمان !! ولعل منظرها هذا هو الذى وقف تدفع الشباب فى مثل هذا المعارك .

وكان منظرنا عجيبا حقا : طرحتها على الأرض عند قدميها من الخلف ومنديل رأسها متراجع إلى الوراء فى فوضى أحلى من النظام ، وأثمار البرتقال منتشرة فى الظل كأنها أكر من النار وعلى ملابسى وملابسها قروش من النور سقطت من بين أوراق الشجر . وبعض الطيور محلقة تزقزق فرحة بدفء اليوم ، يبشر بعضها بعضا بمقدم الربيع ، وإن كانت مخدوعة . ثم بدأنا نتكلم . فقالت كمن يخاف أن يسمع صوته :

ــ كده !؟

قلت :

ـ أتريدين أن تشعريني بالندم ؟!

واحمر وجهي وكدت ألفظ حلاوة الموقف من فمي لكنها سارعت قائلة كأنها خافت أن تتلف شيئا ما :

ـ لا . لست أقصد .. هي فرحة الأخ الكبير بعودة الأخ الصغير . دعني !

وبدأت تلم شعثها وتجمع الثمار المبعثرة لتسبقني إلى الكوخ وقد أحسست أن ندمها يخالطه فرح ؟! ألم تجرب ذلك قط ؟إنه كندم الصائم الذي يأكل ويشرب ناسيا حتى يميت الجوع فيذكر أنه في رمضان ، فيشهق ، ويضحك ، ثم يتمضمض مستأنفا صومه مستشعرا ندما تخالطه فرحة ، لأن الله هو الذي أطعمه وسقاه . وقد يتمنى بينه وبين نفسه أن تتكرر الحادثة .

وهكذا كانت وهي تحت شجرة البرتقال .

****

لعلها خطة مرسومة يريدون بها أن يجرعوني مرارة الأحداث قليلا قليلا حتى لا أفقد صوابي حتى أرى الكأس مترعة . لكنه عمل غير صالح لايكاد يخلو من التعذيب .

ماذا عليهم لو أعلنوها صريحة ؟! لكنها « زينب » التي لاتتغير ، إنها المرأة التي ترسم كل شيء ، وتخطه بدقة كما تخط قوسي حاجبيها .

سمعت ضحكتين نسويتين في الصالة نفذتا إلى من الباب المقفل وقت العصر وأناجالس إلى كتابي . وكانتا مختلطتي الرنين في حلاوة موسيقية تحمل إلى الأذن معنى المرح والمفاجأة في وقت واحد . ثم تناهى إلى بعد ذلك نحنحة رجل وصوت أمي وهي تحيي : « أهلا وسهلا » وهممت أن أغادر مكاني خارجا إلى حيث الضيف لكنني لم أكد أفعل حتى استوذن على بطريقة عرفت فيها تكلف « زينب » حتى في طرقاتها على الأبواب ، ثم

فرجت بين المصراعين وأطلت بوجهها وحده وكان « ممصولا » مرسوما اقتضاها على الأقل مجهود ساعة فأمسى يطفح بالصبغ والعطر ، فرجت بين المصراعين قائلة :

ـ تعال سلم .

وردت الباب وانصرفت ، وسمعت وقع حذائها العالى وهى فى طريقها إلى حجرة الضيوف ، وسارعت طبعا إلى هناك يسوقنى تطلع وهم ونكد ، ويحدثنى ضميرى أننى أدعى لأمر غير عادى ، وإلا فلماذا أدعى لأول مرة على هذه الصورة ؟!

واجهنى أول ما دخلت زوج الست زينب بشكله الحريفى وهندمه الجدير بعذارى الريف وهندامه المرسوم بريشة امرأته وصوته الخافض وشبابه الموثق ، فلما بصرت به وأيقنت أن هناك أمرا غير طبيعى لأنه كان نادرا مايزور . ويقع هذا النادر فى أيام الآحاد ولم نكن فى يوم أحد .. ثم جال بصرى حتى وقع على ..على « عباس أفندى »، رب الأسرة التى عندنا شطرا من الصيف . وها نحن أولاء فى فصل الشتاء ، لكنه جاء يزور ، جاء يطمئن علينا فلعله خاف أن تجتاحنا العواصف ، ويصحبته رجل وامرأة غريبان عنا ، بل غريبان عن المجتمع كله لأنهما مشغولا بنفسيهما عن كل ما يهم .قلت :

ـ أهلا وسهلا « عم عباس أفندى » . وأحسست وأنا أحييه بأننى أهجم عليه ، أقصد أن أقول : إن الخوف كثيرا ما يدفعنا إلى الأقدام ، كنفس العمل الذى نعمله حين نلتقى بثعبان بين أكوام السماد فى القرية . وجعلت أردد التحية أهلا وسهلا « عم عباس أفندى » ، والرجل يرد باهتمام واحتفاء بعد أن ينفخ الهواء من أنفه فى كل مرة .

ثم حملنى مظهره على أن أتفحص الموضوع لأن عليه حلة بنية جديدة ولم تكن بنيقة القميص مكسرة كما ينبغى ! أما رباط العنق فقد بدا أنه عقد

للمرة الأولى .

وقدمت القهوة وجلست أمي تحيى وتتكلم ، وانطلقت « زينب » تجوس خلال أغراض الحديث فلم تدع شأنا ولا غرضا . كلا ولا فرصة لعقل ولا لسان . ثم أمسكت قليلا ، ثم هزت أرادفها فى كرسيها برشاقة مؤذنة بانتهاء الجلسة فنهض الرجلان ! كأنها ضغطت على زر !! وبدأنا نتصافح مفترقين ، وحرص « عباس أفندى » على أن يخصنى بشىء فإنه أوصانى بالدرس خيرا وتمنى أن يسمع عنى ما يسر فى عامى المقبل . قلت بينى وبين نفسى : والهف نفسى !!ثم أويت إلى حجرتى مشتت البال أضرب أخماسا فى أسداس .. أطالع صورة أبى فى المرآة ، وانظر إلى عين أمى كلما دخلت فألحظ أنها تصرف بصرها عنى ثم أعد صفحات الكتاب ، ثم أنقر برجلى على الأرض ، وأنقم بأصابعى على المنضدة لحنا خاويا بليدا . ثم أرجع فأعد أصابع يد بيد ، ثم أتحول إلى السقف فأنظر إليه وأقوم بعدها إلى النافذة فأحسر الستار عن الزجاج لأرى وجه البحر الغشوم وأنظر إلى سحاب الشتاء وقد غمس حوافه فى الماء عند الأفق ، ثم أعود إلى مكانى فأبدأ حلقة هذه الأعمال مرة جديدة !!

إنه الشرود واضطراب الفكر وبلبلة الخاطر ، وتطلع أبصارنا الكليلة إلى المغيب ، وانطواء النفوس عن النفوس فى بيوت تنقصها الصراحة ولاتنهض دعاماتها على الحب . طالما أسندت رأسى إلى صدر « أم مختار » وأنا أتغذى بلبانها .. فهل كانت إبان ذلك تقبلنى بحنان !! إذن فلماذا تطوى عنى سر نفسها ونحن شجرتان مفردتان تقتضينا الحياة أن نتماسك .. من الدهر ..

إن لم يكن من الحب !

وضقت بالحياة ووقفت سادرا حائرا أسأل عن الطريق فلم أدر إلى أى

جهة يجب أن أسير . وأخذت أفكر فى الموت مرة أخرى .. اتجهت إلى النافذة الضيقة المظلمة الكئيبة المحصنة بالأسلاك والقضبان ، القريبة البعيدة، المرعبة المطلوبة ، فرأيت أنها هى النجاة ، ثم جعلت أسائل نفسى : لماذا نحتمل الحياة هكذا مؤلمة غامضة جلدنا بالسياط ونحن نحتضنها ؟! لكن الحياة نفسها وقفت بينى وبين الجواب ، فلبثت أنظر إلى نافذة الموت وأنا فى مكانى لاأريم ، لا أتقدم خطوة ولاذراعا وإن كنت راسخ اليقين بأن العلاج الحاسم لكل شقوة إنما هو إنهاء الحياة !

ثم عدت فنسيت هموم نفسى فترة أخرى من الزمن لأننى شغلت بمراقبة مأساة قد لاتعتبرها أنت مأساة وإن كنت أرجح أن حكمك عليها قد يتغير .

هناك فى عزبة خورشيد مرة أخرى وفى البقعة المنعزلة التى يعمرها «عم خليل » بفأسه وقلبه وزوجته وبنيه .

لم تكن الأسرة ملتفة حول واحد من أفرادها وإنما كانت ملتفة حول بقرة !!

نحن لا نرثى لحيوان يذبح فى ظروف عادية ولكن ما بالنا نرثى له حين يتدخل السكين ليحول بينه وبين ما يقاسيه من ألم ؟. والموت نهاية طبيعية لكل حياة ، بل لعله ليس نهاية وإنما هو مرحلة غريبة علينا تأخذ وضعها فى هذه السلسلة التى نظمها المبدع الأعظم ، ولن يغير الموقف شيئا أنه « مرحلة » أو« نهاية » فهو محزن على كل حال . ويتضاعف إيلامه للأحياء إذا تداخلت إرادة الإنسان فى ميقاته فنحن نألم للمنتحر والمشنوق كما نألم للحيوان حين يتدخل السكين واضعا حدا لما يقاسيه من ألم !!

وقفت بقرة « عم خليل » أمام الحظيرة غير مشدودة إلى وتد لأن المرض قد قيدها حيث كانت واقفة . وكانت تدور حول نفسها أحيانا كما كنا ندور فى الحارات ونحن صغار باسطين أذرعنا حتى تدور بنا الأرض . كانت تدور

وتخور خوارا معبرا . فلاتعجب للذين يستبكون العيون حين يصفون ماتابهم لأن الألم ينطق الحيوان !! وكما نتقلب على فرشنا من جنب لجنب كانت المسكينة تتقزز فى مرقدها إذا ماأتعبها الوقوف فلجأت إلى الأرض ، ثم ترمى بعنقها مطروحا رميا يفهمك معنى التهالك راجعة به إلى الوراء حتى ترى عقد الزور واضحة تحت جلدها المشدود متطلعة بعينيها إلى لا شىء ، لأن سوادهما أصبح مفعما بشكوى صامتة . وقليلا ماكانت ترنو إلى بنتها المربوطة على بعد معبرة عن الحنان الذى تبذره الطبيعة فى قلوب الحيوان والإنسان على السواء .

كان « عم خليل » متأكدا من أنه سيفقد بقرة ، ولذلك فإنه أرسل إلى العزبة حيث استحضر جزارا ربض على مقربة منها بسكين، وفقدان بقرة عند فلاح صغير جزء من الشكل ، وحادثة تتلقى فيها التعازى . ولكن ذلك الذى عرفناه صبورا كان يفلت حبات سبحته من بين أنامله سريعا فى حركة عصبية ، فإنها كانت تدنو منها لتمسح جسمها بين أونة وأخرى فتنظر البقرة إليها كأنها تعتذر إليها عن الدر الذى أنضبه المرض فى حزن وأسف . حتى إذا ماعجزت عن الحركة وتوسدت الأرض غابت عنها الفتاة كمن يفر من رؤية ظل الفناء على وجه شخص عزيز . واشتد شحيحها ، وانتفخ بطنها ودمعت عيناها وغرب السواد إلى جانبيهما وحل محله بياض متوقد أحمر . وسال المخاط من فمها غزيرا واضطرب خيشومها لشدة التنفس ، وبدأت حلقات زورها تختلج تحت جلد الرقبة السفلى ، وهى ملقاة على الأرض ، ووقف «البسطامى» الصغيرينظر آية الموت فى مخلوق كبير وغرقت ملامحه فى العجب ، أما الأم فقد كانت منزوية عند الفرن ناكسة طرحتها على وجهها تعد الحصا وعبرتها تسيل . كانت تعلم أن مغزى هذا الحادث هوانقطاع اللبن من البيت وهو الغذاء الأساسى ومعناه أيضا عدم الذهاب إلى السوق بالزبد

والجبن والعودة بالنقود .

وبلغ الألم ذروته فلم تعد البقرة لتحتمل جديدا فهزت عنقها وحولت عينيها المكدودتين إلى صاحبهما كأنها تقول : أيها الإنسان ألاتملك من أجلى شيئا !! ولعلها لم تكن تعلم أن الخلاص فى يد الجزار !! فأومأ « عم خليل » إليه أن حانت الساعة . فوثب القدر من هذه الإيماءة ، فخطا الرجل إليها خطوتين حتى وقف عند رأسها من الخلف .. وانقضت ثوان ولت بعدها الآلام غير راجعة !

كانت هناك عدة دجاجات تحوم فى المكان بعضها ينقر فى دمها وبعضها ينقر خيشومها . أما البقرة الصغيرة المربوطة على قرب فإنها كانت تنظر فى بلاهة بهيمية عجماء عجيبة ، وهى مادة عنقها شاخصة ببصرها إلى الأم . وأما « البسطامى » فقد بكى ، أما أبوه فقد كان ينقل بصره بين شبح ابنه وهيكل الذبيحة ويحرك السبحة بين أنامله وهو يتمتم قارئا : « وفديناه بذبح عظيم » ، ثم اتجهت عناية الأسرة بعد ذلك إلى البقرة الصغيرة التى ورثت عن أمها مرعى وحظيرة !!

— ٥ —

آيات التفكير بادية على وجهها طوال النهار .

حركاتها كثيرة تبذلها فى أعمال قليلة ذكرتنى فيها بأمى التى كانت فريسة للأمراض . لكن حنانها اليوم دافق عذب : نادتنى مرة بقولها : يابنى، وهتفت مرة أخرى قائلة : حبيبى . وقدمت لى وقت الغداء فى ذلك اليوم الذى لم أذهب فيه إلى المدرسة وكنا فى شهر أبريل ، شريحة من اللحم طهتها بعناية فأكلت حتى امتلأت للمرة الأولى منذ سنين . أما العشاء فقد كان مختلف الألوان : جبن وزيتون وعسل وقطعة من الزبد وصنف من الفاكهة

كأنها كانت وليمة !! قلت في نفسي : سبحان مغير الأحوال ، لكنها أمي على كل حال والأم من طبعها أن تحنو . الأصل في وضعها السلام لا الحرب ، وعسى أن تكون قد وضعت أوزارها مع ابتسام الربيع !!

وأمسى المساء فرأيتها كثيرة الطواف من حولي ، واستأثرت بانتباهي طاقة عصبية شديدة طغت على وجهها وبعثرت حركتها في كل صوب : عند النافذة ، وفوق السرير ، وفي المطبخ ، والمدخل ، كأنها نحلة خشبية يلهبها صبي بكرباجه ! حتى استقر بها القلق آخر الأمرعند الشباك خلف الزجاج المقفل تنظر إلى الظلام في الخارج مرتفقة حافة الشباك . ثم نادتني فجأة .. وكنت غيرملق إليها ببالي :

ـ مختار.

قلت :

ـ نعم .

فقالت برقة :

ـ دع كتابك الآن قليلا ، وتعال إلي .

وما إن جلست تجاهها حتى رأيت على وجهها دلائل الحاجة . شعرت من فوري أن أمي ستقصدني لشيء وستفضي إلي بهم خطير . قلت بيني وبين نفسي : ذاك إنذار بخلو الوفاض من المال من غيرشك . قطعا هو الإنذار المعتاد الذي تبلغنيه كل عدة أشهر قاصدة به إيقاظ نفسي وتسجيل فضلها علي ، ولكن ماذا أعمل ؟! أنا مستعد أن أشغل أي عمل بشرط أن يدبر لي ولو كان من الوظائف التي تمسك الرمق وتحقق القوت وتغني عن السؤال فحسب ثم يغنيني بالتالي عن اللقمة المسمومة التي أغمسها في أدام هو من تدبير يديها !! ألا ليتها تريحني ؟!

ـ مختار ..

قلت :

ـ نعم يا أماه .

فسألت كأنها طفلة :

ـ هل تحب أمك !!

فكدت أبكى !! رأيت السؤال تافها قد تنافى منطوقه مع جلال الأمومة فى قلبى ، ورأيته مرة أخرى غير ذى موضوع وماكان ينبغى أن يوجه إلى ابن ، ولكننى أرضيتها فأجبت :

ـ إذا كان حولى فى دنياى من أستطيع أن أختصه بقلبى فدلينى عليه .

فبدأت تبلع ريقا كاد ينضب بل ولعلها أدركت أن هذا الصندوق المقفل الذى لم تحاول مرة من المرات أن تطلع على مافيه ـ فيه شىء كثير لقنته الأحداث إياه فتعلمه بلا معلم وإن كان فاشلا فى المدرسة !! ثم لعل أحاديث الحب التى كنا نتساقاها أنا و« سكينة » أرشدتنى إلى طريقة الكلام فى مواقف العواطف .. دلتنى على الاتجاه فحسب لأن النوعين مختلفان . وطال سكونها فترة معقولة استأنفت بعدها الحديث :

ـ هذا جميل . ويظهر أنك ولد طيب .. ابن حلال .. لم تفقد استعدادك لفهم الحوادث والخضوع لأحكامها إذا لم يكن هنالك بد .

وسكتت مرة أخرى متوقعة أن أسأل أوأعلق ، لكننى قابلت صمتها بالصمت . وبدأت جدية الموقعة تتجلى فى العيون . قالت :

ـ وأنت تعلم مدى حيلتى فى تدبير المعيشة وكيف أن البقية الباقية من حليى طافت بكل بنوك الرهون وكيف أن مجال الدراسة طويل أمامك .

فهززت رأسى لها هزات سريعة مشيرا عليها أن تعجل بالنهاية ، لكنها أمسكت عن الكلام ثم عادت فنظرت إلى ، وبدت فى هذه اللحظة أكثر اضطرابا مما مضى حتى كدت أحس رعشة شفتيها فلم يسعنى إلا أن أعمل

ما أجبرها به على أن تتشجع . فحولت وجهى ونظرت من فوق كتفى إلى الصورة الزيتية المعلقة على الحائط فوق مجلسى تماما من منضدة الدرس . نظرت إلى صورة أبى ثم نظرت إلى أمى كما يفعل المتفقون فى العاطفة بعد أن يهيلوا التراب على عزيز . لكن بوادر الغضب هبت على طبعها لعلها عادت فتذكرت أنها فى حاجة ماسة إلى بقاء الجو بيننا على صفائه والريح على سكونها ، فضبطت زمام نفسها وتنهدت قائلة :

ـ يبدو أنك تنظر للموضوع من زاوية واحدة فحسب . أنا مستعدة أن أبذل لك كل مايرضيك فى الحياة الجديدة التى يشاركنا فيه رجل طيب ، لأن الضمان سيكون متوفرا لدى فسألتها مطرقا :

ـ هل من حقى أن أعرف من هو ؟

فقالت وهى تدارى خجلها بتقطيب من وجهها الناظر إلى البحر :

ـ انت تعرفه .. رجل طيب . هادىء مسالم .. يحبك ويحترمك . مدرس فى ابتدائى وسيقيم معنا بعد انتهاء الموضوع .

فسألتها :

ـ وهل ينتظر مرافقتى ؟

فاعتدلت على الكرسى ومدت جسدها مستوفزة كأنما ملأها الشر ، حتى خيل إلى أننى أرى هرة قد وقف شعر جسدها بكل شعرة فيه ، ثم أتانى صوتها المختلج يقول :

ـ سيقيم معنا بعد انتهاء الموضوع . هذا هوما قلته لك بالحرف الواحد.

أدرت الكلام فى فكرى وإن لم يكن محتاجا إلى إدارة ، وأحسست أن شيئا ما يهبط على قلبى ويغمر جسدى ووجدت نفسى إزاء أحد أمرين لامحيد عنه ولامحيص : إما تشجيع وإما بكاء . فآثرت أن أتشجع ، وناديت قواى جميعا لكى أقول لأمى وأنا أنهض متحولا عن مكانى :

ـ « خلاص .. مبارك !! »

لكنها ضغطت بكفيها على كتفى حتى أبقى حيث أنا ثم تشنجت ملامحها وأجهشت بالبكاء ، على حين جعلت أنا أنظر فى كل فج محاولا تفهم الموقف ، ولم ألبث أن أحسست خفق الحنان فسألتها فى هدوء :

ـ وفيم البكاء الآن ؟! ألم ينته كل شىء ؟!

فنبتت كبرياؤها من خلال الدموع كما كانت تفعل مع أبى فى سالف الأيام وقالت بإصرار المتأكدين :

ـ ليست هذه أول حادثة من نوعها على الأرض . كلهن يفعلن ذلك ولايفعل ذلك إلااللاتى يخفن على شرفهن .

فأوحت إلى هذه العبارات بنقيضها المؤلم ، حتى خلت أن أمام عينى ميزانا تتأرجح كفتاه بشيئين يكادان يتعادلان وإنه من المحتم أن أختار ما فى إحدى الكفتين . فنظرت إليها والغضب يلقى على المرئيات لونا داكنا فظيما حتى إذا ما وقع بصرى على صدرها تذكرت طفلا اتكب عليه عامين مستمدا منه الحياة .

فزايلت مجلسى فى قنوط وصمت وارتديت ملابسى فى سكون مطبق ألقى بجرانه على الغرفة حتى آضت أشبه بالقبر ، ثم صفقت الباب ورائى بعنف كاد يحطم البلور إلى حيث سرت أنقل خطواتى على البحر ويداى معقودتان إلى خلفى ورأسى ناكس وعيناى تسبقان مواقع أقدامى ، والخواطر تجرى حارة متدفقة سريعة لا يجمعها سلك ولاينظمها منطق كأنها فى رأس محموم !!

وفى الصباح التالى رأيتنى أنظر إلى المصاب على أنه أمر واقع ، وعلى أن دمعة واحدة تراق على فراق مثل هذه السيدة إنما هى نوع من الإسراف لا ينبغى أن يكون . ومر يوم ويوم وكانت إحدى الأمسيات فجلست

حيث كانت فى المرة السابقة وكنت أنانى مجاملى لأن الامتحان قريب . فتنحنحت عدة مرات أدركت فيها أنها ستستأنف القضية ، فنظرت فإذا بها تقول وعيناها فى غير اتجاهى :

ـ هل عندك الليلة استعداد للتحدث فى نفس الموضوع ؟

قلت على الفور ولكن بذلة :

ـ أليس من الممكن ارجاؤه سنة واحدة حتى نرى ما إذا كان فى مقدورى أن أحصل على شهادة الكفاءة ؟

فهزت رأسها معلنة أنها لم تفهم ما أريد ، فاستطردت موضحا :

ـ أقصد أنه إذا وفقت فى نيل الكفاءة استطعنا بها أن نستغنى عن تطلب العائل .

فشرعت ابتسامة صفراء تولد على فمها رويدا فلما تكاملت نطقت بعدم ثقتها بجهودى . فتضاءلت فى مجلسى حتى خلت المنضدة أطول قامة منى ولمت نفسى على تذلل لم ينتج سوى الذل . ثم ران عليها صمت جديد . ثم قالت أمى وهى تنقر بسبابتها على حافة الشباك .

ـ أنت لاتعرفه . إنه رجل طيب « عباس أفندى » مدرس الابتدائى الذى وافقت على عرضه لأننى رأيت فيه شريكا لا يتعب أحدنا . مابالك هكذا لا ترد بكلمة ؟! من زمان وأنت عنيد لكن هل تظن أن عنادك هذا يغير الموقف ؟!

ثم نهضت من فورها آخذة طريقها إلى المخدع .

***

أكسبتنى بقولها هذا عاملا جديدا من عوامل الشرود وأضافت بلبالا إلى بلبالى . غير أنى أصبحت فى مرحلة من إرهاف الحس وضعف النفس تغلبت فيها على الآلام ، فقد صرت فى شبه ذهول .

وهبت على روائح الصيف قابضة مخيفة تذكرنى بالمتاعب ، وبدأت حركة التحول تدب فى ركود البيت بحلول الخادمة « وهيبة » حلولا دائما بإذن الله . جاءت قبل سيدها لتخدم سيدتها ، أما القديمة التى فى « دمنهور » فلعل زوجها أهدى إليها خادما أخرى أو لعل إحدى بناتها ستتولى مرافق البيت .

وبيضت الشقة واختير لغرفة « نومنا » لون جديد مناسب وغسلت الأبواب وصقل زجاج النوافذ حتى نافذة المطبخ التى تراكم عليها هباب السنين واطمأنت فى ركنها العنكبوت . وتجددت بعض الحفة وحشايا واستبدلت ستائر بستائر وفرش فى حجرة نومنا بساط جديد أحمر ، وكان الإصلاح منصبا فى الغالب على حجرة النوم وعلى الملابس التى ستظهر بها « أم مختار » . أما بقية البيت فإن حظه من الإصلاح شكلى رخيص على هامش النفقات .

أحسست أن حالى آخذة فى التبدل واصبح هدوئى الشارد وطبعى البليد أقرب إلى العصبية حتى لحظت سكينة ذلك فى زوراتى المتباعدة . جعلت أنظر إلى الأرض على أنها دار ظلم وطغيان ليس فيها مجال للرحمة ولا مكان للتعاون . وكدت أعتقد أن الرحمة صدقة وأن الصدقة ليس لها إلا « اليد السفلى » واليد السفلى لمخلوق ضعيف ، والضعيف ليس له فى الزحام موضع . وارتحت إلى هذه الخواطر المزعجة لأنها احتلت آخر موقع فى قلبى كان يكمن فيه حسن الظن بالناس . فأصبحت أوقاتى موزعة بين الشاطىء والحقول . وبعدت فى جولاتى عن جنة عم خليل بمسافات طويلة حتى أدى بى الطواف إلى أرض تخالف فى طبيعتها الرقعة الخصبة السخية. كانت سبخة بخيلة لاتجود إلا بالإلحاح ، مزقتها مصارف التصفية كل ممزق وانكب فيها الفلاحون انكباب المحرومين يكادون يستحلفونها أن تنبت .

واتسقت هذه المناظر الجديدة مع تلكم الخواطر الجديدة فكانت إطارا مشوها غيرجميل لصورة تافهة قبيحة .

وآثرت ألا أدع منضدة الدرس فى حجرة نومنا القديمة فنقلتها بنفسى فى حجرة أخرى لأن المناظر من حولى كانت تثير فى قلبى نوازع الشر والبغض من كل مكمن . وألفيت الحجرة منسجمة فى كل ماتحتوى ، لونا وأثاثا وترتيبا وزينة إلا فى نقطة واحدة كانت بين أرجائها بموضع المخافة من البلد الحصين أو أشبه بالوسواس فى ليلة اللذة .. هذه هى الصورة المعلقة على الحائط التى لايزال خيالها منعكسا على المرآة . نظرت إليها وأنا أنقل المنضدة من تحت فكدت أرى ملامحها شيخوخة وغيرة بل خيل إلى أنها تقول : بنى . أخرجنى من هنا من فضلك !! ولكننى لم أفعل .

وألحت روائح الصيف فى الهبوب قابضة مخيفة تذكرنى بالمتاعب . ودخلت الامتحان ، ولكن دعنا الآن من النتيجة .. واقتربت عطلة الصيف وقد بدأها عباس أفندى قبل أن يبدأها المدرسون . وحددت ليلة اللقاء أعنى ليلة انتقاله إلى بيتنا السعيد فى الإسكندرية ، ولم يبق على ذلك سوى ليلة واحدة . رأيت أمى يومئذ شديدة الاضطراب يبدو عليها أنها مبتئسة وكانت كثيرة الجولان فى البيت كطبعها حين تعانى ثورة داخلية ، دخلت عليها المطبخ على حين بغتة فرأيتهاتبكى أمام موقد الجاز وكانت وهيبة فى الخارج، فعجبت . ثم أمسى المساء فدعتنى إلى حجرتنا التى ستستقل بها بعد ليلة واحدة . فدخلت . وكانت فى مكانها المألوف بجوار النافذة وهناك نسمات وانيات تلمس بأناملها حواشي ستار وردى جديد يرفرف أمام الزجاج . وفى سماء الحجرة مصباحان أحدهما عادي والثانى ركب ليسهر على النائمين . كانت شديدة الجهامة حين دخلت عليها تنطق أساريرها بالعنف والتصميم فتذكرت بكاءها فى المطبخ فأدركت أنه كان غبار المعركة الأخيرة بينها وبين

نفسها المنقسمة ، وأن عناصر الشر تغلبت بعد يقظة الموت التى مرت بعناصر الخير فى نفس العروس قالت آمرة :

ـ اجلس .

فقلت مسالما :

ـ إننى مشغول .

فقالت بسرعة :

ـ إنه خلاف مبكر ، إذن فماذا عسى أن تكون ادخرته للمستقبل الطويل !

فجلست بحركة آلية كأنما ضغطنى الكلام .ومرت فترة صمت كأنها دهر قالت بعدها :

ـ بعد الليلة المقبلة سيكون عددنا فى البيت أربع أنفس ، هل ترى من الضرورى أن أعد لك الأشخاص ؟!

فهززت رأسى مؤمنا إليها بأنه لاداعى ،ثم نظرت نحو الأرض وساد الصمت مرة أخرى وكان أشبه بصوت الفناء . ولم يجد أحد منها حيلة لأن يصل حبل الحديث فرأت أم مختار أن الأحجى بها أن تقول وهى تنظر إلى :

ـ خلاص !!

فقمت أتعثر فى كل ما فى طريقى وضلت يدى أكرة الباب لأن الدم كان فى عروقى شديد الحرارة وأكاد أجزم أن هذه الخطوات التى خطوتها خارجا من الغرفة كانت آخر عهدى بما فيها حتى آخر الحياة ، فإنى لم ألج بابها بعد ذلك .

قضيت فى غرفتى ساعة من الزمن حاملا رأسى بين كفى معتمدا بذراعى على منضدتى ناظرا من خلال الدموع إلى صفحة الكراسة المبسوطة التى تتراقص فيها الكلمات وتتعانق فيها السطور . فلما أفقت رأيت

الدموع وقد أتلفت كتابة الصفحة فقمت آخذا سمتى إلى دورة المياة لأصب على رأسى ماء باردا فالتقيت بأم مختار وجها لوجه وهى خارجة من حجرتها قاصدة حجرة الضيوف تهرول وهى تجتاز الصالة فى ثوب من الحرير طويل أخفى من عمرها عشر سنين . وكانت غير متسقة الحركات كأنها تهم بعمل غيرعادى . فلما عثر بها بصرى ألفيتها تحمل الصورة .. صورة الرجل الذى لم يعد لها فيه من أرب ، بل أمسى مما يعد فى العورات التى لايحسن أن تقع عليها النواظر ، وفهمت ما الذى تعنيه ، وسمعتها فى عودتى من المغتسل تدق فى الحائط مسمارا لتعلقها فيه ، فانتابنى شعور مبهم لم أتبين فيه راحة ولا ألما . لأننى ما كنت لأرضى أن تبقى صورة أبى فى أرض أصبحت غريبة ، وماكنت لأرتاح لمرآها وهى تجلى عن عش كان لصاحبها فيه ذكريات أى ذكريات

***

وتأهب بيتنا فى الإسكندرية تأهبا هادئا لايخلو من الحركة لاستقبال « عباس أفندى » الذى يصل اليوم فى قطار الظهر ليقيم عندنا إلى ما شاء الله ، وكانت « زينب » بهية الزينة فائضة الفتنة مرحة سعيدة ، لأنها رأت ثمرة جهادها الظافر . وكان هناك لحم وفطائر وعطر وزهر ولهو وبهجة ، وأشياء أخرى ولكننى لم أشأ أن أراها ففررت لأننى أيقنت أن قلبى لن يقوى على احتمالها كما لاتقوى قلوبنا على رؤية عزيز يجهزونه للدفن . فررت إلى العزبة بعد ارتفاع الضحى . ولعلى كنت بادى التعاسة إلى حد أن عم خليل سألنى عما بى فأجبته بأننى مريض من الجهد ، الذى ينوبنى بعد فراغى من الامتحان والاستعداد للامتحان . فصدق الرجل الطيب ، ودعا لى بالعافية.

ولم ألبث طويلا حتى استأذنت منه فى رحلة قصيرة بين الحقول . ثم سرت أضرب على غير هدى أنظر الدنيا بعينى شاب بدأ يفهم الورطة ، وإن

لم يبلغ بعد مبلغ الذين يوفقون إلى الحلول ، والتقيت بسكينة عائدة من العزبة تحمل على رأسها فى طرف الطرحة بعض مطالب البيت التى تشرى عادة من البدالين . ويلغ بى الشرود حد أننى كدت أمر فلا أراها ولا أحس أنها تبسم لى ، فاسترقفتنى بضحكة جميلة كانت بين أحزانى أشبه بالزهرة البرية فى زمرة الشوك على الترعة . فلما أفقت بادهتنى تسأل وهى تحملق فى وجهى مشفقة ذكرتنى الشفقة المفقودة فأثارت فى قلبى الأشجان .كانت تقول :

ـ أخى .. ماذا بك ؟

فتخلى عنى جلدى البليد ، واعترضت فى حلقى الغصة وتندت مقلتاى بالدموع ، فإذا بسكينة تسبقنى إلى ما كنت أحاول ألا أتورط فيه ، فتخلى السبيل لدمعتين كبيرتين التقتا على ذقنها من أسفل .

وخففت عنى دموعها بأكثر مما تخفف عنى دموعى ، فما أتفه هذه الحياة !! تلك التى تعيد اعتبارها المفقود إلى قلوبنا دمعة يبذلها من أجلنا إنسان !! أجل ما أتفهها !! وأحببت سكينة جدا فى هذه اللحظة ، ولعلى أقصد أن أقول : إننى أحببت الحياة وهممت أن أقدم على «عمل» . لكنها تلفتت على الطريق الخالى وقالت لى عيناها الصافيتان الصريحتان : لاتشوه جمال المنظر .. « ولو أن الطريق كان مقفرا » ، ثم أشرقت بسمتها من خلال جونا المعتم ، كما تتفتح الزهرة فى قر الشتاء : ثم سألتنى فى حنان مرة أخرى :

ـ إلى أين تقصد !

قلت :

ـ إلى نزهة قصيرة .

فاستطردت راجية :

ـ هل من الممكن الآن أن أعلم مابك .. أمريض أنت ؟

ولم يكن هناك مناص من الإجابة . فلما قلت : لا . هزت رأسها مستفهمة عن العلة وهى تستأنف السير فى طريقها إلى البيت ، فسرت بجوارها وأنا أقول لها :

ـ لست أنا مريضا ياسكينة ، بل هى أمى المريضة .

فقالت :

ـ لابأس عليها . ماذ يؤلمها ؟

فأجبتها :

ـ قلبها !!

فعادت تسأل فى اهتمام :

ـ جدا ؟!

قلت :

ـ جدا .

قالت :

ـ ليشفها الله !!

ولكن الدعاء كان أوانه قد فات !!

وطرقت باب شقتنا فى الإسكندرية قبل منتصف الليل بقليل طرقة رجل يحس وحشة الغربة وهو فى وطنه ، وكنت مشتاقا إلى معرفة من سيفتح ، ثم مالبث المصراع أن انفرج عن وجه وهيبة التى قامت تتعثر وتكاد تصطدم بكل مافى طريقها من أثر النوم والجهد طول النهار، ثم تركتنى أعيد إقفال الباب ، وفرت نحو مضجعها فى المطبخ قبل أن تذب فى نومها اليقظة ، ثم دخلت أنا إلى غرفة نوم جديدة .

خيل إلى ليلتذاك أن بيتنا مزدحم بالناس ، وأن رجالا غرباء كثيرين

يتمددون فى كل شبر فيه . وكان الظلام مطبقا على كل حجراته إلا واحدة منها ، لكننى على الرغم من إحساسى بزحمته أحسست كذلك معنى يتنافى مع الزحمة .. أحسست سكونا ووحشة وخلاء ، حتى لكأن الدنيا لم يعد فيها ديار ولانافخ نار ، وانتبهت إلى المنبه يدق ، وسرت دقاته المعدنية فى هجمة الليل ، فشعرت كأنى أحسها للمرة الأولى .. وأدركت معنى المسئولية التى حملتها هذه الأداة .. أدركت أنها مسئولة عن يقظتى ورقادى منذ هذه الليلة . وخلعت ثيابى مجهدا متهالكا أرمى بكل قطعة فى ركن ، لأنى متلهف إلى أن أنام .

كنت مرهق الجسم ملتهب القدمين موجع الظهر مهيض القلب مثخن العواطف بجراح بليغة ، وكنت فوق ذلك كله أريد أن أنام ، فلما تمددت على الفرش الجديد جعلت أفكر فى الفراش الجديد ، فطار النوم عن أجفانى وحل محله أرق ساهر ، أدارت يده مغزل الأفكار حتى مد فى خيوط الهموم فتمنيت أشياء كثيرة ربما كان هذيان المحمومين أدنى منها إلى دنيا الحقائق ؛ وكان أطرف ماتمنيت فى هذا الظلام أن يتخاصم كل زوجين على رقعة الأرض ، فيدير كل ظهره للآخر ، فيختلف الشريكان ويتنافر القلبان ، وتسرى العداوة والبغضاء بين الذكر والأنثى ، وتمنيت أن يبقى التدابر والتقاطع بعد ذلك إلى ما شاء الله ، حتى تهلك الأرض بالفناء البطىء .

ثم ابتسمت من طرافة الأفكار وقدرتى على الابتكار ، وأعدت فحص الموضوع فأيقنت أن الجزع غيرمفيد ، وأن الذى وقع قد وقع وانتهى كل شىء !! فشرعت أتملق النوم ، وبذلت فى هذه الغاية كل تجربة وصل إليها المؤرقون فى ليلة ما ، ثم قصوا خبرها على الناس : احتلت عليه بإعراضى عنه كما أشاروا ، فما زاه النوم إلا إعراضا . ثم أسبلت أجفانى وتهيأت له، ولكن طائره لج فى النفور فتصورت ـ وهذا غريب ـ أننى واقف على باب حظيرة

أدخل وزا لا ينتهى عدده ، يؤلف سربا طويلا يتهادى نحو الباب ، بحيث تتبع البيضاء منه وزة سوداء ، وتتبع السوداء منه وزة بيضاء ، وهكذا وهكذا !! ولكن فشلت الحيلة . ثم نشبت بينى وبين الأفكار معركة جديدة ، لاأدرى كيف انتهت بالنوم .

وعند ارتفاع الضحى طرقت وهيبة باب غرفتى ، فلما أذنت لها بالدخول قالت بعد تحية الصباح :

ـ هل يريد سيدى طعامه الآن ؟

فأومأت بالإيجاب .وخرجت بعدها إلى دورة المياه أتنحنح كلما خطوت لأشعر من هناك بأننى هنا !! وكان بدافع من الفطرة . على أننى كنت مشغولا بتدبر « تسويد » وهيبة لشخص مثلى ، تقول له « سيدى » فما أعجب ذلك !! عبيد يسودون عبيدا وكلهم أذلاء !! وكان الفطور شهيا سخيا ، لكننى نفرت من ألوانه إلا ما ألفت أن أطعمه كل صباح من جبن وفول ، فلم تطاوعنى نفسى أن أمد يدى إلى لون من الألوان التى دخلت بيتنا مع المناسبة السعيدة ، فلا تستسخف تصرفى يا صديقى لأنها الأنفة ، وإن الأحداث التى تهزم ضعفنا بقوتها ، لاتستطيع أن تقبل فيها الأنفة بسهولة حتى ولو كنا فى الحضيض .

لم ألتق مع أحدهما لعدة أيام ، وطبيعى كذلك أننى لم أجلس معهما إلى مائدة لأن الطعام كان يدخل إليهما فى المخدع شأن كثير من الناس فى شهر العسل . ولم أكن أعنى مطلقا أن تلتقى نظراتى بنظرات أحد العروسين، بل كنت مهتما بهذا المأزق أفكر فيه بغم شديد ، وإن كان كالموت لامفر منه ولامحيص . وقد طالما ساءلت نفسى كلما لج بى الفكر عن التحية التى ينبغى أن أحيى بها إذا ما حم اللقاء . لكن أم مختار طرقت على الباب فى ضحى أظنه الخامس وأطلت من الفرجة قائلة بلهجة مرتبة سريعة :

ـ هيه .. صباح الخير . هل تريد شيئا ؟

ولم تعطني فرصة للرد لأنها ردت الباب وتراجعت إلى الصالة حيث سمعت صوتها العالي يهتف :

ـ اذهبي فانظري ماذا يريد سيدك الصغير يا وهيبة .

كنت أريد أن ارتاح من هذا العناء الذي ابتلتني به الأيام ولكن الأيام كانت تقذف بي من محنة إلى محنة وتنصب في طريقي عثرات كانت جديرة بجبل كامل . وإلافمن أين جاءنا عباس أفندي هذا ؟ ولماذا عن له في سنته تلك أن يقفل بابه من جديد على زوجة حسناء ويرقب السماء مرة أخرى عسى أن يمن الله عليه بغلام ؟اوأين كانت زينب قبل هذه السنوات ؟ ولماذا طفت على صفحة وجودنا على هذه الصورة واستولت على أمي كل هذا الاستيلاء ! كل ذلك كنت أنا المقصود به فالخير الذي في طياته لم يصبني منه رشاش وإنما أصابني الشر وحده . انصبت على سياطه وأطبق على قتامة وتظاهرت قوة الأقدار على مخلوق منهار ضعيف فهل تتصور ؟!

في البيت ..

حجرتان متقابلتان إحداهما إلى اليمين يسكنها أمن وسكون ولذة ودعة وأحلام وراحة وثقة بالمستقبل . والأخرى إلى اليسار فيها فرد غير ساكن يكاد القلق الذي تغلغل في قلبه يسري إلى تلافيف حشاه وإن بدا هادىء النفس ساكن الريح !!

وفي المدرسة .

أذهب في إحدى الضحوات فأرى الورقة البيضاء معلقة على السبورة السوداء ، وأطالع الأسماء فأخرج جارا ذيول الخيبة مستشعرا أن كل مابيني وبين النجاح قد تقطعت أسبابه فلا أمل ولا رجاء . ثم تمضي فترة أسف قصيرة المدى أهنىء نفسي بعدها بأني من الذين سيدخلون الملحق !! ولم لا

أهنىء نفسى وهنالك طائفة من التلاميذ ستحرم من دخول هذا الامتحان ؟!
ثم انطوى على همى عدة أيام لاأصارح أمى فيها بشىء . على أنه خيل إلى في كثير من اللحظات أن نظراتها تسألنى . ولعلها كانت حريصة فى شهر عسلها على أن تتجنب مآسى الناس حتى ولو كانت مـأساة ابنها ، ومن يدرى ؟ لعلها فلسفت موقفها بعد ذلك وصبته فى قالب أفلاطونى بديع فقالت بينها وبين نفسها : إننى الآن حرة . إن لى شريكا من حقه على أن يرى منى كل مايسر ، إذن فلا داعى أن أنغص عليه راحته ولا أن أقطع عليه أحلامه !! ربما قالت أم مختار بينها وبين نفسها شيئا من هذا ففتحت لنفسها أبواب الملذات وهى مختبئة وراء غيرها من الناس .

وكانت طوال هذه الفترة أشبه ماتكون بعربة الترمس فى يوم صيف شديد قائظ . ولعلك تدرك الآن ما الذى أعنيه . لم تقع عينى مرة واحدة على شبحها فرأيتها « جافة » من الماء بل كانت على الدوام « مبلولة » فذكرتنى بعربة الترمس التى لايكف صاحبها عن صب الماء عليها لحظة وإلا فقدت بهجتها فى العيون !! وأنى لى بعد ذلك أن أبث هذه المرأة شيئا من متاعبى وآلامى ؟! إن آلامنا عزيزة علينا نتخير لها المكان الذى نحفظها فيه . حقيقة إننا نكره الآلام ونرجو أبدا أن نتخلص منها ولكننا لاننشرها بين يدى كل إنسان .

وقد عرفت الآن ماذا فى بيتنا . وماذا فى المدرسة . أما عزبة خورشيد فقد كان فيها وحشة وسكون أكثر من المألوف : الحقول نائمة والأشجار مطرقة والنخل ساجى السعف والطير ممسكة عن التغريد والماء متمدد فى الأخاديد راقد لا يتحرك كأنه مكدود . هذا هو مارأيته وحدى دون خلق الله جميعا لأن سكينة كانت غائبة . كانت هنالك فى مركز الدلنجات عند أختها العدوية ولعلها يوم سافرت لم تشعر أنها تركتنى « وحدى » وأن وحشة

كبرى أناخت على الدنيا كتلك التى تنيخ على الطفل فى الحجرة ساعة تخرج أمه لقضاء أمر وتأخذ المصباح فيسودها ظلام . أجل ، لعلها يوم سافرت لم تحس أنني « وحدى » !! وترددت على العزبة على الرغم من غيابها حتى لاأفتح طريق الشكوك أمام أسرة عم خليل . تلك التى كان الحب طابعها والبراءة أجلى صفاتها ، والتى لم تعد تطيق أن أغيب عنهم بعد هذه العشرة الطويلة .

وامتد بقاء سكينة عند أختها ثلاثة أسابيع لأن بها ضعفا من آثار الولادة يستلزم إقامة الأخت حتى يزول ثم تعود .. ولست بحاجة إلى أن أقول لك : إن الشمس لم تشرق على الدنيا إلا منذ عودتها ، ولا أن أقول : إن عيوننا تفاهمت على أن الفرقة شيء فظيع لسنا ندرى كيف يحتمله الناس إذا ما رمتهم به الأيام . ثم تنهدنا معا لأننا لم نكن على انفراد متفقين بما بعثنا من زفرة على أن نترك المصير لمن بيده كل مصير .

— ٦ —

خففت عنى الأيام من لأوائها شيئا ما هذا الخريف ، لأننى نجحت فى الامتحان ونقلت إلى السنة الثالثة . على أن مرافقى قد دب فيها الفساد حتى أحسست كأننى محصور يكاد زاده ينفد فيمسى مهددا بالموت .

وفحوى ذلك أننى سمعت همسا سرى مع نسيم الأصيل إلى أذنى من فم زوجة « عم خليل » مؤداه أن سكينتعلي وشك أن تخطب ، لأن الأيام التى قضتها عند العدوية فى الدلنجات تمخضت عن إعجاب أحد الشبان بها وهو من أقارب صهرهم القديم . ثم علقت الأم على خبرها بنفسها بعد أن صمتت برهة وبدأت تعمل المخرطة فى أوراق الملوخية التى فرغت من قطفها .

علقت قائلة :

ـ إن سكرة جديرة بكل سعادة . بنت حلال . عجل الله لها بالخير !!

ما كان أشبهها وهي تدعو لها بإنسان يدعو لأحد الأبناء بأن يرث مال أبيه بعد بضعة أيام ، لأن معنى هذا الدعاء أن يفقد الابن أباه في فرصة قريبة . خير مغلف بالشر ، أو شر مغلف بالخير ، ونعمة في طي نقمة . إن أم سكينة كانت تبتهل إلى الله في ذلك الأصيل وهي لاتشعر ـ بأن يشتت شملي وينثر دمعي ويقوض حصني ويجعل ما بيني وبين الناس خرابا يبابا لا أثر فيه لحب ولا رحمة !!

ولما تدبرت الأمر لم أطق البقاء في مزرعتهم تلك فهمت على وجهي بين الحقول وفي الطرقات المتعرجة التي أحال ماء الفيضان ترابها طينا ، وجعلت أفكر فيما عساي أن أفعل فدلتني حيرتي واضطراب حالي على أن أتقدم إلى عم خليل طالبا يد سكينة ، وأمسكت الفكرة بتلابيبي فلم تعد تفلتني ثم طفقت أناقش الموضوع .

ما الذي يجري إذا ما فعلتها ؟! ألسنا نطلب الوفاء والحب والإخلاص ومعاني الرضا والألفة؟! أليس ذلك خيرا من ندم مقبل وبكاء بعد فوات الأوان !! ماذا بقي للزوجة بعد ذلك من صفات محبوبة ؟! يقولون : الأصل والمحتد !! نعم يقولون ذلك ! ألاليتهم يفسرون لي هذه الأحجية فإنني عاجز عن فهمها !!

وجلست القرفصاء على أحد المصارف أرقب نبات البرنوف النامي في حضن الشط منحنيا على مائه الآجن ثم استأنفت قضية الخطبة في خاطري وتصورت حالتي وأنا أعرضها على أم مختار ثم تخيلت ذهولها ، فضحكت، ثم عدت فتخيلت سخريتها فبكيت !! وجففت دمعي بمنديلي وجعلت أتسلى بعد ذلك بإلقاء الحصا الصغير على صفحة الماء الراكد .

ساءلت سكينة في الموضوع بعد ذلك بأيام فهمست إلي وقد ارقت ظلال أهدابها على وجهها المشبوب :

ــ لا .. كلام نسوان .. دعك من هذا .. لا تخلق لنفسك المتاعب .

ثم لم تنظر إلي بعد مقالها هذا ولعلها كانت تعلم حقيقة ما يضطرم به قلبي ومايتقاذفني من خواطر ، فلذ لي من بعهدها أن أعيش في المجهول وأن أنفق من دراهمي المحدودة إنفاق إسراف وترفيه وأنا متغاض عن النهاية . فضلا على أن عقارب الريبة دبت في كياني من مقالة زوجة « عم خليل » لأني أعتبرها في لحظة من لحظات حرصي على شخص « سكينة » إيماءة خفيفة أوحى بها قلب أم كي تهيىء لبنتها حياة زوجية .

ولعله يبدو لك أن تعود فتسألني : إنك لم تبين حقيقة نيتك حيال سكينة .. هل ترتضيها زوجة ؟! فأقول لك : إنني أراها خيرا مني . هل تعرف من أنا ؟ أنا ابن أحد التجار القدامى المفلسين الذين ختموا حياتهم سماسرة يعتصرون الجلمود ويمسحون لغيرهم ضروع السوق . وابن أم ألحت على القوي حتى تهدم ولم تصبر على الضعيف حتى يقوى فلجأت آخر المطاف إلى سوق السمسرة كما لجأ أبي من قبل حتى باعت بواسطة زينب فضلة شبابها لرجل . هو رب أسرة !! أما أنا .. شخصيا فقد قصصت عليك أمر نفسي : إنسان لامواهب فيه ، تختطفه ريح من ريح وتهديه زوبعة إلى زوبعة !! فكيف أرى سكينة أقل مني ؟! ليتنا جميعا نتدبر حقائق أنفسنا ؟؟

وخفت من بيتنا حدة الأفراح في بدء العام الدراسي الذي انتقل فيه « عمي » عباس أفندي إلى مدارس مدينتنا الكبيرة فأصبح من المقيمين على أن يسافر عصر كل أربعاء إلى دمنهور ويعود مساء الجمعة . وقد تفضل عليه الناظر فأخلاه من حصص يوم الخميس . وتلك خطة عادلة لجأ إليها عباس أفندي بعد شهر واحد من زواجه وأقرتها أم مختار.

ثم أخذ الزمان يمشى فى طريقه المرسوم فتداركت الأيام وتتابعت الشهور ، وجدت أمور فى نطاق حياتنا واتضحت وأخذت أمور أخرى ترجع وتتوارى ، وتلك هى سمة الحياة :

كان منها مايتعلق بالست زينب ، ومنها مايتعلق بالزوجين ، ومنها مايتعلق بوهيبة .

أما زينب فإنى صرت أذكر الحوت كلمارأيتها لأنها طويلة النفس واسعة الجوف ، كل شىء فيها قوى حتى ولو كان ذنبا . نفت أم نعمات من نطاق حياتنا فلم نعد نراها .. ثم ماذا ؟ ثم ابتلعت شخصية أم مختار منفردة . ثم عادت فابتلعتها « مطبوخة » مع شخصية زوجها . أى أنها تذوقتها مطهوة على ألوان كأنها طبخة سمك !! ومدلول هذا أنها سيطرت على البيت ووضعت يدها على كل مشكلاته حتى ماكان منها متعلقا بالزوجين .

أما العروسان القديمان فقد أصبحا زوجين . وخرجا إلى الحياة فلم يعد طعامهما يدخل المخدع . وبدأت عربة الترمس تخف عنها البلولة كما بدا لها فى كثير أن تظهر بمظهر المتشبثة بأذيال زوجها ، ولعل مرجع هذا إلى ماضيها العاصف مع والدى الطيب . كنا نجلس إلى المائدة نحن الثلاثة فإذا بأم مختار تنساق وراء عواطفها فتنتقى الطعام على مرأى منى وتقدمه لعباس أفندى فما يكون منه إلا أن يقول : دعينى ، فكل شىء أمامى ، أو يقول : هى لك هنيئا مريئا . كل ذلك وهو مكب على طبقه حتى يكاد ذقنه يلمس حافة الإناء . ولكن أم مختار يتبوع الحنان الدافق لا يعجبها تصرف الزوج ، فتسارع مقسمة عليه داعية على نفسها لتحرضه على الطعام : « لاهضمها من أكلها غيرك »تقول هذا له ، فأقول أنا فى نفسى : « ولاهو يارب » . أو تقول أم مختار : فقدتنى الليلة وأغمضت عينى بيدك إغماضة

الموت إن رددت يدى . فأقول فى نفسى « اللهم استجب على أى حال » .
ولكن هذه الحيل كانت تؤتى ثمرتها فيأخذ منها ماتشاء حتى يرى وهو يأكل بكلتا يديه وذقنه يكاد يلمس حافة الطبق .

ثم تحولت حياتهما بعد ذلك نوعا فلم تعد حبا خالصا ولا أكلا خالصا لا يشوبه شيء ، هبت عليها ريح الخلاف ، وإن كان خلافا غيرطائل ولعل سببه الليالى التى يبيتها فى دمنهور ، فى بيته العتيق الذى تمرد عليه بعد أن صب فيه تجارب شبابه خمسة وعشرين ربيعا . وكانت زينب إذا مانشب الخلاف بالنسبة إليهم محكمة عامة من كل درجة يبدأ الحكم فيها ويستأنف وينقض ويبرم ويشمل من وقت صدوره بالنفاذ .

وقد كنت أستشعر الشماتة إذا ماساعدتنى الفرصة وشممت فى بيتنا روائح التنافر . كادوا يخلقون منى شريرا يضحك من دموع الناس ويتربص بهم الدوائر ، وهذا كله ليس من صميم طباعى ، وتضاعفت كراهيتى لزينب وودت أن تغيب هذه الوصية عن الزوجين حتى أرى هل يقدر زورقهم على أن يعود ؟ على أن أمى بدت متشبثة بحياتها الجديدة كما قد علمت . ولكنك لا تعلم مدى عجبى حين أجلس مرة أمام عباس أفندى فى حجرة الضيوف بسبب ما ، فأراه قد اقتعد كرسيا تحت الصورة .. صورة أبى ، فآخذ فى نقلة طرفى بين ملامح الرجلين لأوازن بين خلق الله في الوجهين .. ثم .. ثم أستغفر الله . ثم ألح على نفسى سائلا إياها : ما الذى يعجب هذه المرأة فى هذا الرجل ؟! فحين أعيا بالجواب أتهم عقلى وأسفه أفكارى وألتمس لها العذر بما يكمن فى طبائعنا من حرصنا على التافة بعد تفريطنا فى الثمين حتى تضيع الفرصة ، كما يتشبث الملاح بلوح من سفينته الغارقة التى أضاعها الإهمال .

أما وهيبة فقد حاولت أن تبسط على من حبها جناحا . لم تكن جميلة

لكنها كانت أنثى . وأشد الأعضاء أنوثة فيها هو قلبها النسوى . كانت تشارك كل دامع بدمعة ، وتشارك كل زافر بزفرة حتى ولو لم تكن تعرفه . تبكى لكل متألم . وقد طالما تمنيت بعد أن تعمقت نفسها أن يمن الله عليها بالفرصة التى تخلق منها أما !! آه .. ما أجدر نفس هذه المخلوقة بأن تكون أما لألف مولود ! وكم كنت أخاف عليها حنانها هذا ، لأن كثرة الحنان توجب كثرة الثقة والثقة الواسعة خطر على الفتيات ، إذا كن غير واسمات التجارب !!

وإخال أن المدة التى أقمتها فى بيت أبى بعد زواج أم مختار لم تكن لتطول إلى ذلك المدى لو أن وهيبة لم تكن فيه ، وأستطيع أن أؤكد أنها أحبتنى .

أظنها أول الأمر عطفت على ضراتى وبلواى حين رأتنى غريبا فى أرض وطنى ، وآية ذلك أننى كنت فى حجرتى ساعة الظهيرة يوم رسبت فى الامتحان جالسا إلى منضدتى أفكر وأدبر ، فلما استعرضت مأساة حياتى لم يقو قلبى المهيض فى هذه الساعة على استعادة الأحداث فجهشت بالبكاء ـ وقلما كنت أفعل ـ قلت فى نفسى وأنا أبكى : ابك يا مختار حتى يكف الباكون جميعا على الأرض ، وأؤكد لك أنه ما من يد ستمتد لتمسح هاتيك الدموع ! ومد هذا الخاطر نبع دموعى فجاشت نفسى حتى ضاق صدرى بالشهقات ، وفزعت إذ أحسست أن صدر امرأة يضغط ظهرى من الخلف ، وأن ذراعين عاريتين تلمسان عنقى من الجانبين ، وكفين تحدقان بوجهى على الصدغين وترفعانه إلى الوراء ، ثم قبلة أحسست فيها الرحمة قبل أن أحس فيها شيئا آخر تقع على خدى . ثم رأيت من خلال الدموع وجه وهيبة التى دخلت على وأنا شبه غائب ، وكان فزعا حزينا متلهفا يكاد ينطق بالفداء . قلت بينى وبين نفسى : تلك هى أطواق الفلين التى تلقى بها المناذير للغرقى

والمتعبين .. إلى أن تدركهم عناية الله .

لكن العطف على الضراء مفتاح يدار في أقفال القلوب ، فلايلبث أن يفتحها . فقد بدت وهيبة بعد ذلك معنية بكل شئوني تقول : نعم ، حين أهم بندائها حتى يختلط ردها على بالأحرف الأخيرة من اسمها وأنا أناديها . ترتب حجرتي وتذكرني بيوم الامتحان ، وتنذر وتبشر إذا أهملت صحتي أو اعتنيت بها . وقد تحول بيني وبين أن أضبط المنبه على ساعة من ساعات الليل ، لأنها كفيلة بأن تدق على الباب ، وكما نستنبط برتقالا من نارنج وورداً من نسرين نستنبط حبا من حنان ، وهكذا ـ كما تدعوني على الرغم مني ـ وقفت فيه حيالها موقف رجل نقم على الناس أنهم بثوا في طريقه المآسي وهو ضعيف فحنا على الضعفاء فلم يرم في طريقهم بمأساة !!

اللهم إلا اللمم . وقد كنت في الجانب « السالب »

طرقت على الباب بنقرة خفيفة والليل ساكن والكون يصب في آذان الساهرين حديثا يطير النوم ـ لأننا في الربيع ـ واستيقظت على الطرقة في ظلام الغرفة فقلت :

ـ من ؟

وكانت واقفة في فرجة الباب بثوب أبيض ، فإذا بها ترد بصوت خافض تهز نبراته رعشة خفيفة تخلت عنها الإرادة :

ـ كأنك تنادي يا سيدي .. هل تريدني ؟!

فتنهدت . وأجبتها في حزم حركته الشفقة :

ـ لعلك تحلمين .. اذهبي فنامي .

فأقفلت الباب .

ثم مرة أخرى ..

من طبعي دائما إن قمت في الليل أن أتسلل إلى دورة المياه في صمت

لأقضى حاجتى ثم أعود ، إلا فى حالة واحدة ، هى إذا مارجحت أن عباس أفندى مستيقظ فى غرفته . وأعرف ذلك بانقطاع شخيره الغليظ العالى الذى يصك سمعى بعد فتح بابى مباشرة وقبل أن أخطو إلى الصالة . فإذا سمعت شخيره تسللت مباشرة إلى دورة المياه فى صمت ثم عدت . أما إذا رأيت السكون مطبقا عميقا لايشوبه شخير فإنى أرجح أن عباس أفندى غيرنائم لذلك أرانى مضطرا إلى أن أتنحنح أو أسعل وأجر القبقاب على البلاط لأسمع من هناك أنى هنا !!

هذه هى قاعدتى التى لاتتخلف وقد حدث أن فتحت باب غرفتى فرأيت السكون مطبقا عميقا لايشوبه شخير ففهمت أن آتى بحركاتى المألوفة لكننى أمسكت وكففت فجأة لأننى رأيت وهيبة فى ظلام الصالة الذى لم يكن حالكا لمصباح فى المطبخ يرمى على أرض الصالة بنور هزيل حائل لكنه على كل حال ساعد بصرى على أن يرى وهيبة . ولما سمعت فتحة بابى خطت بسرعة إلى مدخل الدورة وهو قريب ، مرجحة أننى لم أرها لأن الفرصة لم تكن كافية .. ورفت فى الحركة كما يرف الخيال لأنها حافية القدمين قريبة من الباب . وتسللت ساكنا إلى دورة المياه لأننى أدركت ماتبتغيه من وقفتها تلك ، فإذا بها تعترض طريقى بوجه هائج متغير الملامح وتطوقنى بذراعيها فى عنف ، وتقف على أطراف أصابعها لتنال فمى بقبلة حارة . وتركتها تفعل حتى أنهت قبلتها على أكمل وجه ثم انتظرت منى الخطوة التالية فرفعت يديها عن كتفى برفق بالغ وتراجعت إلى الوراء وأنا أهمس فى أذنها بكلام لكى تستفيق .

ماذا أعمل ؟ لقد تركتنى أم مختار ألتمس الأعذار لكل من زلت به قدم ، لأن فعلتها المشروعة لم تكن مشروعة فى خاطرى ، ولأنها تطالع فى مخدعها وجها أستغفر الله كلما تأملته . أما وهيبة فإنها لاتعدم عذرا لأن

ملامحي وشبابي ربما أنستها مايجب حين تسطو برأسها حميا الشباب في ساعة من ساعات الليل .

ولعلك لاتسخر مني حين أعترف لك أنني جد حريص على بقائها في المنزل . كان قلبها في الإسكندرية وقلب سكينة في عزبة خورشيد دليلا في نظري على أن أرض الله لم تفتقر بعد من الحنان . وفضلا على ذلك فإنها تغدق على من خدماتها وتنقل إلى ماتحاول أم مختار أن تخفيه عني من حوادث ربما كنت صاحب شأن فيها ، وبذلك رأيتني أحيا في النور .

ثم لعلك تحب أن تعرف مدى علاقة عم عباس بحياتي العلمية . فأقول لك : إن الموقعة الأولى بيني وبينه كانت هي الحاسمة يوم دخل على غرفتي ونصحني بالمثابرة والجد ثم استطرد في قوله حتى وازن بين جهدي وجهد إحدى بناته فانتفضت واقفا وأنا ألهث وعضلاتي متصلبة توحي بعمل سريع وهو رجل قصير ذو كرش لايقوى على العراك وهو ـ بعد له من الذرية ماهم في حاجة إلى نصحه واشرافه ، فقنع بهذه التجربة وفر من بين يدي إلى «النقطة» الوحيدة المخصبة التي فتنته في بيتنا ، ولم يعاود هذه التجربة مرة أخرى . غير أن الحادث ألقى في قلبه بذور البغضاء فكن لي قدرا لمحت دلالته على وجهه القبيح . ولعله كان أكثر من أم مختارمراقبة لحالي إذا ما اجتمعنا على مائدة الطعام . لأنها هي التي كانت تشغل نفسها به أما هو فقد كان يشغل نفسه بي ، فيرسل إلى لحظة خاطفة سريعة تومض بها عيناه ليقرأ وجهي حين تغريه أم مختار بالطعام داعية على نفسها أو مقسمة عليه . يفعل ذلك فلا يرى على قسماتي إلا السخط والبغض والإنكار .

وتطورت الحال بيني وبينه ـ وإن كتم كل منا ما عجت به نفسه ـ في عصر يوم من الأيام حين دخلت عليه حجرة الأضياف لأسلم على بعض عارفيه الذين سألوا عني فسمعت من أحدهم كلمة نابية ـ كنت لابسا حذاء

الكاوتش ، فلم يسمعوا وقع خطواته ، وكان عم عباس جالسا تحت صورة أبي بالضبط لاويا عنقه إليها مانحا ظهره للباب الذى جلس قبالته . أما الضيف الثانى الذى لم يكن وحده ، بل كان مع ثالث ورابع ، فإننى سمعته عند مدخلى يقول :

ــ أهذه صورة الخيال القديم ؟!

فلوى عم عباس عنقه لينظر إلى الصورة وهو يقول :

ــ أى نعم .

ورآنى أحدهم داخلا فمصمص بشفته مستنكرا لافتا نظر الغافلين الذين يخوضون فى أمر يخص الداخل . وتثلجت أطرافى وكدت أتعثر فى غير شىء فأقع على الأرض ولكننى تماسكت وسلمت وانصرفت وأنا أحس وقع سخرية على قلبى ، وأتخيل أن أبى أغضى حين سمع هذا الهراء .

ومنذ ذلك اليوم أخذت كراهيتى لعم عباس تنمو وتزدهر ، ولعلى قد نسيت هذا الحادث مع الأيام ، ولكن أم مختارنفسها هى التى عادت فأثارته بطريقة مزعجة وشكل بغيض .

نظرت ذات يوم فإذا بصورة أبى معلقة فى الصالة ، فوق الكنبة التى كانت أسرة عم عباس تستريح عليها عام نزلوا عندنا مصيفين ، عند ذلك لم أصبر على ألا أسأل أم مختار عن حقيقة الحادث ، فانتهزت فرصة سانحة وجابهتها بالسؤال ، وكنت أتحدث بحدة نوعية وغضب يبين على ملامح وجهى ، ولكنها امرأة لاتخاف ، خصوصا منى ، لثقتها أننى فى حاجة إليها ، ولعدم معرفتى ماذا تركه أبى من مال معرفة واضحة ، فهى تستطيع أن تدعى أنها تتسول من أجلى منذ سنوات ويصدقها الناس . لذلك لم تكن تخشانى . فلما واجهتها بالسؤال واجهتنى بنظرة قاسية منذرة مخيفة ، قالت بعدها وهى فى المطبخ تقلب عصير الطماطم فى السمن وتسبكه على النار:

انقطع خيطها فسقطت على الكرسي ، فنقلتها هناك . :أليس ذلك أكرم !!
ثم استوفزت كليلة كانت تحدثني عن زواجها حتى خلت أن أمامي هرة يقف بدنها كله بكل شعرة فيه . فآثرت أن أنهي الموقف ، وأن أسدل الستار على الموضوع . ثم اختليت بوهيبة بعد هذا وسألتها عن الأمر، فأكدت لي حقيقة ماقصته على أم مختار من أن حبل الصورة قد وهى وانقطع فسقطت على الكرسي منكفئة على وجهها « كما يحدث للأطفال أول مايتعلمون الجلوس»، ورأيت مخايل الكذب تغدو وتروح في عينها الحولاء ، ولكنني فضلته على الحقيقة وآثرت أن أعيش فيه .

ورأيت الرجل القديم بعيني رأسي وهو يجلي عن « الموقف الثاني » ثم أخذتني لمحة شعرية ، فجعلت أعلل انقطاع الخيط ، إن صح الخبر ، فعللته بأن الهموم ثقلت على الصورة فسقطت تحتها لاهثة بسبب « أم مختار» كما قد حدث لصاحبها في الحياة .. ليرحمه الله !!

***

كانت وهيبة تنقل إلي من شجارهما مالاتسمح الظروف لي أن أعاينه ، وخيل إلي أن أمي كانت حريصة على ألا أقف من حياتها على مكروه .. تماما ، كما نلعق جراحنا في صمت ونصبر حتى لايرى ما بنا الشامتون . وكنت أحب « عباس أفندي » جدا حين يهدي إليها شتمة أو إهانة ، وأرى فيه قوة مسخرة سلطتها الأقدار على امرأة تعلقت بالرجال ، فلطمت من أجلهم أعز الذكريات بين حية وغير حية ، وكثيرا ماوددت أن يستشري الخلاف حتى أرى على وجهها طابع المهانة .

لست أذكر فيم اجتمعنا نحن الثلاثة ليلتئذ ، ولكنني أذكر أننا كنا جالسين في الصالة ، وكانت رطوبة الشتاء مسيطرة على جو الإسكندرية ، حتى خلنا أننا نتنفس ماء خالصا . وأثر هذا الجو الجديد على خياشيم « عم

عباس » تأثيرا سيئا جعله ينفخ الهواء من أنفه فى فترات متقاربة منتظمة كأنه مدخنة بخارية صوتها مكتوم ، ثم اكتسحته نوبة من العطاس دمعت لها عيناه واحتقن بها وجهه وتلف منها منديلة ، ثم شرع يشهق متملقا العطسة لعلها تأتيه وهى لاتواتيه ، فبرقت عيناى بضحك اجتهدت فى مغالبته وفطنت أمى لذلك فأرادت أن تصرفنى عن الموضوع حتى يذهب انفعالى فقالت لزوجها :

ـ يظهر أن الأمر أصبح فى حاجة إلى استشارة طبيب .

فعلقت على حديثها لأنسى تقلقل أحشائى من الضحك المكتوم :

ـ نعم فى حاجة قصوى ، فإن الأغشية المخاطية تعانى الآن التهابا عنيفا .

فرد عم عباس بصوت أخن يطفح بسخرية شديدة :

ـ حقيقة ؟ . هل ترى الأمر كذلك يا دكتور ؟

ففهمت ما الذى يعنيه ، وأيقنت أنه يعيرنى بإخفاقى تعبيرا غير مباشر ، فثرت ورأيت الرجولة تقتضينى أن أرد له اللطمة ، فسارعت قائلا بلهجة واضحة صريحة :

ـ نعم يا سيدى هو كذلك .. وآية ذلك أنك تقلق سكون الليل بشخيرك الغليظ .

ففغر فاه من المفاجأة وحملقت أم مختار بعينين جامدتين ، أما أنا فلم تعد بى حاجة إلى أن أبقى مكانى ، فلممت شمل أعصابى وتحولت عن مجلسهم خارجا إلى الخلاء الطليق .

وسرعان ما انقضى العام ودخلت امتحان الكفاءة وأخفقت بحمد الله فى الدورين إخفاقا ذريعا ، لأن وزارة المعارف فى تلكم الأعوام شاءت ذلك، وتحالفت مع الزمان ضدى أنا شخصيا ، هل تدرى كيف ؟! قررت أن

يكون الإمتحان فى مقرر السنوات الثلاث التى ذرفنا فى سبيل انتقالنا منها دموعا كثيرة ، كأنما أرادت لأمثالى من الطلاب أن نبكى جملة وتجزئة وأن يحال بيننا وبين الحياة باسم النجاح والرسوب .

وكان أجمل ما فى رسوبى أن أحدا من الزوجين لم يقل لى كلمة أشم منها رائحة شماتة أوتأنيب ، لكن ذلك ليس معناه أننى مقبل على كارثة ، وأنها كارثة قريبة ، لأن سؤالا تافها واحدا يستطيع أحد من الناس أن يقذف به فى وجهى قائلا لى : من يعولك ؟ ومم تنفق ؟ مثل هذا السؤال جدير بأن يوقعنى فى الحيرة ، لأنى لا أعلم مصدرا واضحا أستمد منه تلك اللقمة المرة التى تقيم أودا ليته لايقام . حدثتنى نفسى من أجل هذا أن صمت أمى وحياد زوجها ليس سكونا ستتبعه عاصفة وتقبضا سيعقبه اندفاع وإهمال من نوع ذلك الذى نلقيه على الضيف الثقيل حتى يقرر الرحيل . وهممت فى ظروف متعاقبة أن أسألها عما إذا كان قد بقى لى شىء من المال أعيش به فخفت من الرد فأمسكت عن السؤال ، وبقيت أحيا : فى غموض مطبق على حاضرى ومستقبلى ، إنسانا بلا برنامج ، يمشى على الطريق معصوب العينين !!

ورأيت على وجه وهيبة عصر يوم من الأيام تردد الذين يريدون أن يلقوا إلى غيرهم خبرا . وكان سيئا فيما يبدو ، لكنه أقلق سكونها وبلبل أفكارها. كنا وحدنا فى المنزل لأنهم كانوا فى « الخارج » ، وأغلب الظن أنهم كانوا عند الوصية الست زينب . وأخذت وهيبة تغدو وتروح وعلى وجهها كلام حتى عن لى أن أناديها لأستوضحها الأمر وترددت برهة ثم قالت بعدها :

ــ إن اسمك يتردد كثيرا فى الأحاديث التى تنشب بين سيدى وسيدتى ، ويبدو أنه أمرغير سار لأن صراخها كثيرا ما يأتينى وأنا بعيدة عنهما . وقد

حاولت أن أعرف ولكنني فشلت !!

وأخذت حيطان مسكننا تمشى إلى الداخل شيئا فشيئا حتى ضاق على المكان . قلت فى نفسى : لو كنت فى كوكب غير الأرض أحيا فى المريخ أو فى القمر . ثم وصفوا لى هذه التعاسة التى أعانيها لما صدقت أن يحتملها قلب . كنت آكل وأشرب وأنام على فراش وأدخل الحمام وأغيرملابسى ، وهناك خادم تقول لى : يا سيدى ، ولكننى على الرغم من ذلك كنت جوعان ظمآن مشردا بائسا أنام فى العراء ، عبدا لكل الناس وكلهم سادتى !!

من أجل ذلك رأيتنى أخيرا مستعدا لأن أقدم على كل شىء ، غير خائف من غول المستقبل الرابض على مقربة منى فاغرا فاه حتى بدت لهاته .

وبدأت الأيام تملى على الخطة فأذعنت خانعا مطيعا غير متردد ولامتذمر .

وتلقيت الحلقة الأولى من خطتها ذات ليلة كانت واجمة كالحة كئيبة تصرخ الطبيعة فيها بريح الشتاء . وكنت عائدا إلى البيت من بيت أحد الناس الذين كنت ألجأ إلى مساكنهم إذا ماحننت إلى سكن ، وهممت أن أنقر الباب ليفتح من فى الداخل ، لكننى توقفت حين سمعت صراخ أمى وبكائها وشهقاتها تقترب وتبتعد لأنها فيما يبدو كانت تدور فى أرجاء الشقة كطيمها حين ترى ثائرة . وكان زوجهايصخب ولكن على بعد ، لعله قد كان فى المخدع والباب مفتوح أو لعله كان فى حجرة الضيوف فلم أتبين ما يقول . وجلست أم مختار على الكنبة فى الصالة فاختفى ظلها الذى كان يتخايل على البللور وأنا جامد أمام الباب ، واستطعت فى وقفتى تلك أن أعين مكانها . وكان صوتها يخمد شيئا فشيئا كما يخبو اللهب وبكاؤها يجرى نحو الهدوء كما نحاول إنهاء لحن . وهممت أن أطرق الباب من جديد لكننى سمعت صخب زوجها يعلو مقتربا ففهمت أنه يمشى إليها واستأنفت هى

المجيبج مرة أخرى فطرقت بعنف على البلور ، فانفرج الباب بسرعة لأن وهيبة كانت قريبة منه فى هذه اللحظة كأنها كانت فى طريقها إلى الخارج . ودخلت فى وهلة لم يكن أحد يتوقعها قط ونظر الزوجان فبصرا بى عند المدخل أنظر إليهما فى ذهول وغضب ، عقب أن صك عباس أفندى وجه أم مختار بضربة صرخت فى أثرها صرخة ألم ..آه .. هل أقول : أحسست وقعها على قلبى لأن هذا هو الذى حدث ؟! ونظرت ، فإذا بخط من الدم دقيق يسرى على شفتها العليا ثم يمتد نحو الذقن . وأعمتنى حمرته القانية تحت ضوء المصباح على وجهها الأبيض فلم أدر ماذا فعلت ، لكننى أفقت فأدركت أن حقيبة كتبى لم تعد فى يمينى . قذفت بها فى وجه عم عباس ولولا أنه تلقاها بذراعه لحطمت وجهه ، لكن الحركة لم تخل من الإيذاء تماما فإن شيئا ما صدم منظاره فحطمه وكان يلبسه عند تصحيح الكراسات ، وترك تحطيم المنظار على قنطرة أنفه خدشا خفيفا لكن الدنيا كلها قامت وقعدت بعد هذه الزلة !! قال الرجل متظاهر بالحلم وإن كان حلمه خوفا وضعفا :

ـ أهكذا تفعل يا بنى .. حسن . إنك على حق . يظهر إنه لم يعد هناك داع للإقامة .

وعملت هذه الكلمات فعلها فى تشبيج الزوجة وغضبها فأفاقت سريعا، وهدأت أنفاسها . ونطقت ملامحها بكلام كثير وجهته إلى ، فيه : أنت فضولى . وفيه : وغير مؤدب ، وفيه : ومتهم بسوء القصد وإضرام النار فى العش الهانىء !! فاستشعرت ندما قيدنى فى مكانى حتى لا أدرى أى فعلىَ صواب : أأدخل نحو حجرتى أم أخطو قافلا إلى الخارج . ولكن إلى أين ؟!

غير أنى شققت طريقى إلى غرفتى غير آبه بما يدور ، وانقضت دقائق

سمعت بعدها صوت الزوجين وهما فى طريقهما إلى المخدع ، وسمعت ردة الباب وتتبعت بأذنى تطور الحديث وأنا فى مكانى حتى آل إلى الحال التى يبدأ عندها فى الخمود شيئا فشيئا كما يخبو اللهب .. ثم .. ثم انقطع الحديث !!

وحاسبت نفسى على فعلتى فلم أستشعر ندما ، بل عدت فتمنيت أن لو كانت الفرصة قد أتاحت لى عملا آخر . هو أن أحطم وجهها بالحقيبة ليعلم الزوجان أنهما فى حاجة إلى إنسان يؤدبهما . وبدأ شريط الماضى يعرض نفسه بنفسه حتى أتاح لى أن أرى صورة خادمنا القديم الصغيرعبده الريفى الذي كان يبكى ويبتسم فى وقت واحد حين تضربه أمى - رأيت صورته يوم سال من أنفه خيط من الدم دقيق يسرى على شفته العليا ثم يمتد نحو الذقن حتى تختلط حمرته بخضرة الوشم . وكان سبب هذه اللطمة دما أيضا .. دما تخلف على بلاط المرحاض .. خرج عبده وتركه ناسيا أن يصب عليه الماء ، لأنه كان مريضا بالبلهارسيا ، فلما اشمأزت منه أمى أسالت الدم من أنفه ، ومع ذلك فقد كان يومها يضحك ، أما هى فقد بكت فى هذه الليلة ساعة سال من أنفها خيط من الدم !!

« كل شىء فى البيت يدعو إلى الاشمئزاز »

قلت هذا وخبطت بعض الكتب على ظهر المنضدة ناقما وعدت أقول : لعنة الله على الجميع .. يقولون : إن أرض الله واسعة جدا ، فلماذا لا نعاينها ؟ ربما ارتحت . وقد أعاين ألوانا أخرى من الشقاء لكنها لن تتسامى إلى ما أعانيه فى هذا المكان . وخلعت ملابسى وأطفأت النور وارتميت على الفراش بلا عشاء ، ولست أدرى لماذا لم يحاورنى الأرق ؟ فلم أستيقظ إلا على صراخ أحشائى من عضة الجوع قبيل مطلع الفجر ، تلك الصرخة التى أتاحت لى فرصة أفكر فيها فى أخف ماقد يصيبنى فى المستقبل الذى بدأت

أرسم الخط الأساسي فيه .

وارتفع الضحا التالي .. ومتع النهار ، وكان يوم جمعة ، فدخلت على « عربة الترمس » بعد أن خرج « صاحبها » من البيت وكانت ـ كما بدا لي ـ حزمة من المشاعر ومعتركا للأفكار.

كنت متمددا في سريري الصغير الذي تنهض بحشيته حمالة من السلك آدها حملي فاسترخت إلى الأرض . ولم تشأ عربة الترمس أن تحييي بل قصدت من فورها إلى حافة الفراش فجلست ترمي ببصرها نحوي. وعقدت يديها على صدرها قبل أن تهم بالكلام وجلست أنا في سريري وفي يدي كتاب على حين عقدت هي ما بين حاجبيها وتنهدت ثم نظرت إلى الناحية الأخرى فأتاحت لي فرصة أرى فيها شعرها المبلول . وعادت فاستقبلتني بوجهها كله وكان أشبه بوجوه الخارجين من المعارك . قالت أم مختار ويداها لاتزالان معقودتين على صدرها :

ـ هل تستحسن ما فعلت ؟

فهززت رأسي مستفهما كأني لم أفطن لما تقول ، فاحمر وجهها وارتعشت شفتها وبدت ريح الغضب تعصف بملامحها القاسية ، لكنها جمعت جماح نفسها وأجابتني ببرود :

ـ هل نسيت ليلة البارحة ؟!

قلت :

ـ لا .

قالت :

ـ إذن فهل ترى الذي حدث كان صوابا ؟

فأجبتها :

ـ كان الموقف حادا جلبني إلى تياره دون أن أريد .. ولكن ، ماذا كنت

تظنينني فاعلا ؟! وانتظرت جوابها بشوق بالغ فإذا بها تقول : كان ينبغي لك ألا تفعل شيئا .. تدخلت فيما لا يعنيك .. رجل وامرأته يشنق كل منهما صاحبه فما بالك تقدم رقبتك إلى حبلهما ؟!

وسكتت ونظرت كما تنظر النمرة أهاجتها طلقة الرصاصة . وظننتنى وأنا ناظر إليها أنى متهيىء لأقول شيئا لأنها ماكانت لتعلم ما بى : كنت محملقا فى الفضاء لاأرى ، تخنقنى الغصة وتجرى حرقة الغيظ فى صدرى كما تجرى حرارة النار . ولما لم أنطق بشيء واصلت حديثها :

ـ هذا غريب .. إنك تبدو هادئا ولكنك سرطان .. ولد ذو بدوات . تفعل دائما مالاينتظر ، وتفعله بغتة وعلى غير انتظار.. حكم الوراثة !!

ثم انتصبت واقفة كمن يستعد للشجار وكانت أحشائى وأعصابى وعضلاتى وكل ما فى من لحم ودم قد استحالت إلى هباء ، فلو هاجمتنى هرة فى هذه الساعة لصرعتنى .لكننى قلت على الرغم من ذلك :

ـ ألم يحن الوقت الذى نرى نفسنا فيه عافين عن الموتى غافرين لهم ما قد أساءوا ؟ مالك ولأبى ؟!

فلم تجب . واضطربت أنفاسها حتى بدا ذلك على صدرها . وحانت منى نظرة فرأيت بطنها .. رأيته منتفخا قليلا بارزا شيئا إلى الأمام ويعلن عنه بوضوح نوعى ثوبها الضيق . عند ذلك أحسست اشمئزازا لا أدرى من أى لون هو ، لكننى شعرت بالغثيان فضبطت أعصابى وقمت واقفا ازاءها لأسألها سؤالا أدركت عند سماعه أن جدا غير منتظر كذلك قد جاء فى بدواتى .

قلت :

ـ هل من حقى الآن أن أسألك عما بقى لى من مال ؟!

فابتسمت ساخرة وأجابت :

ـ ياله من خيال واسع !! هل تفهم ما أعنى ؟! احذر مرة أخرى أن تتعرض لرجل اتخذنا منه سدا يقف بيننا وبين الجوع !! احذر !!

ثم ولت خارجة وتركتني للنار ترعى في أوصالي .

***

قلت في نفسي : فلنسأل أهل الذكر . فقلت يوم السبت لزميلي أنور أمين ونحن في المدرسة :

ـ ما رأيك في الموضوع ؟!

فلما استوضحني الأمر بحت له بنيتي .

وأنور أمين متخصص في الإباق والهرب . زاولهما في فرص وأوقات متباينة أغنته بالتجارب ووقفته على خفايا كثيرة . واحد بين خمس بنات تكيل له أمه التدليل ويكيل لها التجني ، وتقف بينه وبين أبيه فلا يمد إليه عصا التأديب لأنها تحمل الموت في عرف بعض الأمهات . وأبق أنور من بيتهم نيفا وعشرين مرة لأنه رأى في الإباق والهرب وسيلة ناجعة في تحقيق المطالب حتى يتبيح لأمه على الخصوص هواجس مقلقة ترى أقلها أكثر بكثير مما يطلبه غلام بين بنات .

قال لي وهو يبتسم في اعتزاز من يرى الناس في حاجة قصوى إلى آرائه :

ـ حتى أنت يامختار ؟؟ ولكن .. لماذا ؟!

فأطرقت في استحياء وأجبته :

ـ قسمة !! والمسألة عائلية صرف . أرجوك !!

فتأبط ذراعي حيث انزوينا في مكان هادىء وحيث بدأ يسوق إلى بنات أفكاره وأغلى تجاربه التي كسبها منذ عرف الأباق :

ـ لاحظ أنك ستهرب في الشتاء ياصاحبي وهذا أمر جد عظيم ، لأن

الجو فيه عامل غير مساعد . نحن في الصيف نستطيع أن ننام في العراء بلا غطاء ، لكن في هذا الفصل فانظر أي خطر ستتعرض له .

ليس هذا من شأني على كل حال .أما الذي من شأني فهو أن أبصرك بأمور هامة بالنسبة للذين يزاولون هذا العمل للمرة الأولى : احذر أن تبدو مضطربا إن كنت في مدينة وإلا خلقت لنفسك المتاعب « البوليس » !! كما يجب أن تجعل الطعام في المرتبة الثانية بعد المظهر وإلا وقعت في المتاعب كذلك ، أعني : لاتجعل شعرك يطول ولاقميصك يتقذر فإن الشريد النظيف سيد الشرداء .

وأما ما يتعلق بالمبيت وهو أهم المشاكل فلك أن تختار مثوى رخيص الأجر في أيامك الأولى وأمامك بعد ذلك العمارات الجديدة التي تقام أبنيتها وينام فيها العاملون فانزو في أحد أركانها ـ ثم المساجد والزوايا على شرط أن تتوفر في خدمها المزايا الضرورية لك كضعف البصر أو الشيخوخة ، ثم المقابر أخيرا إن كنت ثابت الجنان .

وكف أنور أمين عن الكلام وبقيت عيناه تقولان لي : هل تستطيع ؟.. ليس كل الناس قادرا على تحمل الشدة . فقلت له :

ـ أشكرك .

وقضيت الليالي التوالي بعد ذلك أعد أمرنفسي وأتخيل المكان المهجور الذي سأسافر إليه بآلامي أو أرحل إليه منها . لكن أمر المال أتعبني . ثم عدت فوازنت بين أصناف اللقم فألفيت بعضها يفضله الجوع . وحالفتني الأقدار في المعركة الأولى لأن قسط المصروفات كان معي قبل هبوب الزوبعة على بيتنا يوم الخميس فلم أشأ أن أؤديه إلى المدرسة . فاحتجزت الجنيهات عقب مانال زوج « أم مختار » من حقيبتي وما نالني من لسان « أم مختار » .

ولم أجد أحدا أفضى إليه بأمر نفسى إلا « وهيبة » التى انفردت بها خارج البيت وبادهتها قائلا لها :

ــ « وهيبة » ، أنا أعلم غاية ما تكتينه لى من حب وهو عظيم ، ولذلك أرجو أن تساعدينى فى أمر ، سأرحل عن « الإسكندرية » يا « وهيبة » لأنى لا أجد فى هذا البيت إنسانا يمت إلى بصلة قربى .

فانبثقت الدموع من عينيها كما ينفجر الينبوع ، وخيل إلى أن قلبها يولول . كانت حنانا خالصا احتكرته الأقدار فى مخزن مهمل ، وعلى الأرض بنون يعيشون فى مجاعة . قالت فى انكسار العاجز عن مد يد الإنقاذ :

ــ عاود التفكير فى الأمر يا سيدى مرة أخرى لعلك تغير القرار .

قلت :

ــ إنه الأخير .

وافترقنا .

وحددت يوم الرحيل وأنا فى طريقى إلى عزبة « خورشيد » ولشد ما خفق قلبى لرحيلى بعد ثلاثة أيام حينما تذكرت حبى « لسكينة » وجعلت أنظر إلى دراجتى فى أشواطها الأخيرة على هذا الطريق الذى عبرته سنين حتى قامت بينى وبين معالمه ذكريات باقية . وجعلت أدق جرسها بلا داع كأننى أداعبها قبل المبيع . كانت تنقلنى بعجلتها إلى هناك وسوف تنقلنى بثمنها إلى هنالك .. إلى أى مكان .

ولبست مناظر الريف لعينى ثوبا جديدا بهيجا كأنما تزينت به من أجلى . ثم جعلت تناغينى : كيف ستغيب عنا ؟ .. هل هنا عليك ؟! أما « سكينة » فخيل إلى قبل أن أبلغها النبأ أنها فى وداعة حمامة تشحذ من أجلها السكين وهى تزجى وقتها بالهديل غير عالمة بالمقدور .

كانت فى الكوخ وحدها : أبوها فى الإسكندرية وأمها فى السوق .

فلما لقيتها شرعت تعاتب على الفور من تباعد ما بين الزيارات . ثم شرعت تغنى بصوتها الهادىء ووجهها الخجول أغنية تشكو فيها فتاة ريفية إلى أمها دلال حبيبها ـ وما أكثر شكوى الفتيات لأمهاتهن فى أغنيات الريف !!
ـ فلما فرغت قلت لها :

ـ سكينة .

فقالت وكأنها تومىء إلى أنها بدأت تعيا بأمر قلبها :

ـ لست « سكينة » ! .. إنما أنا مسكينة !!

فابتسمت فى تشاؤم وبانت على وجهى دلائل جد صريح فألقت إلى بنفسها خالصة ، فشرعت أقول :

ـ استمعى إلى فالأمر هام عظيم .. أنا مسافر .

فلم تنطق بحرف بل زمت شفة على شفة كأنها تكظم بكاء .وظلت هكذا إلى أن قلت لها :

ـ وبعد يومين .

فازداد توقد وجهها ثم مال إلى شحوب القطن ثم سألتنى وعيناها دامعتان :

ـ إلى أين ؟.

قلت : إلى القاهرة .

فاستطردت :

ـ لوظيفة ؟

فأومأت برأسى : أن نعم . فسألت :

ـ ولن يرى كل منا حبيبه بعد ذلك ؟

فبرقت عيناى بالدموع ، ثم أمسكت الألسن وتولت الجوارح والملامح والحركات والسكنات شرح ماجاشت به النفس فى صمت طويل عميق أبلغ من

الكلام والقوافي التي يسجع بها الشعراء ، حتى جال من حولنا هدهد ينقر وينقش ، ويبحث وينقب ، فسألتها مبتسما هازا رأسي :

ـ عم يبحث ؟

فقالت :

ـ يقولون : إنه لا يزال يفتش عن كنوز سليمان .. من يومها حتى يومنا هذا !!

فقلت :

ـ إذن فنعمت المثابرة .

قالت بصوت يهدجة حياء ووله :

ـ ولن ينقضي عمله حتى ينقضي ما بيننا ، ليتنا لم نلتق .

وأدرت كلامها في قلبي فاستعذبه القلب حتى انتبهت هي إلى نعيق غراب على شجرة الجميز فنظرت إلى وفي عينيها تشاؤم أهل الريف ، فابتسمت لها مهونا الأمر . فسألتني :

ـ لماذا لا نرى غرابا غير أسود ؟ كلها سود .

فقلت ما جاد به خاطري وإن كان قولا لا طائل تحته :

ـ لأنه من رهبان الطيور ؟؟ لكنها استعذبت قولي ، فقالت :

ـ هذا حسن . إذن فلاتنس ، سأحبك مادامت الغربان في ملابس الرهبان والهدهد يبحث عن كنوز سليمان .

ثم التقت شفتانا . ثم أبعدت وجهي عن وجهها بيدها لتقول شيئا كأنها خافت أن تنساه :

ـ وهل ستكتب إلينا ؟

قلت : ولم لا ؟

قالت :

ـ هل فى المدينة بنات يكتبن لأحبابهن كلما أردن ؟

فأومأت بنعم . فتنهدت ولمعت عيناها بالمنى والشوق . ثم ما لبثت أن قالت :

ـ ليت زمانى تأخر قليلا حتى جئت فى أيام تستطيع فيها بنات الريف أن يكتبن لأحبابهن . فأجبتها :

ـ لاتجزعى .. إنه .. بعد لم تفتك فرصة ستتحقق لغيرك من الناس .

وجاء عم خليل وزوجه والبسطامى الصغير فقصصت عليهم القصة فتباينت على وجوههم دلائل الأسف ،لكنهم مالبثوا أن دعوا لى بالتوفيق .
لم يروا فى ادعائى أننى آثرت الوظيفة على الدراسة شيئا غريبا لأن اسم الوظيفة عند أهل الريف مرادف لمعنى السيادة والعزة والإمارة وتصريف شئون الناس بالسوط أو باللسان .ثم كان وداع أخيرساذج بعد يوم واحد اضطلعت فيه الوجوه والعيون بالمهمة الكبرى فى التعبير لأنهم لايستطيعون غيرذلك . ثم ساروا فى مصاحبتى إلا سكينة حتى قطعنا عدة كيلومترات على الترعة ووصلنا إلى الطريق الرئيسى على المحمودية فتبادلنا الدعاء والقبلات مرة أخيرة ، وكفكفت دمعة وأنا أقبل البسطامى ودعوت له بحظ أجمل من حظى فى حياة المدرسة .. ثم .. ثم قام بيننا البعد !!

وعدت إلى الإسكندرية عصر ذلك اليوم وأنا أتدبر الأمر جيدا : إن أسرة عم خليل تعلم أننى مسافر غدا إلا سكينة فهى وحدها التى تعلم الحقيقة فأنا مسافر بعد غد . وسألقاها هى وحدها فى الليلة المقبلة كما اتفقنا. وتنزى قلبى من هزة ألم طافت به حين شعرت أن فى موقفه هذا شيئا من الخداع لقوم طيبين ، ولكنى لم أعد أعدم عذرا فالتمسته حين قلت : أليس من حق القلوب علينا أن نهيىء لها فرصة الراحة فى زمان يلهبها بسوط العناء ؟! فأقنعتنى الفكرة !!

***

ورأيت الكنبة فى صالة بيتنا يحدق بها الكرسيان ولكن صورة أبى لم تكن مشرفة عليها . كان الحائط مقفرا بعد اختفائها كأنما هو دار رحل عنها ساكنوها !! ولم أسأل أم مختار كمالم أسأل وهيبة لأن مكانا واحدا فى الشقة من المحال أن تقوم فيه . وهو مخدع أم مختار ، ومن المحال كذلك أن أدوس عتبته ، ودخلت غرفة الضيوف وغرفة المائدة فلم أجد بغيتى فقلبت كفى وقلت بينى وبين نفسى : بقيت إذن حجرة واحدة ، هى حجرة الكرار . وسرعان ما رأيتنى أسعى بلا تفكير ودخلت بابها فإذا بالصورة منفية فيها لم تكن معلقة على الحائط لأن حجر الكرار إنما هى مخازن وليس فى الناس من يزينون المخازن . لقد تألمت ، بل وبكيت ووقفت أتأمل المنظر كأننى أرى جثة فى قمامة ، أعنى إنسانية مبتذلة معذبة طالعتنى فى الصورة التى كانت على مقربة من إناء فيه عسل وإناء فيه سمن حولها ذبابات تحوم فى المكان ـ والذباب فى الشتاء قليل ـ كن يهبطن على الأوانى ويطرن ثم يسترحن قليلا على الصورة قبل أن يشرعن فى شوط جديد .

إن قانوننا فى داخلنا وعرفنا فى نفوسنا . وقد كنت فى هذه الوقفة أشبه بدولة توشك أن تعلن حربا لأن « علمها » قد أهين . على أنه كان فى داخلى حرب ضروس أقلقت أحشائى وهيجت سكونى وفجرت آلامى . وسمعت صوت الرجل والتراب بينى وبينه . وكأنما حلقت روحه حول الصورة تحسبها جسدا فأحسست كأنه يصول ويجول فى الشقة كليلة عيرته أم مختار بالفشل فحملته على الأباق ، وكأن صوته يأتينى وهو يقول : « نساء .. نساء آه .. آخ » فوضعت كفى على أذنى وخرجت مسرعا لا ألوى على شىء !!

ولم يبق بينى وبين الرحيل عن بيتنا السعيد إلا الليلة المقبلة ولعلك تجد فيها ليلة أى ليلة لحفولها بالحوادث .

خطا الليل خطواته الأولى وأنا أنحرف إلى الطريق الجانبى قاصدا مزرعة عم خليل . قلبى يدفعنى ويمسكنى ضميرى ولو أننى غيرمقبل على ريبة ، لكنهم يظنوننى الليلة غريبا ، ولعلهم فى كوخهم الساعة يقولون بعد أن قضى رب البيت صلاة العشاء : ترى أين تنام الآن ياسختار أفندى ؟ لأنهم تهيأوا للنوم . وسرت وتوقفت ثم هممت بالرجوع . لكننى عدت فتذكرت أن سكينة بانتظارى وأنها لن تنام ولو أدركها النهار . وأن رجوعى وسفرى دون أن أبر بوعدى ـ ولو أنه سخيف ـ معناه أننى أهدى إليها قلقا ومتاعب فى اللحظة الأخيرة ولن تجد سكينة بعدها بابا تستقى منه خبرى فتطمئن إلى مصيرى . وهكذا !! خلقت لنفسى من الأعذار ما أقنعت به نفسى فرأيتنى أجد السير على الطريق حتى بدت لعينى من بعد قريب شجرة الجميز وأشجار السنط والتوت وشريط الحلفاء على الترعة ، وكلها غارق فى السكون هاجع تحت جناح الليل . وخفق قلبى لأننى لم أحس السلام ولا الأنس ولا الأمان الذى كنت أحسه فى كل يوم وليلة ؟! أين ولت ؟ لكأننى الآن فى مكان غريب . ولما اقتربت من مدخل الحقل فوجئت بما لم يدخل فى حسابى ولاحسابها يوم اتفقنا على اللقاء . فوجئت بالكلب بين رجلى ومن حسن الحظ أنه نائم لأنه لو رآنى من بعد لنبح .وجلست من فورى إلى جواره وجعلت أمسح وأربت رأسه وظهره فاستراح وذهبت عنه الريبة ثم تثاقل إلى مكانه حين اطمأن إلى شخصية الدالج !! ثم بعثت بما اتفقنا على جعله إشارة. وكان صفيرا كصرير الجندب الذى حاكيته عدة سنين ، إذا لم تكن هناك ريح ، أما إذا كانت هناك ريح فدقة واحدة بقبضة يدى على الحائط الخلفى ، تخرج سكينة بعد إحداهما فورا أو بعد قليل حين تتأكد من أنهم نائمون ثم تلحق بى هناك فى الحقل المجاور على بعد بضع مئات من الأمتار ترانى فى كن مهيأ بين أكداس حطب الذرة كان ينام فيه صاحب الحقل أيام

كان فى حاجة إلى أن يحرس المحصول . ويصر الجندب من فمى صريرا طويلا تحولت بعده إلى الكن الموعود فارتقيت فى أحشائه أرقب الأمور فى الخارج . كانت قوافل السحاب الأبيض متحيرة فى السماء تسوقها عصا هواء غيرعنيف تصر به أحيانا أوراق الحطب وأعواده . وفى السماء كذلك قمر شتاء هزيل حائر يضيء ما فوق السحاب ، ويبدو للواقف على الأرض كأنه غريق فى لجة كثيفة فتفرق نوره بين الأطباق حتى وصل إلى الحقول الغافية متعبا مكدودا لكنه على كل حال أمات وحشة الليل . وبدت الطبيعة متطرحة فى فراشها ـ كأن كل عضو فى ناحية ـ تطرحا يذكر بالأحضان والحنان والنجوى والشعر والحب . وتنفست عميقا حينماغرق القمر فى لجة السحب فظننت ألاانجاج له منها حتى آخر الليل ، وخبا نوره إلاآثارا ضعيفة رأيت بفضلها شبحا يتخايل ناقلا خطواته فى حذر وحرص يشمر أذيال جلبابه الرمادى الطويل بكلتا يديه ليرتفع من الأمام فلايتعثر فيه ، وعليه شال من القطيفة يدفع عنه برودة الليل ، واستحالت الحياة من حولى إلى حلم عميق فضاع منها عنصر الإرادة . وتحولت الأعمال إلى حركات تلقائية صرف يسيطر عليها معنى واحد فحسب هو « الحب » . وقفت على القرب من كنى وهتفت بصوت راجف خائف :

ـ ألست توافق على أننا مخطئون ؟؟ ..

فلم أزد على أن قلت :

ـ ادخلى !!

ففعلت . وصرت بعد ارتمائها فى أحضانى أشبه بالواقف على خشبة المشنقة لايريد أن ينهى عملا تشهى أن يكون هو آخرما يفعله فى الحياة ، ولو أن كل شيء من حولنا كان يهيب بنا أن عجلوا . وتخلخلت السحب من فوقنا مرة أو مرتين فحملق فينا القمر من فرجتها ثم تراجع . كان كلامنا

همسا وكانت شكوانا أنينا وأدفأتنا أنفاسنا فلم نعد نحس برد الليل . على أنها بذلت لى ما وعدتنى ولم تزد وإن لم يكن هناك مايحول بيننا . وكانت تضع فمها على رقبتى من أسفل ثم تمسحها بشفتيها مقبلة إياى مرتفعة بفمها إلى أعلى رويدا رويدا حتى إذا ما لامس أذنى فأحسست أنفاسها الحرى ألقت فيها بلفظة حلوه . ولست أدرى ماذا بدر منى بعد ذلك لأنى انتبهت إلى صوتها الهامس يقول لى فى انكسار وحب وثقة :

ـ مختار .. ما بالك الليلة تبدو غير خائف على ؟ قل ما بالك ؟!

فعاودنى وقارى وثاب إلى رشدى . وأدركت أنها خافت على موردها أن يرنق فى غفلة منا فيعافه الشاربون . ثم قالت :

ـ دعنى .. وداعا !!

ولكننى لم أفلتها فاستدركت :

ـ فلأدعك أنا ..

ولكنها كذلك لم تفلتنى . وسمعنا نباح الكلب فارتجفت بين ذراعى كأنها دمية . ثم قالت :

ـ إذن فليدع كل منا صاحبه .

وسكت الكلب عن النباح فساد السكون ، وكف الهواء عن الحركة فلم نسمع حتى أزيز بوصة وكأنما أراد الكون أن يغرينا بشيء ما .. ولكننا أفقنا وتسللنا خارجين من الكن وكل منا يقصد وجهة . وفعلنا لكننا عدنا فتوقفنا وقطع كل منا إلى صاحبه نصف المسافة التى بعد بها وتعانقنا فى الخلاء ، وغطت وجه القمر وقتذاك سحابة سوداء أظلمت بها الدنيا فكأنما ألقى الليل علينا ستاره الكثيف وودِدنا أن نظل هكذا ثم ليكن مايكون . بيد أن يد البعد ضربت بيننا بعد ثوان قليلة فسار كل منا يحدث نفسه وهومول ظهره لصاحبه: ترى هل نلتقى ! ؟ لكن الجواب كان فى ضمير الزمن !!

وقبيل الفجر كانت حركة خافتة تجرى فى غرفتى : كنت أعد أنا ووهيبة حقيبة سفرى ، وأضع فى هذا الوعاء المصنوع من الورق المقوى كل ما أملكه من متاع : حلة قديمة فصلت على ، وأخرى قديمة من حلل أبى ومعطفا كان فى ميراثه وقميصين وجوربين وجلباب نوم وشبشبا وبعض أربطة للرقبة ، ثم ساعة جيب كبيرة ذات سلسة من الفضة هى كذلك من آثار الوالد .. والبطانية الصوفية الخفيفة التى طيرت يد الأيام وبرها من كثرة مانشرت على سريرى عقب نهوضى من الفراش . ولم يكن هناك كتاب ولا كراسة ولا قلم ، لأننى ودعت الدراسة !

وجعلنا نزاول أعمالنا ونحن مطمئنون . لأن شخير عباس أفندى كان عاليا أكثر من المألوف لأنه فيما يبدو كان متعبا جدا . وأوصيت وهيبة أن تقول إذا ما سئلت عنى فى الصباح : سمعته منذ دقائق فحسب وأنا فى فراشى يقول : إنى ذاهب إلى بيت زميل .وانتهت كل مهمة ولم يبق لى إلا أن أتلفت حولى فى الحجرة ، فلم أر فيها ولا فى الإسكندرية أربا واحدا . لأننى قطعت آخر ما بيننا من أواصر بعد أن أخذت الصورة .. أخذتها من حجرة الكرار وأودعتها حقيبتى لتنزل منازل عز أو منازل ذل ..حكمها حكمى وحظها حظى !!

وخطوت خارجا من الحجرة والحقيبة فى يمينى ، لكنى سمعت من خلفى شهقة مكتومة جادت بها وهيبة على وداعى الحزين ، فاستدرت إليها وتركتها تهوى إلى أحضانى وبادلتها قبلة كانت طويلة . ثم خطونا معا إلى الصالة فى صمت وسكون ، لايلقى عليه ظلا من الحجرة إلا ما كان يتناهى إلى أسماعنا من شخير ، وقد تبسمت قليلا من أجله وقلت فى نفسى قول من يخرج من مكان وهو غير آسف على أيامه : وداعا أيها الأنف الملتهب .. وداعا يا عربة الترمس !! نعم وداعا فقد تعلمت فى حضنكم الضيق

الخشن القاسي أشياء كثيرة . وداعا ..لأنه يجب أن أخلي المجال لوليد جديد انتما فيه مشتركان ، لتحنوا عليه دون أن يرقبكما محروم !!

ـ ٧ ـ

لم أشأ أن أستقر في مكاني من القطار حتى أهدى إلى عزبة خورشيد نظرة أخيرة .

كان الوقت شتاء كما تعلم ، شمسه السقيمة على مقربة من باب خدرها ولكنها لم تكن بزغت . وكانت أنفاسي تتكاثف على الشباك وأنا واقف إلى جواره أرى مرور تلك المعاني إلى الوراء ، وهكذا نجد في حياتنا ظروف يدبر فيها المكان كما يدبر فيها الزمان . ورأيت معالمها من بعد تجرى إلى الوراء نحو الشمال فأهديت إليها دمعة !! قلت في نفسي بعدها : وهذا كل ماتملك ثم ارتميت متهافتا على الكرسي .

كانت رقعة الأرض واسعة جدا أوسع مما مسحها الجغرافيون بكثير . فقد قستها بالبصر المجرد يومئذ فألفيتها تزيد آلاف الفراسخ ، وكانت فوق ذلك كله خرابا يبابا لايعمرها إنسان .

ثم استعرضت شريط الماضي سريعا فلم أجد فيه ما آسى عليه ولكنى بكيت على الرغم من ذلك . !! تبا للدموع !! إننى لا أحبها لكنها لاحقتنى على كره فجادت ببعضها عيناى وجادت ببعضهاعينا امرأة أمامى . ولكن ليس من أجلى .

كانت من أجل ابنها ، فهنيئا للذين سعدوا بالأمومة ، حتى ولو فى الخيال يوم انتبهوا إلى الوجود فرأوا أنفسهم بلا أمهات ثم حدثهم الناس عن حنان الأم فخلعوه على قلوب أمهات لهم توسدن الثرى منذ أمد بعيد .

بكت من أجل ابنها الرضيع الذى لم تطأ قدماه الأرض فى خطوة واحدة

وكان راقدا فى حجرها عليه أغطية ثقيلة ولكنها تحتضنه لتهدى إليه من حرارة جسمها ما يدفىء جسمه الناحل . وبجنبها زوجها وهو فى الثلاثين يرتدى ملابس الشرطة ويترقرق على وجهه الفقير ماء الشباب المخصب . كانا يتبادلان النظر في يأس وسكون تتنهد بعده الزوجة كأنها تقول : لقد عييت بالدعاء . يظهر أنه لافائدة . ومرت برهة حسرت بعدها الغطاء عن وجه الوليد فبدا وقد عرقه المرض . وأيقنت حين رأيته أن أضواء الحياة فى سبيلها إلى أن تجمع آخر خيوطها عن وجهه ، لكنها على الرغم من هذا مالت عليه فقبلته ، ومال عليها قرطها الكبير لميلها حتى قبلها فى أسفل عينها . ثم أخرجت من صدرها لابنها رمانة الحب ، ونبع الحياة لكل طفل بعد أن سترته بطرحتها الخفيفة ، وألقت به إلى المريض فأعرض عنه لأنه لم تكن به حاجة إلى الدنيا ولا غذاء الدنيا فاسترجعته ندية العينين ثم ألقت بالغطاء على وجه الوليد ثم نظرت إلى زوجها من جديد فمال هذا عليه يود أن يفديه بأى شيء ، بل وبكل شيء حتى بجاهه الذي تجلت شارته على ذراعه فى شريطين مكسورين على هيئة رقم سبعة يحتضن كل منهما الآخر . وفهمت بعد ذلك من إشارتهما المرتبكة أنه لم يبق لهما إلا أن يدعوا الله أن تصمد فى طفلهما حشاشة الروح حتى يصلا به إلى القرية .

كان هذا الحنان ـ ولوأنه متشح بالسواد ـ زغرودة ناعمة تحت نافذة حزينة ، انتفضت به جراح قلبى يظاهر بعضها بعضا حتى لم أعد أحتمل . لكننى استسلمت للأقدار وأسلمت بصرى إلى النافذة وجعلت أعد أعمدة التليفون التى تتراكض إلى الخلف وأنا واضع رجلا على رجل وأوقع بالثابتة منهما على أرض العربة لحنا يوائم أفكارى ويتسق مع أحوالى .

لم أكن قد رأيت القاهرة قط قبل رحلتى هذه ولكننى عرفتها بجلال منظرها حين وقف القطار فى محطها الكبير وتدافع الراكبون نزولا منه على

هيئة تذكرنا بسلوكنا على الأرض : فيهم من يمشى خفيفا نظيفا لايثقل ذراعه إلا مظلة من الحرير يتوقى بها ما عسى أن يكون من مطر : وفيهم ذوو الأثقال الذين يجدون من يحمل عنهم أثقالهم فيمشون هم وراءهم يحسون زهوا بدريهمات يشترون بها أنفاس الناس : وفيهم ذوو الأثقال الذين لا يطيقون أن يحملوها لأن كواهلهم أضعف منها ولايطيقون كذلك دفع الدريهمات التى تشترى بها أنفاس الناس ، وقد جلس هذا الفريق أو وقف فى سدور وحيرة على الرصيف ذى البلاط المربع فى انتظار حل الأقدار التى لاتستعصى عليها عقدة : وسرت أنا بين هذه الجموع حاملا حقيبتى الورقية التى جمعت بين دفتيها كل متاعى حتى أسلمتنى المماشى والممرات إلى الأبواب الحديدية الكبرى التى ينصب منها الخارجون فى الميدان الرئيسى عند مدخل المدينة ، ولم أكن أفكر فى مكان بذاته جعلت وجهتى إليه بل جاءتنى الفكرة عارضة حين توقفت قليلا أمام أحد رجال الشرطة لأسأله فى انكسار خوف من المجهول عن أقرب طريق يوصلنى إلى السيدة زينب ، فلما أجابنى واحدى يديه تسند البندقية المركوزة على الأرض ويده الأخرى تعبث بشاربه الطويل ، ابتسمت خفيفا فى شىء من السخرية من سيطرة اسم زينب على أزمة حياتى أنا وأمى !!

وتبذنى الترام فى قلب الميدان ، ميدان السيدة . وكان اليوم شديد البرد فلم يكن مزدحما بالناس وقد انزوى هنالك إلى جانب السور بعض أبناء السبيل الذين أخذت هيئتهم تناغينى وتبشرنى بأن لى مستقبلا باهرا فى التشرد . على حين كان هناك عند مدخل الشارع عربتان متقاربتان تشوى إحداهما ذرة وتشوى الأخرى بطاطة . ثم أخلاط من الوجوه والأزياء والألوان كنفس الحقائق التى تركتها فى الإسكندرية ، نعم .. نفس الحقائق فلا تغير إلا فى الأسماء .

واستعرضت سريعا برنامج النصائح التى قدمها إلى أنور أمين وكانت أول حلقة فيها أن آوى إلى نزل رخيص الأجر فى أيامى الأولى . على أننى وددت أن آوى إليه طول حياتى أو أن يكون فى مقدورى أن أستأجر بيتا لأن الهيام على الوجه بدا لى عملا شديدا ارتجفت له أوصالى قبل أن أقع فيه .

وفى « لوكاندة السيدة زينب » العتيقة التى ترى لكثرة ما احتضنت من نائمين كأن نوما يكاد يرنق بأجفانها وكأنها على وشك السقوط .. فى هذه اللوكاندة جلست أقدر الأيام التى تفصل بينى وبين الهاوية التى كان الجوع أهم ما يخيفنى فيها . حقيقة أن الطعام الذى كانت تقدمه إلى أمى لم يكن يكفينى لأننى سليم أكول ولكننى لم أكن أحس عضة الجوع على أحشائى . من أجل ذلك كانت معدتى أهم ما يشغل خاطرى ويشتت فكرى. قلت فى نفسى : إن الله قد من على بمنة كبرى هى هذه المعدة ولكنها كلقب الباشوية يمنحه الفقير .. شىء يحتاج إلى نفقات ليست فى متناول اليد فهو لذلك مثار ألم لا منبع لذة ولامصدر راحة .

ثم عدت فحسبت النقود واختططت فى حسابى خطة فكهة ، قلت بعد أن أحصيتها : حسن .. إذا أردت أن أحيا كما يحيا الآدميون مكفى المؤونة مقضى الحاجة آكل ثلاثا وآوى إلى مسكن فإن المبلغ يكفينى عشرين يوما . ثم سكت ، وفكرت ، ودبرت ، واستعنت بقانون « النسبة والتناسب» الذى درسته فى الأيام الخوالى ، فقلت : ... وإذن أستطيع أن أعيش به أربعين يوما كاملة إذا اقتنعت بأن أكون نصف آدمى ، وكثير من الناس أنصاف أو أرباع . ثم سكت وتنهدت . ثم فكرت ودبرت . ثم عدت فاستعنت بقانون النسبة والتناسب فقلت : إن العقلاء دائما يأخذون بالأحوط فلماذا لاأجعل ثلثى آدما وأهمل ثلثى الباقيين فأعيش بهذا المبلغ ستين يوما ؟ .. أجل ستين ، فيها ملايين من الدقائق والثوانى التى لا نأبه لها فى حياتنا العادية،

ولكنها في الملمات .. تدخل في الحساب .

يا الله !! شهران !! وبعد الشهرين يارب !! جوع وتشريد ، وشعر طويل يطل من حافة الطربوش ، ووجه شاحب وعينان زائغتان وجسد تفوح منه رائحة العرق . وحولنا أناس نظاف لطاف ، لكنهم غيررحماء لأنهم يتقززون من أمثالي . إذن فما العمل ، بعد أن تنتهى الهدنة ويهاجمنى الزمن بناره وحديده وأنا ضعيف أعزل ؟! وجعلت أقلب كفى وأهز معهما رأسى كأننى آلة حتى أفقت على نظرة حادة خائفة مستريبة يرشقنى بها أحد النزلاء والشركاء معى فى الحجرة ، فكففت يدى عن الحركة لكن وثبات ذهنى كانت على أشد ما تكون وأنا أقول فى ضميرى : ما العمل ! ما العمل؟!..
وذكرت الموت الذى يسعى إلى الناس أو يسعى إليه الناس فأحسست راحة اليأس ، فارتميت على فراشى .

وأظنك لست فى حاجة إلى معرفة حالى فى الأيام الأولى من إقامتى فى « القاهرة » ، لأنها كانت حال إنسان يأكل ثلاث مرات فى اليوم ـ على الرغم من جيبه ـ وهذه هى فى نظرى حال كل إنسان كامل !! ويخيل إلى أن الخوف من الجوع يغرى المعدة بالطعام ويذكى شهوتها إليه كأنها تريد أن تغتنم الفرصة كلما تمكنت منه ، وقد كنت آكل وأنا ناقم على نفسى شدة الرغبة وأستبقى اللقمة فى فمى مدة طويلة بعد المضغ لكى أحس لذتها إلى مدى أبعد قبل زمان الجوع . وقد طالما ذكرت الممعودين والمبطونين وتمنيت أن أكون واحداً منهم . حكمتك يا رب !! تخلق بطوناً فى سعة البراميل ثم تملؤها بالقطارة ، وتخلق بطوناً قدر حق النشوق ثم تملؤها بخرطوم الحريق ..حكمتك يارب !!

وكان على أن أدور لأبحث عن عمل ما ، وكان اللف والدوران مدعاة إلى هضم الطعام فى زمن أقل من المقرر ومدعاة بالتالى إلى تطلب المزيد منه

فى الأكلة التالية وذلك خطر يشغل الذهن لا يعرفه إلا من عانى الجوع لمدد طويلة فى فترة من حياته . على أن لفى ودوراني قد كانا كلف الخذروف ، حركة وطنينا لاطائل تحتهما ، وذلك لأننى كنت أقف على باب متجر أو مصنع وقفة الخجلين المترددين أقدم رجلا وأؤخر رجلا قبل أن أسأل عن عمل مناسب . فلما آن الأوان وحملنى القلب وأطاعنى اللسان سألت أول مرة عن عمل ، وسألت بدالا فى الخمسين من عمره يجلس على مكتبه بجبة وقفطان وطربوش وحوله عمال يجولون فى المتجر كما تنتقل النحل فى الخلية . دخلت عليه بخطا مترددة وخاطبته بكلمات متعثرة أسأل عن عمل . فلم يزد على أن هز رأسه بالنفى ولم يتكلم ، لكن عينيه قالتا كثيرا فى فترة قصيرة وكانت تفيضان بالشك والحذر والريبة وكأنهما تقولان فى سمة سخرية : وجه أبرار وفعل أشرار !! فخرجت أتململ !!

وخلفت لى هذه التجربة عقدة كنت غنيا عنها . فقد جعلتنى لا أجرؤ على الإقدام نحو مخلوق آخر لأسأله عن وظيفة حتى استحال السؤال عن الأعمال فى خاطرى إلى معنى من معانى التسول مقنع مستور . ثم جعلتى كذلك أوجه نشاط فكرى إلى ناحية سلبية خالصة هى ضغط مصروفاتى وشد الحزام على بطنى ، وعرقلة سير معدتى كما تحفر الخنادق فى طريق الدبابات .

ويمر اليوم العشرون فيطوف بخاطرى طائف يهتف بى شديدا مذكرا بقوم ومواطن : فذكرت « سكينة » وأهلها ، والأرض الطلقة البهيجة التى حنت على بؤسى فترة من الزمن . وذكرت وداعهم لى ووعدى بأن سأكتب إليهم حين تستقر بى الإقامة ، وأنه يجب أن أكون البادىء بالكتابة . وطلبت ورقة وقلما وشرعت أكتب بعنوان الحاج « عبد المجيد البدال بعزبة « خورشيد » الذى كانوا يشترون منه حاجاتهم . وكان الخطاب باسم « عم خليل » والشوق

إليهم جميعا لكن الحب كله كان « لسكينة » وكنت واثقا أنها ستأخذ الخطاب وتختلى « بالبسطامى » فيقرؤه عليها علها تجد بين السطور شيئا أهديته إليها .

قلت لهم فيه : إننى لم أتسلم عملى حتى الآن وأن « القاهرة » جميلة غير أنه ليس بين ضواحيها مثل عزبة « خورشيد »

وتمر الأيام وأدخل اللوكاندة فيخبرنى صاحبها أن لى عنده رسالة حملها إلى البريد وارتعشت أناملى حين عرفت خط « البسطامى » على الغلاف وجاشت نفسى بحب وشوق شديدين وأنا أقرأ عبارات متعثرة ضعيفة أراد كاتبوها أن يعبروا عن معان سامية .. ولعل أوضح ما استطاعوه أن قالوا : إن فئة جديدة من الدجاج قد بدأت تنقر الحب وأنهم أطلقوا اسمى على دجاجة بيضاء جميلة يبدو من حاضرها أنها ستكون فى المستقبل خير ما فى الدجاج كله .

وهكذا عشت على الفتات فى كل شىء ، أقدم لبطنى فتات الخبز وأطعم قلبى فتاتا من الذكرى ، لأن الحياة شاءت ذلك . شاءت لى أن أعيش قطا شريدا يجثم تحت كل مائدة يوما ، لكننى رضيت بالمقسوم وعزوته إلى أننى أهل له : فأنا إنسان ناقص المواهب تخلى عنه أبوه ـ من غير قصد ولا حيلة ـ وأبنه فى أشد حاجة إلى رعايته . فلما أرادت المقادير أن تسخر منى ممعنة فى السخر ، حين أوهمتنى أن غريبا سيسهر على زرع غيره . لم أنخدع فيما أرادت فثرت عليهما معا ، على الغريب وعلى الأقدار . ثم عدت فاستسلمت لها وحدها.

ويجن الليل ويمعن ميدان « السيدة » فى السهر ثم يركن إلى الراحة فترة تسكن فيها الدنيا وترقد الحياة فتنطلق أفكارى وأنا فى سريرى فأذكر « الإسكندرية » ، وبيتنا على البحر ، وشقتنا التى ترتفع عن الأرض بأربع

درجات ، ووهيبة ، وعربة الترمس ، والأنف الملتهب » ، أذكر هذا كله لأمر يجد فى اللوكاندة ، وقد يتكرر كل ليلة حين أسمع فى حجرتى أنا ، أو فى حجرة أخرى شخير نائم . ويجتمع الفكر ويلح الخيال ، فأحاول أن أتصور ما حدث « لأم مختار » عقب غيابى ، فأراها تارة كاسفة حزينة ، وأراها تارة تهز كتفيها بلا مبالاة ، ثم أراها تارة ثالثة وقد تنفست تنفس الراحة ، فيحز هذا كله فى قلبى لأن حنو الأمهات علينا فى المحنة يهز القلب ، كصدود الأمهات عنا فى المحنة.

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون ، فإنى تفننت بعد انقضاء الشهر الأول فى طرق الاحتيال على إسكات المعدة . ومن ذلك أننى كنت أجمع بين أشتات من الطعام . رخيصة متناقضة أو بعضها رخيص جدا وبعضها متوسط الثمن ، فأبعث بذلك خدرا فى معدتى العنيفة : شربت كوبا من اللبن ذات صباح ، وأكلت بعده مطرين من الذرة ، ورطلا من البطاطا . فأحسست بعد قليل أن جلد بطنى مشدود كأنه دف يتطلب كف ناقر ، وتشاء المقادير أن أهتدى إلى عمل فى أحد المتاجر الكبرى فى اليوم نفسه ، لكنه لم يكن يوافق « مواهبى !! » فقد قيل لى ساعتئذ : إننا فى غير حاجة إلا إلى عامل مصعد فبدأت عملى على الفور فى صعود وهبوط بين طبقات أربع أوزع أشتاتا من المخلوقات تنظر كلها إلى بعيون متكبرة عظيمة وأنوف شامخة ، حتى جعلونى أحس ذلة وضعة ، قسرتنى على أن أتذكر الماضى ، فأزعم بينى وبين نفسى أننى كنت سيدا فى يوم ما ، ألم تكن « وهيبة » تخلع لى هذا اللقب ؟!

واضطربت ، وخلت أن أحدى بدواتى فى طريقها إلى الظهور ، والبدوات كالدموع إن ذكرناها وجدناها . أولعلها كالشياطين . وضاق ذرعى بالناس ، واشتد ألم بطنى فأحسست بالغثيان والدوران فى وقت واحد ، ولم

تكن هناك فرصة أقول فيها لأحد : أمهلني من فضلك . واستقر المصعد بنا على الأرض . وأشارت إلى إحدى السيدات بأن أساعد بنتها في لبس المعطف ، وكانت إشارتها قاسية جدا تحمل كل معاني السيادة فلما أعرضت عنها صرخت محتجة ، لكنه لم يعنني منها شيء ، أما الذي عناني فهو أن المدير استدعاني بعد فترة وقال بلهجة قاسية :

ـ أيها المغفل .. لقد ارتكبت خطأين : خطأ المخالفة ، وخطأ طرد الهبة .. فحاذر أن تعاودهما مرة أخرى . فذكرت ساعتئذ أننا عبيد نسود عبيدا وكلنا أذلاء ، لكنني اليوم قد قضى على أن أكون في الدرك الأسفل من العبودية .

وكان الدوار قد بلغ منتهاه ، حتى خيل إلى أنني أخاطب الرجل من طبقات مختلفة : أقول الكلمة الأولى وأنا في الدور الأول ، والثانية وأنا في الثاني ، والثالثة وأنا في الثالث ، ثم أهبط فأقول له الرابعة وأنا في الثاني والخامسة وأنا في الأول وهكذا .ثم لعل عيني برقتا بمعنى السيادة وأنا أقول ما أقول ، وإن كان جلد بطني مشدودا بشبع مؤلم . ورأيت المدير كأنه يهم أن يطردني ، فلم أشأ أن أستكمل المذلة ، فنظرت إليه من فوق كتفي وأنا خارج من المتجر وقلبي يهتف : ليحيى الجوع .

***

جعلت أوازن بعد أربعين يوما من إقامتي في « القاهرة » بين حالين لاختار بينهما : حال رجل يبيت في مأوى ولكنه جائع ، وحال رجل ينام جنب جدار لكنه شبعان ـ فلم أصل إلى نتيجة حاسمة .

على أنني عدت فاستعرضت ما قاله أنور أمين ، فقلت في نفسي : فلأجرب . وجعلت أنقب في المنطقة كلها عن مسجد تتوافر في خادمه الشروط المطلوبة حتى آوى إليه ليلة من الليالي . فرأيت في الأول خادما

عملاقا طويلا ناحلا ليس فيه شيء أقوى من عينيه . ووجدت فى الثانى شيخا كهلا مسنا لكنه يعتمد فى الخدمة على ولد له فهو يرى ببصره وذلك غير المطلوب . ثم قادنى شارع « درب الجماميز » المتلوى المعوج النكد الضيق ، الذى يذكرنى بدروب الحياة كلما عبرته ـ قادنى إلى مسجد صغير ، رأيت فى خادمه الرجل المطلوب : خيل إلى ساعة بصرت به أن عينيه لم تولدا معه بل قد ورثهما جارحتين مكدودتين عن أبيه الشيخ الذى مات ، غابت أحداقهما فى دمعة لاتجف وماتت أجفانهما فى مياه الفيضان وأحدقت بهما الحمرة فهو يتلمس سبيله بكلتا يديه .

رأيته عصر يوم ، وعدت إليه فى مسائه ، قضيت صلاة العشاء وكنت فى المصلين وآثرت أن أكون بجوار المنبر . وخرج الناس وجعلت أتلكأ ، وكان آخر ما سمعته فى ذلك المسجد المتوسط المساحة صوت رجل من العامة استوقف الإمام وهو فى طريقه إلى الانصراف ليستفتيه فى يمين طلاق حلفها على امرأته فجعل الشيخ يرسل فتواه محرجة كريهة حتى أطبقت على عنق السائل كما يطبق حبل المشنقة ، وقد جعلتنى أحس أن قوانين السماء لم تنزل لإسعاد الناس وأن قوة ناقمة خفية تعمد إلى أن تنفس ما بها فينا . ثم أخذ الصوتان يبتعدان حتى غابا عنى تماما بعد أن عبر صاحبهما الباب ، فلم أسمع إلا دق الخادم على خشب النوافذ ليتأكد من أن المصاريع مقفلة وكان على بعد منى فلجأت إلى جوف المنبر ، وكان ذا بابين على الجنبين ، فرأيت فى داخله على إشعاع الأنوار فى السقف سقط متاع للخدمة ، فيه مكانس قديمة وخرق وقباقيب وكيزان . وتنحنح الرجل كأنما يريد أن يوهم من هناك بأنه يراه وأنه بانتظار أن ينصرف حتى يطفىء النور ولكننى جثمت فى مكمنى أغالب أنفاسى . وأخذت الأضواء تختفى واحدا فى أثر واحد فلم يبق إلا مصباح أخير قريب من الباب كان آخر ما أطفىء ، وساد الظلام

وصر المصراع الكبير ليقفل وأدير فى غلقه مفتاح غليظ كان آخر ماسمعته فى هذه الليلة ثم أطبق سكونه كأنه سكون المقابر .

خرجت من جوف المنبر أستمع إلى دقات قلبى وأتحسس شعر رأسى الذى وقف جميعه . وتذكرت « أنور أمين » فدعوت عليه بكارثة ثم ندمت على أننى لم ألجأ إلى .. إلى ماذا ؟..! مقبرة ؟ لا بل عمارة جديدة . ولم يطلل بى الفكر فخلعت سترتى ووضعتها إلى جوارى وأخرجت البطانية الحائلة من الجريدة القديمة التى كانت تحت إبطى وأنا داخل المسجد وتمددت وألقيت الغطاء على جسدى . ولكن هل تظن أننى سأنام ؟! محال .

لم أكن أعلم حتى هذه الليلة أن للسكون صوتا يسمع . كان هناك أزيز خفيف مبهم ينصب فى مسمعى كأن الليل يحدث نفسه ، ثم شاءت الطبيعة أن تقسو على . فأرسلت من تحتى شراظا باردا نفثه البلاط فنفذ من الحصير الذى نمت عليه للمرة الأولى . ثم سمعت خفق الرياح فى أحد المناور، ولم ألبث قليلا حتى اهتززت بزمجرة الرعد ، وخيل إلى أن مخلوقا ضخما هائلا لست أعلمه يجد فى مطاردتى وأننى لاشك مهزوم ، فقمت أتلمس الطريق لأهتدى إلى زرار النور ، وماكدت أخطو خطوتين حتى تقلص جلدى بقشعريرة عظيمة وتوهمت أننى بعد قليل سأمسك بأنف شيطان وأنا أتحسس الطريق فى الظلام الدامس فاصطدمت بإحدى السوارى وأنا أتراجع فزاد ارتباكى ورأيت من الأفضل أن أعود إلى مكانى قبل أن تفصلنى عنه مسافة طويلة ، ولكننى قطعت كيلو مترات حتى اهتديت إليه . قلت فى نفسى وأنا ألف جسدى من جديد بغطائى الحائل وأستمع إلى زمجرة الوعد : أهكذا تطول المسافات علينا فى الظلام ثم تتبدل الأماكن ؟! ثم ذكرت مراقدى المختلفة التى تبلدتنى إلى هذا المرقد : ذكرت مرقدى فى ظلال أبى وأمى ، ثم مرقدى فى كنف أم مريضة لكن فيها أثارة من حنان ، ثم مرقدى بعد أن

زهدت في صحبتي وفصلت مصيرها من مصيرى ، ثم مرقدى على السرير المأجور الذى أرهقنى أجره فأسلمنى إلى هذه الضجعة . وأخذت نفسا عميقا ولم أكن أعلم أن الدنيا تمطر فى الخارج إلا حين أخذت قطرات من المطر تتساقط على الحصير من بعض نواحي السقف فترن فى سكون الليل رنينا أزعجنى أول ما وقع ، فدعوت على « أنور أمين » بكارثة !!

وأغنتنى هذه التجربة على أن أعاودها مرة أخرى كما أغنتنى تجربة المصعد على أن أسأل عن عمل ولو إلى فترة . فاستسلمت للحرمان مدة أطول وبدأ جسمى يتغذى بجسمى : فاتسعت بنيقة قميصى وشحب لونى الناضر وكل بصرى فلم أعد أرى إلى مسافات طويلة فعرفت معنى الشيخوخة وأنا فى الشباب وأدركت أن الحياة لقمة تدخل الجوف .

لكن ذلك لايعنى أن المشكلة قد حلت فإننى ما زلت فى موقف رجل يوازن بين المأوى والطعام ، ولعلك تدرك مشكلة المأوى يوما لأنك لم تتعرض لها .

وقفت بعد ليلة واحدة من تلك التى حدثتك عنها فى شارع درب الجماميز أسأل نفسى كيف أبيت ؟! لأن دراهم معدودة هى التى باتت فى كيسى . من خلفى سور مدرسة عال عتيق ، كالح حائل غسلت أمطار الأيام عنه بياض الجير ، وعن يمينى مصباح من المرافق العامة يضىء الطريق وكان يخبو وينتعش كأن فى جفنه سنة من نوم . وعن يسارى صندوق البريد الأحمر مثبتا فى الحائط . وعلى قيد أمتار من موقفى على الرصيف يأخذ الشارع فى الالتواء بحيث يغيب عنى كل سائر فيه . وقفت أفكر فى المبيت والدريهمات قليلة ، وكان كل مايقع عليه نظرى فى طريقه إلى « السكن» ويخب إلى « السكن » : فهذا بائع قصب يدفع أمامه عربة يد خاوية من البضاعة ليس عليها إلا الزعازيع التى تخشخش مع جعجعة العجلات ،

مشمرا أذيال جلبابه إلى ما فوق ركبته بمنديل ، وعليه شملة قديمة تدفع عنه رطوبة الليل ، ويمشي ملقيا ببعض خاطره إلى الطريق مستهلكا ما بقى منه فى أغنية خشنة لكنها تفيض بالسعادة يرددها لأنه « جبر » ثم هو فى طريقه إلى « سكن » .

وهذا « عربجى حنطور » يختفى فى منعرج الشارع . جلس على كرسيه العالى بملابسه التقليدية التى ترى أهم مميزاتها سترة واسعة ومنديلا يلفه على الطربوش فيغطى أذنيه . وهو جالس فى تهالك المرتاح يسوق جواديه فى تسامح وفتور بعد كد النهار ، وهما متفاهمان معه تحت فرقعة السوط الخفيفة على أنه لا داعى للعجلة فإنهما ساعداه منذ الصباح على رزق أربع وعشرين ساعة . ثم هو بعد ذلك كله فى طريقه إلى «سكن » !

وتلك متسولة عجوز فى يمناها عصا وفى يسراها بنية شعثاء غبراء تقود خطاها عائدة بها وعلامات الرضا بادية على وجهيهما لأنهما وإن دارتا ولفتا طول النهار وجزءا من الليل ـ آخذتان طريقهما إلى « سكن » ! .

حتى الهررة والكلاب يبدو على وجوهها أنها تقصد إلى مكان بعينه معروف مألوف لأنها سائرة لا تتلفت !!

إلا أنا وحدى فقد كنت واقفا فى المنعرج أقلب وجهى فى السماء ثم أرمى بنظراتى على الأرض ثم أنظر صندوق البريد من ناحية ومصباح الشارع من ناحية أخرى ، حتى إذا ما بدا لى أن عينى ستأخذهما غفوة وأحسست لذعة البرد واستدرت ميمما « لوكاندة السيدة زينب » لأنام .. ثم يدبرها من لاينام !!

فلما دخلت على صاحبها الشيخ المسن الساهر أومأت بالتحية فأومأ إلى بيده لأن نوبة حادة من سعال الربو كانت تجلده فى هذه اللحظة .

وأصبح الصباح فعن لى أن أفحص متاعى ، ولست أدرى لماذا ؟ ولكن

لعل السبب هو أننى كنت وحدى فى الغرفة . فتحت الحقيبة وجعلت أعد قائلا : بذلتى الثانية .. قميص .. بذلة أبى رحمه الله .. معطفه !! ساعته!! ووقفت عند الساعة لأن معدتى أمرتنى بالوقوف ، ثم أبرقت إلى مخى لتسأله : لماذا لاتباع هذه الساعة ؟! الراقدة فى قاع الحقيبة كما يرقد الجثمان فى التابوت ولعلى كنت كمن يسأل : هل أبيعها ؟! وخيل إلى أن ملامح الرجل تقول : لست أدرى يابنى .. والله إننى حائر ! لكننى انتبهت بغتة إلى منديل نسوى فى قاع الحقيبة ، نظرت إليه بذهول لأنه أحد مناديل أم مختار التى كنت أراها فى يدها فأى ريح رمت به فى هذا المكان المعادى ؟؟ ثم زال عجبى حين تذكرت أنها خلعته على وهيبة فى يوم ما ، لكننى عدت أسأل نفسى عن سر وجوده ، وأمسكت به فألفيته معقودا على شىء . فجعلت أحل العقدة بيد راجفة حتى رأيت ماجعلنى أستغفر الله للمذنبين والقاسية قلوبهم على أديم الأرض ، كل ذلك من أجل وهيبة التى خلعت قرطها الذهبى وربطته فى المنديل وأودعته أحشاء الحقيبة حتى تعثر به يمنى فى ساعة العسر ؟؟

جعلت أناقش الأصل مرة أخرى وأسأل نفسى عن أحجية يدعوها وأطلقوا عليها اسم الأصل والمحتد . ثم هتفت قائلا : تعالوا وازنوا .. هذه خادم ، وتلكم هى أم !!

واستبشرت بالهدنة التى جاد بها على الزمن فأجل زحفه بالنار والحديد، ومررت فى طريق خروجى بالحاج « مرسى » صاحب اللوكاندة فسألته عن حاله فشكر الله بملامح تشى بالألم فقلت له :

ـ صبرا يا عم الحاج فقد كتبت علينا الحياة .. نعم صبرا فإنها دنيا متاعب ، فلاتحزن .

وتبسم الرجل وهممت أن أسير لكنه استوقفنى فى تعطف ثم طلب إلى

الجلوس فى حنو وحدب أثلجا صدرى لأننى شعرت أننى حيال قلب يرثى لبلوى الناس .

كانت لحيته مرسلة وبائع السواك خارجا من بين يديه منذ ثوان وعلى المنصة أمامه عدة أعواد منه مختلفة الأطوال ، وتفوح من أردان ثوبه رائحة عطرية ساذجة لكنها جميلة من تلك التى تفوح غالبا فى أضرحة الأولياء وبين رواد المساجد . ومال على عم « مرسى » يستوضحنى جلية أمرى قائلا لى :

ــ يخيل إلى يا بنى أنك مختلف مع أهلك لأن مثلك لا يزال مكفولا وأن هوة الخلاف بينكما لاتجد ساعيا بالإصلاح ، فهل أنا صادق الفراسة ؟

فهززت رأسى بالإيجاب ، فاستطرد يسأل :

ــ وهل تنوى العودة إليهم ؟ إنك فيما يبدو طالب انقطع عن الدراسة : وجه طالب ، وزى طالب ، وهيئة شاب لم يصطرع قط مع العيش الخشن .

قلت موجزا :

ــ كل هذا صحيح .

فقال :

ــ وماذا تنوى أن تفعل ؟

فأجبته :

ــ سأهتدى إلى عمل ما ، فلن أعود .

فسألنى بحنان وهو يتحسس لحيته :

ــ وأين أبوك ؟

فأجبته :

ــ مات من زمن !!

فأمسك شعر ذقنه بعنف كأنما خشى أن تسقط بينة ثم التمعت عيناه بالحب .. حب الإنسانية كلها ، وعاد يحاور :

ـ وأمك ؟

فأطرقت نحو الأرض وتحركت شفتاى دون أن تقولا شيئا دارتا على «الفاضى » كأنهما آلة !! وأحسست سخونة تلهب صوانى أذنى وبقيت هكذا إلى أن سمعته يهمس :

ـ تزوجت ؟

« وكان يسأل عن أخف ما يحدث » فأومأت برأسى أن نعم . فقال مسليا :

ـ حوادث عادية تقع لكثير ، لكن الإحساس المرهف يخرجها عن حقيقة أمرها فيعتبرها منكرا .

فتنهدت ولم أجب وأحسست أننى بلغت قمة الراحة وكأن الأحمال الثقيلة التى أنقضت ظهرى قد استحالت بغتة إلى ثوب من الحرير . ولم تطل فترة الصمت فقال الحاج « مرسى » :

ـ عندى فكرة .

قلت :

ـ مرحبا بها .

فقال :

ـ تجلس مكانى على هذا الكرسى ككاتب للوكالة حتى ييسرها الله لك .

فنظرت إليه باسما وقلبى يدق ، وزايلتنى آلام الجوع والنقمة فى لحظة قصيرة وعجبت كيف يستطيع الزمن أن يدبر أمر الطعام والسكن فى نفس واحد . لأن الحاج « مرسى » كان يشير إلى حجرة صغيرة ذات واجهة خشبية أقيمت تحت منحنى السلم بعد « باب الوسط » الذى قسم مدخل المنزل إلى قسمين أحدهما خارجى مباح والثانى داخلى مكنون.وكان فى الحجرة سرير

قديم صغير . لكنه سرير . وغطاء يصلح للصيف والشتاء . وتبع هذه الحجرة مرتب ثلاثة جنيهات لايدخل فيها أجر المسكن . وقال لى الحاج « مرسى » يوم سلمنى كرسى الإدارة :

ـ آن لى أن أستريح اليوم لأن نوبات الربو أقلقت شيخوختى.دعنى أعتبرك ابنا ، أبقاك الله ، لأن الموت كان يتربص لأولادى عند مدخل السادسة عشرة من أعمارهم !!

ـ ٨ ـ

لم أعد بعد وظيفتى هذه أقتات بالحلبة الخضراء ، وأنا منزو عند مدخل الحارة لأتوارى من الناس ، ولم تعد يدى تنازع فمى جذورها حتى لايلتهمها مع مايلتهم . ولم أعد أشد الحزام على بطنى ، ولم أكن دفا بعد ذلك يأكل البطاطا مع اللبن ، بل أصبحت إنسانا يأكل ثلاث مرات فى اليوم، ويرسل من فوق كرسيه نظرات فاحصة من عينيه الجميلتين إلى من عسى أن يرتاب فى شأنه من رواد « اللوكاندة » ، وكثيرا ماكففت شرة الإمارة وذكرت الماضى القريب التعس ، وأنا أرشد الخادم إلى بعض واجبات أغفلها.

إنها الحياة ياصاحبى ، إنها الحياة !! أشد مانكون تعلقا بها ، أشد مانكون بؤسا فيها ، وإلا فلماذا نطلب اللقمة فيها بالعنف أو بالحيلة حين يعضنا الجوع ؟ أليس ذلك راجعا إلى أننا نقبل الحياة وهى تركلنا ، وننضحها بالعطر وهى تقذفنا بماء النار ؟! أظن ذلك .

وحين أصبت أمنا من خوف وشبعا من جوع ومأوى من ضلال ، فكرت هادئا وفهمت فى تبصر . ثم اتخذت قرارا نهائيا ، فى الواقع مفروضا

على ، وهو أننى لن أعود إلى بيت أبقت منه ؛ على أنه كان ينبغى أن أسأل نفسى : ومن ذا الذى كان يتطلب عودتى ؟ لكننى هربت من السؤال ومن الإجابة فى وقت واحد . واستقررت فى موقفى كما تنقطع ذبذبة الشىء ، تلقيه على الأرض بعد فترة من الزمن . وبدا لى أن أتطلع إلى آفاق الحياة بعد بضعة شهور أقمتها فى العاصمة ، وتمنيت أن أحظى بشيئين اثنين أقسم بعدهما للزمن أننى لن أستأنف مطالبته مرة أخرى : عمل حكومى ، وحجرة لها نافذة تطل على حارة ، أنقل إليها متاعا قديما وأنظر من شباكها إلى الدنيا ، فأخلص من مقبرتى تحت السلم ، ثم أعلق على أحد جدرانها صورة أبى ، ويهنىء كل منا صاحبه بالفرج بعد اليأس والحرية بعد العبودية، وهذه هى مآربى !

أما شئون قلبى فإنها توارت مؤقتا عن خشبة المسرح وجرت إلى الداخل ، وإن كان حبى « لسكينة » خلية كمنت فيها الحياة حتى تمر العاصفة و « عجب الذنب » الذى ترقد فيه إلى يوم البعث . فلولا .. « سكينة » لكرهت النساء . ثم ما لى أنسى « وهيبة » التى لم تكن تتردد فى أن تمنحنى بكل مايسعد !!

واقتصرت شئون قلبى على تبادل الرسائل بينى وبين أسرة عم « خليل » وأعترف لك أن عدة منها جاءتنى فلم أرد عليها إلابعد أن اشتغلت كاتبا فى النزل . أعنى بعد أن صرت أنظر إلى خمسة المليمات على أنها ليست كارثة .

وآخر أنباء هذه الأسرة أن « البسطامى » سينقطع عن الدراسة بعد هذا الصيف ، وسيأخذ فى مساعدة أبيه فى أعمال الحقل ، وأن شابا من مركز أبى المطامير طلب يد « سكرة !! » قلت فى نفسى وكأننى فى حلم : ما لى أنا « ولسكرة » فأنا لاأعرف إلا « سكينة ! ثم تبسمت فى مرارة ووضعت

القضية في الميزان أمام صنجات مختلفة قلت : لعلهم يشيرون في رغبة الرجل في احتجاز امرأة وهذا هو أقسى الفروض . ثم لعلك تذكر ما قد أعربت لك عنه في أحجية المحتد ، ومعنى هذا أن حائلا اجتماعيا قد لايقوم بيني وبينها. ولكن المسألة مسألة مستقبل !!

كانت سفينة حياتي فيما مضى مسيرة بدفتين اثنتين إحداهما في يدي والأخرى في يد « أم مختار » ، وكان من المستطاع في سالف أيامي أن أتهمها - ولو بيني وبين نفسي - بأنها هي التي أغرقتني . كما كان من الميسور عليها أن تنحو علي باللائمة وبمثل هذا الاتهام . أما الآن فالدفة في يدي وحدي وأنا المسئول ، فعلي أن أنظر الأفق ، وأن أحاور الموج وأنازل الريح ، ثم لاألوم أحدا . لذلك وجدت الزواج فكرة سخيفة ، بل والارتباط بأي وعد فيه ؛ لأنني رحمت الناس : رحمت فتاة عادية كانت أو حبيبة ، أن أربطها بعربتي الهالكة أو بحظي العاثر ، ولم أرض لها أن تقاسمني حزام بطني حين أشقه فيشد كل منا على بطنه نصفا . ورحمت أطفالا سأحبهم كثيرا ، من أن ينظروا إلى نظرات متوسلة فيها ضعف وبراءة .. ثم يطلبوا مني طعاما أو لباسا وأنا عاجز !! أستغفر الله ، بل إني رحمت نفسي فإن قلبي الذي ذاق الحرمان من حلوى الحنان ، لايقوى على تعذب وليد ، ورحمت المجتمع كله أن أهدي إليه مرضى جسوم أومرضى قلوب فأمد السجون بنزيل أو أمد المستشفيات بمريض ، ولم تلح على فكرة الزواج بعد ذلك لأني اتهمتها بالسخف فضلا على أنني كنت فاقدا ثقتي بنفسي فإن امرأ يعجز عن تدبير شأن واحد لهو أعجز عن تدبير شأن مجموع . وتدخل البعد بيني وبين التي أحببتها في الموضوع فأحال أمرنا إلى ذكريات يسترجعها خاطري كل عدة ليال حين أستلقي على فراشي في الحجرة الصغيرة التي أقيمت تحت منحنى السلم ، وتأخذ الذكريات في هدهدتي حتى

أنام بعد عمل يدوم حتى منتصف الليل .

***

لم أكن متذمرا لأنني وجدت كل شيء أخف من الجوع !! وكان الحاج « مرسى » بارعا فى معاملتى ، يدفعنى إلى العمل العنيف بالرفق الشديد ، ويدعونى « بابنه » فتفعل الكلمة فعلها فى قلبى فأبذل مايبذله البررة من البنين .

ودرجت الحياة تافهه عادية تجرى وقائعها بالنسبة إلى فى بضعة أمتار مربعة بين « باب الوسط » وأول درجة من درجات السلم المؤدى إلى غرف النوم فى نزلنا الصغير . لكن الأيام كانت تنزلق فلا أحسها . كنت أشبه بمن سكت عنه ألم طال حتى أطار نومه وبعثر أعصابه فاستسلم المسكين إلى سبات عميق . وقد كنت نائما بلا مبالغة وامتدت نومتى عشرة شهور أو يزيد ولم يوقظنى منها إلايد حركتنى مصادفة واصطدمت بى بلا تدبير تلك هى يد « أبو الفتوح » وهو شاب من لداتى تعرفت به على المقهى القريب الصغير الذى يقع فى الميدان .

كنت أخطف ساعة للراحة فألوذ بالمقهى حيث أقتعد كرسيا ألقى عليه بجسدى لألقى ببصرى إلى الميدان فأطالع وجوه الناس وأخمن مايدور فى رأس كل منهم ، ثم أفترض لكل واحد مشكلة خاصة أرى مايكون حلها ، وتمر الساعات فلا أكاد أشعر بوجودى حتى أبصر بالخادم يطلبنى لبعض الشئون ، وفى هذا المكان تعرفت « بأبى الفتوح »

عمله الحقيقى ساعى بريد لكنه لحرصه على كرامة خيالية لاتقوم إلا فى ذهنه يقول : إنه موظف محترم فى المصلحة ، حتى إذا جابهه أحد عارفيه بأنه لقيه مصادفة وهو يوزع الخطابات على البيوت فى « الزمالك » ، استدرك بأنه يحدثه عن شأنه منذ اليوم قاصدا أنه كان ساعيا حتى أمس

فقط ، ولم تجر قاعدة القدم الأزلية على قصته هذه لأنها بقيت جديدة كأنها تولد كل يوم .على أنه كان ينسى المهموم همه ، ويسلى المحزون عن أحزانه، دعه يتدفق بالحديث ثم لاتحل بينه وبين الكلام تسمع أشياء عجيبة : يبنى قصورا ثم ينسفها ، ويقيم حكاما ثم يعزلهم ، ويخطب ويتزوج ويطلق ، ويقيم ويسافر ، ويكاد يحيى ويميت ، كل هذا فى ربع ساعة . تلمع عيناه لك بالود والحب طالما هززت رأسك بأنك موافق ، أما إذا حدث العكس فإنك ترى منه زمجرة مضحكة واتهاما بالغفلة من سيد المغفلين .

غير أن التلذذ شيء نسبى ، كامن فينا لا فى الأشياء التى تصادفنا . فإذا كان « أبو الفتوح » لايعجبك فإنه يروقنى إلى حد كبير . كان الملهاة الرخيصة والمسلاة الوحيدة القريبة فى نطاق حياتى وكنت أضحك منه كثيرا حين يتوقف عن إلقاء حبات النرد فى المستطيل الخشبى مدة أطول من الضرورة حتى يفرغ من قص حكاية . خياله أوسع من خيال طفل لكنه شخصية صادفتنى فى الجذب . وحركتنى يداها لأستيقظ من السبات يوم قال إنه موظف بالابتدائية ، فأجبته وأنا راسب فى الكفاءة . فرد على مسفها قولى : ولماذ لاتقول إنك من الحاصلين على الابتدائية مثلى تماما ؟ مامعنى التمسح بشرف لم تنله ؟ إن الغرق فى وسط النيل هو نفس الغرق على مقربة من شطه .. كله موت . العب .. شيش بيش ، لكن قل لى : لماذ تشغل هذا العمل التافه ومعك مثل هذه الشهادة المحترمة ؟! دعنى أقترح عليك أن تقدم طلبا لمصلحة البريد . ثم سكت وقال بعد فترة : وستكون بعون الله ومساعدة أخيك مقبول الطلب . ففعلت وتقدمت إلى الوظيفة على أننى راسب كفاءة على الرغم من صديقى « أبو الفتوح » وتولى هو السؤال عن النتائج فى زمن كان لايوظف فيه إلا ذوو الجاه والوجاهة . ويحدث مالم يكن فى الحسبان حين يدفع على « أبو الفتوح » باب الوسط فى اللوكاندة عصر يوم

والفرح يبعثر حركاته فى كل صوب ، ويميل على أذنى ليهمس فيها : مبارك . فانتفضت فى مجلسى وقلت غير مصدق : أحق ماتقول ؟ فأجابنى بزهو شديد وهو يشير بكفه إلى صدره : أتظننى ألهو ؟ .. اطمئن يا بنى فإن لك رصيدا من الرجولة الفذة فى (بنك) « أبو الفتوح » . ثم اندفع يقبلنى حتى إذا ماكف أبلغنى ضرورة مرورى غدا على الكاتب المختص بنفسى لعمل اللازم . ولم ينس أن يخبرنى أن مرورى بشخصى سيؤدى إلى اختصار الإجراءات . وقد تفضل كذلك ورافقنى إلى هناك لأن جهلى بهذه المواطن كان مطبقا جدا .

وتسلمت عملى كساعى بريد فى مكتب باب الخلق فى زمن عزت فيه الوظائف ، وقد كان هذا العمل على علاته مدعاة إلى انتباهى للحياة فرأيت لها سياسة مرسومة وإن خدعنا فظننا بها شيئا من الفوضى ، ولعل أدنى قوانينها الدائمة وأبسطها هى أنها تعطينا المجن قبل أن ترمينا بالحجارة : فهى تكسو الطير ريشا لأن الطير لن تنسج صوفا ، وتمنحنا بشرة ناعمة ملساء لأننا سنسكن البيوت ونخيط الملابس ، وتشقينا بمصادفة وتسعدنا بأخرى . وقد قيضت لى أما غير حنون وأبا قصير العمر وزوج أم استولى على بقية حنان كان يخفق به قلب امرأة فكان هذا جميعه مدعاة لهربى ، لكن مسلك صديق عارض عوض على شيئا مما كان قد ضاع !!

ودعت الحاج « مرسى » ودعوت له بالبركات وودعت حجرتى المحبوسة تحت منحنى السلم وذكرت البعث بخروجى منها كما ذكرت الدفن بدخولى فيها ، على أننى مازلت أحتفظ لها بالذكر الطيب والجميل الباقى فقد كانت أرفق من مسجد درب الجماميز ومن مبيتى فى العراء أو إحدى المقابر .

وبررت بوعدى للزمن فغفرت له كل ذنوبه بعد أن نلت ما اقترحته عليه، وكانت فرحتى عظيمة كبرى يوم دخلت سكنى الجديد ، تشبه فرحة الذين

استردوا أوطانهم بعد أن أجلوا عنها فعانوا مذلة التشريد ، وكان أول عمل أتيته هو أننى علقت صورة أبى على أحد الجدران بأناقة وحرص وأناة .. ومهل ، لأننى كنت أتلذذ بما أعمل ، ثم تراجعت إلى الخلف حتى أرحت ظهرى على الباب ووقفت أنظر إليه وأتأمل وأهز رأسى يمنة ويسرة وأمصمص بشفتى فى عجب شديد ، حتى لكأننى بعثته قبل يوم القيامة ، ثم شرعت فى ترتيب متاعى وتنظيم مسكنى .

كانتا حجرتين متداخلتين على سطح بيت كبير ، تقع مرافقهما غير قريب منهما هنالك فى إحدى زوايا السطح . فى حارة « ش » القريبة من باب الخلق ذات الطابع الشخصى العجيب الذى يميزها عن بقية الحارات والأزقة التى قدر لى أن أراها .. سمة الضيق والانحدار فى مقدمة مشخصاتها ، ودعك من التعاريج لأنها لم تكن كثيرة . لكن الذى يجب أن أذكرك به هو بيوتها الموقوفة ، وقد كانت موقوفة حقا لأنها لم تمش فى ركب الزمن . وبعض هذه البيوت يتبع وزارة الأوقاف وبعضها الآخر يتبع البطركخانة .. وكلها فى التهالك والتهدم سواء . أما المنزل الذى كنت أنا من سكانه فإنه يتبع صاحبه فلم يكن موقوفا ، كنت فى طبقته السادسة التى يسرت لى أن أرى من نافذة مسكنى القمىء المنزل الكبير التابع لوزارة الأوقاف المؤلف من طبقتين ، أراه تحت بصرى وكأنه شيخ غيركريم الشيخوخة غريب بين أبناء الجيل . تحمل « خارجات » بنائه على كتل من الخشب قوسوها على هيئة ظهور محنية فلما أثرت فيها عوامل الجو وكستها لونا كابيا كئيبا جعلت تلقى فى نفوس الناظرين شيئا من الانقباض والوجوم ، ولست أدرى ـ ولعله شعور شخصى ـ لماذا كنت أذكرالظلم كلما رأيت هذه الخشبات ؟! وأغرب من هذا وذاك ، تلك الشجرة العتيقة التى كأنما أدركتها لعنة الواقف ، غرست فى الفناء الواسع وكانت من نوع دائم الخضرة لايسقط ورقه طول

الفصول . ولكنها أخذت منظرا بين بين ، فأصاب الشلل شقها ، وسطا الضعف على شقها الآخر فقامت بين أشجار الأرض لا تنتمى إلى فصيلة حتى خيل إلى - وإن لم أكن رأيت - أن الأطفال الذين يأتينى صوتهم فى بعض الأحيان وهم يلعبون تحتها - ذوو سحن غريبة ، حتى يتسق المنظر فى كل جزيئاته .

لم أكن أشعر بانقباض حين ألقى نظرة على هاتيك المبانى بقدرماكنت أسبح فى تأمل ، وأذكر نعمة الله بثوبى الوحيد حين أرى قوما عراة من الأثواب .

وقد يستوقف نظرك ساعة تعبر الباب الكبير للبيت الذى أسكنه ، فناؤه المسقوف المظلم الكبير الواسع الذى لاينفذ إليه النور إلا من مسقط السلم وفتحة الباب ، ثم تأخذ أنفك رائحة عميقة تنبعث من الحجرة الأولى على اليسار لأن ساكنها سروجى اتخذها مسكنا ومصنعا ، فعبقت بريح الجلد التى تشمها إذا اقتربت من سرج نظف قريبا . أما الحجرة التى تليها فقد قبع على مقربة من بابها شاب ناحل يلبس منظارا تخين العدسة لأنه ضعيف البصر يحترف لجارة أدوات الموسيقا . كنت أراه فأطيل إليه النظر لأنه كثيرا ماكان يحتضن هيكل (عود) لما تركب عليه الأوتار بالطبع ، لكنه كان يدندن وهو يجرى على خشبه ورقة « الصنفرة » حتى تشك فى أنه يعزف .

وبعد هذا وذاك أسر وأطفال ونسوة وخدم . أخلاطا من الناس !! لا تؤاخذنى إن أثقلت عليك فى وصفه فإنه أول مسكن أظلنى سقفه !!

وجعلت أهبط كل يوم فى طريقى إلى عملى منحدرا يصب فى باب الخلق عند مدخل أحد الشوارع ، أفعل ذلك فأذكر صديقى « أبا الفتوح » فأدعو له بالستر !! نعم . وقد اخترت هذا المعنى عمدا لااعتباطا ، لأننى كنت أشبه بالعورات التى يجد فى سترها الفاضلون !! وقد أحس صديقى

هذا بلاغة تقديرى لفعله فاستغل موقفى منه استغلالا جعلنى فى بعض الأحيان أذكر الذين يفسدون صدقاتهم بالمن والأذى .. لكننى مرنت على الاحتمال حتى ظن فى طبعى بلادة فاحتملت الصديق على علاته وأصبحت تابعا لتابع ، كأنى اتخذت موقف « وهيبة » التى كانت تقول لى : ياسيدى وأنا أذل خلق الله ، فماأقسى قلوب الناس !!

لم يكن يقول لى شيئا حين يبدر منى ما يعتبره هوتخلفا عن المعونة فى أشياء تافهة ولكنه كان ينظر بعينين تقولان لى : هل نسيت ؟! فكأن الأمر لم يكن مد يد إلى ضعيف منكود بل كأن « أبا الفتوح » قد وقف منى على عورة أخفيتها عن جميع الناس .

ويمر عام آخر واندمج فى حياتى الوظيفية اندماجا كاملا شأن هذا القطيع العظيم من أولئك الناس الذين يصبون ذوب نفوسهم ونور أبصارهم على المكاتب . يمر العام فيجد لى شأن أرانى مضطرا معه أن أذهب إلى المصلحة لكى أسأل عنه وأظنه كان نقلا من مكان إلى مكان . واخترقت بهوا طويلا فى إدارة المستخدمين صفت على جانبيه أصونة نصف أبوابها خشب ونصفها زجاج رقدت فيها ملفات لخلق الله رقد عليها التراب ، لعلهم ماتوا ، أو لعلهم أحياء تخلت عنهم العناية فماتوا ولم يدفنوا ، وأدى بى الممر إلى حجرتين كان الكاتب المختص فى واحدة منهما .. ودلفت إليه فألفيته سمينا بدينا ينحشر فى كرسى ذى ذراعين ، وكان مكبا على ورق أمامه معملا قلمه فيه . وألقيت السلام فغمغم بنصف الرد ولم يرفع إلى وجهه ، فاستأنفت قولى هاتفا : من فضلك !! فقال بعدم اكتراث : قل يا سيدى ! ولم يجد على بنظرة . . قلت : أنا « مختار على » الـ ... وهنا رفع إلى وجها غليظا محملقا جاحظ العينين ضيق الجبين تزحلق عنه طربوشه إلى الوراء . ثم سأل باهتمام مزعج : تقول من !! قلت : « مختار على » الساعى بمكتب باب

الخلق . فتنفس طويلا حتى خلت أن صدره كان مزحوما بالبخار وقال : أهذا أنت يا سى « مختار على » ؟ ياسلام ؟ أى ريح خبيثة طوحت بك إلى هنا ؟! ففغرت فمى من الدهشة وبدا على ما لعله زاد فى غضبه لأنه صاح : ألا يعجبك هذا ؟ (الله يخرب بيتك) كما عرضت بيتى فى يوم من الأيام لإعصار الخراب . فقلت له مصححا : أنا يا سيدى أدعى « مختار على » .. هل تسمعنى ؟ فقام عن مكتبه وخرج من الحجرة حتى يحسم الموقف ولم ينس أن يقول للموظفين من حوله وقد كانوا يكتمون الضحك : اشرحوا له الموضوع ، لأننى لن أطيق . ورحم أحد الموظفين أعصابى فأفهمنى الأمر ، وفحواه : أن تشابه أسماء وقع أيام تعيينى وأن شخصا آخر كان يدعى « مختار على » من غير سكان العاصمة أوصى عليه أحد النواب ثم سافر وكان طلبى بين يدى الموظف قبلها بيوم . وكان لمرورى الشخصى بدون مراسلات على العنوان فضل فى أننى جنيت ثمرة الغلطة . وعينت فى مكان « مختار على » دون قصد ولا نية . وكان « مختار على » الآخر لا يزال فى انتظار سفر النائب إلى « القاهرة » مرة أخرى . وتمر الشهور ويثار الموضوع وتتراجع المسئولية شيئا فشيئا حتى تستقر فى أكثر الأماكن انخفاضا عند هذا الموظف الذى ثار فى وجهى ، ودعا على بيتى بالخراب !! خرجت من مصلحة البريد وأنا نهب لشتى خواطر ، ذكرت المصادفات التى تسعدنا وتشقينا . والغلطات التى ترفعنا وتخفضنا ، وابتسمت لحسن حظى فى هذه الموقعة وما كان مرجعه إلا أن هناك « مختار على » أسوأ حظا منى، وذكرت الجميل الموهوم الذى خنقنى به « أبو الفتوح » فترة من الزمن . فرفعت إلى السماء عينين دامعتين تشكران الله !!

وشاءت المصادفات ألا تكف لتستكمل المقادير شوطها المرسوم ، فمرت أسابيع قبل أن تسوقنى ظروفى إلى أحد الشوارع المأهولة فى العاصمة .

كنت سائرا لا أدرى فيم أفكر لكن الذى أدريه هو أن أفكارى كانت متسابة انسيابا عاديا كتقلة قدمى فى حركة المشى . والناس عن يمين وشمال تمر أشباحا لا تتوقف إلا إذا اصطدم إنسان بإنسان . لكن امرأة وقفت فى طريقى معرضة حتى لا أمر وهتفت بى وكأنها تحلم : آه .. سيدى .. سيدى « مختار » !! فتراجعت فى طريق الماضى وطفحت نفسى بذكريات كثيرة كان فيها أننى مدين لقى دائنة على غير انتظار وقد كانت «وهيبة » دائنا كريما . كانت تطوق عنقى بديون فيها الذهب ، وفيها ماهو أغلى من الذهب .. فيها حنان جادت به على فى زمن مجدب ودهر عاصف . قلت وأنا أهتف من كل قلبى . « وهيبة » !! وصافحتها كأننى التقيت بأخت ولم تستطع كلمة « سيدى » أن تحفر بينى وبينها هوة كما تفعل عند الناس .. خرافة !

ولم تكن فى ثياب الابتذال بل كانت فى زى آخر النهار ، وهو ثوب من الحرير الغالى ينادى صنفه بأنه كان من قبل يحلى جسدا ناعما وأنه يقضى الفترة الثانية من عمره على جسد لخادم ، ثم يمر فى الفترة الثالثة يوم تلبسه هى نفسها حين تزاول أعمال الكنس والمسح والغسيل . ورأيتها فى نضرة أقل من التى كانت تتمتع بها فى « الإسكندرية » فى ظلال عربة الترمس والأنف الملتهب ، وسر ذلك كما علمت بعد أنها تقوم الآن بخدمة أسرة كبيرة فى المكانة والعدد وأن ذلك يقتضيها جهدا أعلى وإن نالت كفاء، أجرا أغلى . وانزلق بنا الحديث إلى الماضى وفتحت لها الباب بسرعة حتى أعلم منها ما قد يسوؤنى أن أعلمه . أعنى الحوادث التى وقعت بعد اكتشاف هروبى .

وعلمت منها أن « أم مختار » لم تفقد غريزة الأم وإن فقدت حنان الأمهات فإن وسواسا ركبها مساء ذلك اليوم حتى بدت كأنها مهمومة ، كان من طبعى أن أتأخر عن مواعيد المدرسة فلم يكن تأخيرى حادثا جديدا ،

ولكنها دخلت حجرتي عند هبوط المساء فرأت من وضعها أن كل مافيها ينادي بالفرقة . وجاءت « وهيبة » على صرختها وسألتها عن الخطب متظاهرة أنها لم تكتشف شيئا ، فما كان من « أم مختار » إلا أن قالت لها : أحتى هذه الساعة لم تدخلى لتنظيف الحجرة فترى أشياء غابت تدل على أن ساكنها رحل ؟ فبرهنت « وهيبة » على صدقها بأن آثار الغبار لاتزال في كل مكان وأن مكنسة لم تعمل فى الحجرة ، ومدلول ذلك أنها لم تدخل ، وقد فضلت الفتاة أن تتحمل عقوبة الإهمال فهى أخف بكثير من عقوبة التستر . ودارت « أم مختار » فى أرجاء الشقة تصخب وتصب وتلعن وتبصق تحت قدميها بين فترة وفترة . على أن زمام الدمع غلبها بعد قليل فأجهشت بالبكاء ولكنها لم تقل فى أثنائه « آه يا بنى » ولو مرة واحدة . خيل إلى أن بكاءها كان أشبه بدمعة المهزومين فلقد كنت فى بيتهم أقرب فى وضعى إلى أسير هرب تحت جنح الظلام ، ثم كفت عن البكاء وعادت إلى الصخب ، فنصبت من نفسها دفاعا واتهاما وقضاء فى وقت واحد . كانت تقول : إنه خطر ..إنه ذو بدوات ، لندعه للزمن فإنه كفيل بتأديبه . ثم تسكت لتستأنف المناجاة من جديد : مسكين !! إن أمثاله يخلقون لأنفسهم المتاعب ، ثم تحكم فى القضية قائلة : إذن فليلق جزاءه العادل جوعا وتشريدا.

وتكف « عربة الترمس » عن الهذيان ساعة تعرف دقة « صاحبها » على الباب لتلقاه بوجه عليه قناع من البشاشة والبشر والراحة ثم يجلسان إلى العشاء فيتحدثان فى شئون عامة ثم تنهى الحادثة إليه آخر الأمر بطريقة من يخبر رجلا عن مأساة مخلوق لاتربطه به علاقة .

وتدرج الحوادث بعد ذلك فى كفن النسيان كأنما كانت الدموع التى بذلت ليلة هروبى من نوع تلك التى يذرفونها يوم وفاة مريض فقير شيخ

ثقيل ، عاش فى الحياة أمدا طويلا وأرهق كافليه بنفقات كثيرة .

ثم عرجت «وهيبة » بعد ذلك فذكرت أخى لأمى وقالت إنه الآن ابن عامين . فجعلت أتصور الوليد الجديد الذى أجبرتنى تصرفات أمنا المشتركة على أن أخلى له المكان كأنه لم يكن يسعنا معا ، وتركت « وهيبة » تفيض فى أحاديث لم يكن يهمنى منها الكثير وأخذت فى تصور وجه هذا الغلام الذى أنجبته امرأة جميلة ورجل دميم المنظر حتى ذا ما انتهيت من مهمتى كما تنتهى الطفلة من صنع عروس من الورق أردت أن أسميه ففطنت إلى أن اسمه الحقيقى أولى بهذه الصورة فلما سألت« وهيبة » عنه أخبرتنى بما أزعجنى ، وبما جعلنى أحس نفورا خفيفا من مخلوق أضعف منى لم تنلنى إساءة منه ، قالت الفتاة وهى تبتسم وتطرق نحو الأرض : اسمه .. ، اسمه « عباس » يا سيدى !! فلم أستطع أن أكتم ضحكتى فضحكت !! نعم ضحكت كما نضحك من أنفسنا حين تزل قدمنا فنهوى إلى الأرض على مشهد من المارة . ثم قلت بصوت مسموع وكأننى أناجى نفسى : هذا غريب حقا .. ألم يكفها « عباس » واحد !؟ ثم جعلت أهز رأسى فى تعجب وأسف.

نفضت « لوهيبة » ملخص حالى وأننى أصبحت موظفا فتنهدت تنهد الراحة . لكأنما ذكرت ليالى الخوالى وأيامى السود وشعرت أكثرمما شعرت أنى كنت واغلا على طعام هؤلاء الناس ، فحمدت الله الذى كفلنى وأطعمنى وآوانى وحررنى من العبودية . ثم أخبرتها أننى أسكن حجرتين متداخلتين فى حارة « ش » وأننى مدين لها بثمن قرطها الذهبى وإن كان مغزى عملها لا يقوم بمال . فابتسمت إلى وأقبلت تنظر بأعينها الحولاء فى سعادة ورضا وهى تقول : لقد تمنيت يومها ياسيدى لو أننى أملك ذهب الأرض .. ياليت !! ثم ساقت مثلا مشهورا « ليت لنا عند الكرام حسبة » ياسيدى

مختار » . وتنقضى بضعة أيام تزورنى بعدها « وهيبة » فى إجازة تأخذها من سادتها ، تزورنى فى بيتى لتنظفه وتنظمه وتغسل لى ماقد اتسخ من ثياب . ولتطهو لى طبخة بيديها اللتين لم آكل رزهما المفلفل من زمن بعيد . (هكذا قالت) ..

لعل خواطر غامضة يا صديقى تجول الآن فى نفسك ثم لعلك تستحى أن تستوضحنى تفاصيل وقت انفردنا فيه تحت سقف واحد . ولكننى سأريحك من عناء التساؤل . إن الأعمال الفاضلة تخلع على أحط الناس قدسية وجلالا ترفعهم إلى طبقة أسمى ، لأن هذه التى أعطتنى « حليها » ومنحتنى «زينتها » عطاء خالصا لا يشوبه من ولا أذى ولا انتظار جميل، ثم لحقت بى فمدت لى يدها مرة أخرى ترتب شئونى كما تفعل الخادمات - هذه الفتاة أكبرتها بينى وبين نفسى أن أراها فى وضع غير كريم. وقد طالما تمنيت يومئذ أن أهدى إليها قبلة حب واعتراف بالفضل لكننى خشيت أن تفسدها يد الشيطان وخفت أيضا أن يغيب عن « وهيبة » طهارة مقصدى . لذلك كله عمدت إلى أن أتملل بالخروج بين فترة وفترة حتى أبدد استطالة الزمن وحتى لا أجعلها تشعر أننى أتهرب من خلوة مشتركة . لكننى ودعتها بعد المساء عند باب السطح وأول السلم والمصباح فى يسارى أضىء لها به الدرجات لأن مسقط السلم كان مستوفا يشيع منظره فى الليل وخاصة عندما لا يكون هنالك قمر ينير السطح ، يشيع فى النفس شيئا من الرهبة ، كان المصباح فى يسارى وأنا أقول لها مع السلامة وكانت هى بطبيعة الحال قد لبست ثوبها النظيف الذى تظهر به فى الشارع وغسلت عن يديها آثار الطبيخ فردت تحيتى وأبطأت من خطوها ونظرت إلى وهى عند أول درجة ثم قالت وكأنها تسألنى عما لا يعنى أحدا سواى قائلة وهى تبتسم : أرجو ألاتكون قد نسيت حاجة تذكرها بعد انصرافى !! فخفق قلبى

لها بالحنان فأقبلت عليها والمصباح فى يدى ليكون صمام أمان فلا يحدث بيننا أكثر مما أريد . تركته يلقى النور على وجهينا ولففت ذراعى اليمنى حول عنقها ثم طبعت على فمها قبلة . ثم استرددت فمي لأنها فيما بدا كانت لا تريد أن أقطعها . كان نفسها جد طويل كنفس الظمآن الذى يترك القلة تقهقه على شفتيه مدة طويلة . فعلت هذا ثم عدت فكررت التحية قائلا لها : مع السلامة . وبقيت فى موقفى على رأس السلم تحت سقفه القريب الدانى الموحش القاتم حتى غاب عنى وقع حذائها على الدرجات .

أرجو ألا أكون شغلتك بحوادث قد تراها تافهة لأن « وهيبة » ليست تافهة فى قياسى . على أن ترددها لم يطل ، كما كان أيضا فى فترات غير قريبة ثم أفضت إلى عصر يوم بنبأ اعتبرته سعيدا ساعة قالت لى : عندى أخبار طيبة يا سيدى لكننى أحب أن أرى رأيك فيها بصراحة . ثم قصت على قصة رغبة « عبد العزيز » الطباخ الذى يعمل معها فى منزل واحد ، وقد تقدم طالبا يدها . فلما دخلنا فى التفاصيل عرفت المواطن التى تطلب فيها رأيى ، لأنه كان فى الخامسة والأربعين وهى فى الخامسة والعشرين ولعل الأهم هو أنه تزوج مرة من قبل . فسألتها فى جزع ظاهر : وأين زوجته ؟ فقالت : ماتت . فسألتها فى لهفة : وهل هنالك أطفال ؟

فابتسمت فى حياء وقالت : لا يا سيدى ،ولو أن الأمر كان كذلك لترددت لأنى لا أحب أن أشقى طفلا . فخفق قلبى كأنما أصابته شظاة ثم عدت فاسترددت هدوئى وهتفت قائلا :إذن ففيم التردد ! على بركة الله . هل تظنين أن فى الرجال بكرا وثيبا ! .. وضحكنا وكانت توارى وجهها بكفيها من الخجل . ثم كان هذا اللقاء بدء النهاية فى علاقتنا لأنها ما لبثت أن صارت زوجة .. ثم أما حنونا!! أسعدها الله !

هيأت لى مهنتى هذه أن أرى ألوانا من الناس وضروبا من الناس منه

من أذكره ساعة أراه ثم أعود أنساه حتى إذا ما رأيته ثانية ذكرته ، ومنها شخصيات ضخمة تقهر النسيان فتبقى عالقة بالذهن إلى ما شاء الله .

ولعل أضخم هذه الشخصيات جميعا شخصية السيدة « ف » تلك التى تثبت على باب مسكنها صندوق خطابات يكاد يكون الوحيد فى الحى كله أمابقية السكان فإنهم يتسلمون خطاباتهم بأيديهم . لم يكن فناء منزلها واسعا بل على العكس هو ضيق لاتتجاوز مساحته أربعة أمتار يشغل السلم جزءا منها . وباب شقتها هو الباب الوحيد فى هذا الفناء الضيق ، يقع على يسار الداخل على سطح الأرض مباشرة فلا يرتفع إلا بمقدار العتبة ، وهو من الخشب الخالص لاحديد فيه ولابلور . دهن مصراعاه باللون الأحمر واتخذ منه صبيان البيت سبورة رسموا عليها شتى رسوم وحروف ..

ولست أدرى لم لم تعنَ السيدة « ف » بازالتها عن الباب . خمنت من منظر الباب أنها تسكن وحدها لأن قفلا غليظا كان يعاون المفتاح الأصلى فى صيانة المسكن ، ولاأذكر أنى رأيت الباب عاريا من القفل إلا فى القليل حتى ألفته هكذا . فأنا دائما حين أرى بين البريد كتابا لها أتقدم نحو الصندوق فأضع الرسالة فيه ثم ألقى نظرة على القفل الغليظ المتدلى ونظرة أخرى على الجزء الأسفل من الباب الذى حوله الأطفال إلى سبورة ثم ابتسم لهذا المنظر الذى لايتغير وأغالب شوقا خفيا لا يكاد يتميز عن الفضول ينادى فى داخلى : ألا من فرصة واحدة أرى السيدة « ف » هذه ؟! لكأنها تحمل سرا !

وقد سنحت هذه الفرصة فى ضحى يوم من الأيام حين رأيت بين بريد اليوم رسالة باسمها فطرقت الباب طرقا خفيفا أجابنى فى أثره صوت ناعم تشك فى بادىء الأمر فى أن صاحبته تتصنع ثم سمعت خفق نعلها وهى فى طريقها لتفتح ، فلما رأتنى ببذلتى الرسمية وحقيبتى المدلاة والرسالة فى

عينى أقدمها باسم الوجه تجمت فى أعلى أنفها عقدة ماتت ساعة ولدت لكنها دلت على عجبها من فعل رأته غير طبيعى ثم قالت برفق فى جد خالص :

ـ ما بال صندوقنا اليوم لا يتقبل الرسالة ؟ .

فأجبتها بمثل لهجتها وقد زال عن وجهى ابتسامه :

ـ تستطيع السيدة أن تفحصه بنفسها .

فخطت نحو الخارج وهى تجمع بكلتا يديها ثوبا ضافيا من الحرير حول قدمها المشوق فى حرص التى تخشى برد الهواء أو تراب الأرض . وأوسعت لها الطريق متراجعا إلى الوراء حتى تقف أمام الصندوق المعلق فى المصراع الثابت . فرأته وقد حشاه الصبيان بورق كثير قديم ذى ألوان مختلفة حتى لم يعد يقبل شيئا . فما كان منها إلا أن التفتت إلى وقد تورد وجهها الصافى بحمرة خفيفة ثم قالت معتذرة :

ـ آسفة لما بدر منى ..

فأردفت وقد عادت إلى البشاشة :

ـ لا داعى للأسف . بل أحب أن أنبهك إلى أن الصناديق الخصوصية فى الأحياء الوطنية كثيرا ما تثير شيطنة كامنة فى نفوس الصبيان فيلقى أصحابها عناء أظنهم فى غنى عنه .

فغالبت السيدة ضحكة عنيفة نبعت من أقصى صدرها لأننى رأيته يضطرب لكنها أفلحت فى أن أخرجتها مؤدبة وقورا وإن فاضت بالسحر والأنوثة . ثم قالت ببشاشة :

ـ أنت محق فيما تقول ، فقد كان بعضهم يكتب لى رسائل مضحكة .. أقصد الصبيان (ثم غضت من طرفها وهى تهمس) : أشكرك .

وتأودت فى طريقها إلى الباب حيث شرعت تقفل المصراع برفق لطيف

وعيناها ناظرتان فى غير اتجاهى .

وجعلت بقية اليوم أفكر فى السيدة « ف » وأمنى نفسى بأن سأعرف يوما ما وراء بابها المصمت . وأتخيل أنه سيكون قصة طريفة . وأسرتنى الفكرة وأنا أوزع بريد اليوم حتى بدوت كأنى شارد فلم أداعب الست « أم سمك » كدأبى كل مرة وأنا أسلمها رسالة لزوجها ، فصرخت فى وجهى بصوتها العالى وجمالها الثائر :

ـ ما بالك اليوم مطفئا نورك .. أهو طبق من « البصارة » ؟! فقلت لها :

ـ لابل أكلت سمكا . « وهذه الكلمة علم على ابنها » .

فردت تدافع عن ابنها فى صخب شديد تجيده ساكنات تلك الأحياء ، وجعلت تهددنى بخفة ودلال بأنها ستشكونى لزوجها « عسكرى المطافى » الذى تفاخر به كل النساء لطوله المخيف الذى أفزع النار نفسها ، حتى لتبدو الخوذة النحاسية فوق رأسه إذا ما لبسها وكأنها علقت على ذؤابة نخلة .

ولما أويت إلى فراشى آخر النهار جعلت أقلب أمر قلبى لأرى ما جد فيه . ذكرت الأيام الخوالى بعد ثلاث سنوات فرأيت عماليقها وقد بدا بعضها يستحيل إلى أقزام . وأول هذه العماليق « أم مختار » و « عباس أفندى » ، « أما سكينة » فإننى لم أنسها ، نعم لا زلت أذكرها ولكن ماذا يفعل بنا البعد ؟! آه .. إن القرب نوع من السهر على الشئون . القريب ساهر على جنة الحب يدفع عنها اللصوص ويكافح الآفات . حقيقة أن البعد يذكى النار ولكن على أن يكون من قبيل التراجع إلى الخلف قبل الارتقاء فى الأحضان . أما إذا طال البعد أو استمر التراجع فإذا الذراعين المتهيئتين لاستلقاء الحبيب لاتلبثان أن ترتخيا من التعب حتى تعودا إلى وضعهما الأول .

وهكذا كان شأنى مع أسرة « عم خليل » فقد كانت الرسائل بيننا أول الأمر كثيرة سريعة التبادل كأنها الرياح فى أشواطها الأولى . ثم فعل الزمن فعله بها . فتطاولت الفترة بين الرسالة والرسالة كما تطول الفترة بين الهبة والهبة فى موسم الريح ثم أخذت تخبو شيئا فشيئا حتى سيطر علينا السكون!! وتقلبت من جنب إلى جنب وتطلعت فى أفق حياتى فأحسست أن وحشة ترين عليه . أحسست الليلة موضع قلبى منى كما كنت أحس من قبل موضع معدتى زمن الجوع . فمصمصت بشفتى وهمست فى الظلام : حكمتك يارب .. إننا لا نشبع ؟!

حقيقة أن نفوسنا لاتعرف الشبع : نجوع بالمعدة ، ثم نجوع بالقلب ، وقد نجوع بهما فى وقت واحد ، حتى إذا ماهيأت لنا الظروف طعامهما عدنا فجعنا بجسمنا كله ، فنشعر وخصوصا بعد إطفاء النور أننا فى حاجة إلى شىء نأكله ، لا بالفم ولابالأسنان ، بل بجوارحنا كلها الظاهر منها والخفى . فنبحث عمن يقاسمنا الفراش . ثم نجوع بقلوبنا مرة أخرى فننشد من يقطع علينا نوم ليل طويل ، وندعو الله أن يمن علينا بالجسم الصغير الذى يفصل فى الفراش بين جسدينا الكبيرين ، ثم نجوع بعد ذلك إلى المجد .. والخلود!!

عمر عجيب !! نبدؤه بالجوع حين نلتقم ثدى الأم فى لهفة وسرعة قبل أن نفتح أعيننا ، ونختمه بالجوع حين تقلب أحداقنا فى وجوه الأحباب تقول بالأنظار لأن الألسن قد جفت : إننا لم نشبع منكم .. أليس فى العمر بقية ؟!

« سكينة » !! ترى أين أنت الآن ؟! عرفت يوم هربت كيف تقطع العلاقات بين قلوب غيرمتحابة ثم عرفت اليوم كيف تقطع العلاقات بين قلوب أحب بعضها بعضا . آه .. إنها مدرسة الزمن ، حصصها الأيام والليالى ، وأساتذتها التجارب ، وأجراسها الأحداث ، والامتحانات فيها ـ إن شئت ـ

عقبات تعترض المعدات والقلوب .. هنا النجاح والرسوب ، وهنا تعلن النتائج !

لكن مالى أنا وللسيدة « ف » وما بال طيفها يطاردنى ؟! حتى يخيل إلى أنها خارجة من حجرتى الأخرى وهى تجمع بكلتا يديها ثوبها الحريرى حول قدها المشوق فى حرص التى تخشى برد الهواء أوتراب الأرض ! إن طيفها يزحمنى فى كل مجال . ولكن لن آبه به .

وخيل إلى اليوم أنها مهتمة بى فقد رأيت ذلك فى عينيها الساجيتين اللتين تنهض عنهما الأجفان فى رفق وتعود فى رفق يبعث فى الجسم خدرا ونشوة . لكن أليس معنى هذا هو أننى مهتم بها أنا كذلك ؟! إنها غريبة بين سكان هذه المنطقة ينظرون إليها جميعا على أنها من طينة غير طينتهم فهى لذلك لم تصطفِ منهم صاحبة ولا صديقة ، وكانت فى عزلة عقلية لأن مسابح فكرها ليست كمسابح أفكار هؤلاء الناس . وقد فهمت من تتبع أحوالها أنها موظفة ورأيتها فى ميدان الجيزة تمشى إلى جوار رجل كبير السن يبدو عليه أنه من رجال التعليم وكانا يتحادثان فى جد ووقار كأنهما يتناقشان فى الدين ، ولما التقت وجوهنا يومئذ رفت على شفتيها ابتسامة مرت كما يمر الطيف فلم يشعر بها غيرى .

لكن أمرا عجيبا وقع فى خاطرى بعد ذلك وجاهدت كثيرا لكى أخلص منه ، خيل إلى أن الأقدار سهرت على أن تصل بينى وبين هذه النفس بما قد يكون خيطا وبما قد يكون حبلا لايقطعه إلا الموت . وبدأت أوصاف جسدها تتحكم فى خيالى وتقتحم أبواب أحلامى فأقول فى نفسى حين أخلو إلى نفسى : إن أجمل العيون فى وجوه النساء عينان صادقتان تجعلان اللسان فى المكان الثانى ، وتقدمان إليك المعانى فى كأس من الخمر . وأجمل الأبدان منها الطويل اللدن المرهف فيما تحت الحزام ، الذى يكاد ينقد فى

حركة التأود ! . أرأيت جسم « فينوس » فى مئزرها الحريرى ؟!

أما الشعر ، فالأسود الفاحم الكثيف الأثيث المداخل زمرا زمرا على هيئة خصل ، تجوس خلالها الأنامل كما تجوس العين فى تلافيف جنة .

والوجه .. المستطيل الدانى إلى الشحوب الذى بدا كأن صاحبته سهرت تقرأ وتفكر حتى أدركها الفجر السقيم ، تبدو عليه السهولة والرضا والتسامح ، تخيلت هذه الأوصاف فى خلواتى وتمنيت أن تكون منطبقة على زوجة لى ، ثم لج بى الخيال حتى ظننت أننى ابتكرتها وألفت بين شتيتها من نساء مختلفات فلما رأيت السيدة « ف » مرة أخرى وملأت منها ناظرى ، أدركت مدى غفلتى وغشى لنفسى ، لأنها كانت النموذج والتمثال والحقيقة والخيال فى وقت واحد ، وكانت أفكارى منها وإليها وكل هذه الأوصاف منطبقة عليها . فعضضت شفتى خوفا ودهشة .

خفت أن أحبها وقد رأيتها بعيدة المنال ما كان أجدرها أن تعيش فى أحد القصور !! إنها ولا شك تحيا حياة عقلية فقد بصرت بها عدة مرات وهى تهبط سلم دار الكتب ، وأنا فى طريقى إلى مكتب البريد . وحيا كل منا صاحبه فتعذر على أن أعرف من منا الذى بدأ بالتحية ثم درجت فى طريقى إلى عملى .

بدأ قلبى يعصر نفسه كلما رآها ويؤكد لى بخفقاته وخزات أحسست وقعها عليه أنها شق من حياتى . فقلت للقلب : وهل أخذت رأيها فيما هو من صميم شئونها ؟ فسخر منى وعاد يؤكد أن الحب والكره لا يؤخذ فيهما رأى الطرف الآخر . وحملنى هذا الشعور العميق الذى تشربته نفسى كما يتشرب العود عصارته من الثرى الرطب . حملنى على أن أتساءل : هل السيدة « ف » مشغولة بإنسان ؟ وإذا فرضناها خلية القلب فهل تبيح لمثلى أن يسكن قلبها الكبير ؟! لكننى عدت فحاورت نفسى مسليا ممنيا وأنا

جالس إلى نافذتى فى هدأة الليل أنظر إلى الأضواء تحت بصرى فأرى بعضها ينطفىء فجأة وأرى غيرها يلتمع فجأة وأؤلف من الباقى صورا وأشكالا على هيئة الوجوه أو القطط أو الدجاج أو الحيات - حاورت نفسى فقلت لها : إن اختيارنا لايخذلنا فى شغل أى مرفق .. إلا مرفق القلب . فمن الجائز إذن أن تنعقد صلة ما بينى وبين هذه السيدة . ثم هززت رأسى غير مستبعد على المقادير أمرا فإنها تجمع فى سلك واحد بين لؤلؤتين ولدت كل منهما فى محيط .

رأيت بين بريد اليوم رسالة باسمها فمنيت نفسى أننى سأراها لكننى عدت فتذكرت الصندوق . وما أن دلفت من الباب وانحرفت نحو اليسار خطوتين اثنتين لأضع الرسالة حتى رأيت ما أذهلنى ، لم يكن الصندوق مثبتا فى الباب ، أعنى أنه لم يكن هنالك صندوق ، وعلى الخشب فى مكانه مستطيل صغير بدت حمرة دهـ ـه زاهية نظيفة تخالف بقية اللون . وخفق قلبى وأنا أنقر بسبابتى نقرا يسمعه من عسى أن يكون فى الداخل ، وازداد خفق قلبى حتى اضطربت أنفاسى حين أجابنى صوتها المستميت الناعم وهى فى طريقها لتفتح ، ولعلى تمنيت ساعتئذ أن تعود فلا ترانى أو أن أنصرف قبل أن تخرج لأن دم جسدى تجمع فى وجهى فأحسست أنه فى تنور لكنه لم يكن هناك مناص وقد كنت أعمل عملا مشروعا وهو بعد من صميم مهنتى .

كأنها تجمع حول بدنها بكلتا يديها - كشأنها فى كل مرة رأيتها فيها - ثوبا حريريا وردى اللون كأنه لف على عود من الخيزران ، وشقت عليها عصا الطاعة إحدى غدائرها فتقدمت شيئا ماعن بقية الشعر حتى استنامت على كتفها سوداء كثيفة ، ترقد فى ثقل نوعى كما تترامى ستائر القطيفة . ولم تنجم العقدة على أنفها كما حدث من قبل ولكن وجهها السهل السقيم

كان عليه قناع من البشاشة ، قلت وأنا أمد يدى إليها بالرسالة : وأين الصندوق ؟ فابتسمت وهى تجيب موحية أنه كان مصدر مضايقات وأنها اختارت بين شرين فرأت أن ضياع بعض الرسائل أهون عليها من قراءة رسائل هى أشد الناس بغضا فى قراءتها . فأجبتها وقد رفه عنى حديثها : ألم أقل لك ؟ ثم أخذت نفسا عميقا . ثم استطردت كأنى لا أفهم ماترمى إليه : إن صناديق البريد فى الأحياء الوطنية كثيرا ما تثير فضول الصبيان وتوقظ بهم أعاصير الشيطنة . فابتسمت وهى تكسر من أجفانها وكأنها تقول : إنك تفهم كل شيء . ثم مالبثت أن أردفت : وهل لى أن أرجوك أن تستبقى رسائلى حتى تمر آخر النهار .. آسفة .. لست أقصد إرهاقك ولا أن أكلفك شططا . أنا لاأكون هنا فى النصف الأول من اليوم وأريد أن أقول إن رسائلى ليست من النوع المستعجل ، فهى غالبا تحوى شئونا عادية ، فإذا تفضلت بإبقائها حتى تسنح لك فرصة المرور من هنا ، كان شكرى مضاعفا .. ثم توجت هذا كله بابتسامة حلوة .

جعلت نفسى تستعيد حديثها فى لذة ونشوة كما تستعيد طعم فاكهة ذقتها للمرة الأولى ، وخيل إلى أن قلبى على باب تجربة حقيقية وأنه على وشك أن يخوض معركة تخفق فيها راية الحب وراية الأمل جنبا لجنب بعكس ما فات فإنه كان ـ على ما فيه من حلاوة ـ أشبه بالأشواط التى يجريها الفرس قبل شوط السباق . اتفاق فى اللون واختلاف فى الغاية .

وهكذا بدأت أترقب رسائلها كما أترقب رسائلى الشخصية ، وتشاء الأيام أن تخلف ظنى فلا يحمل إليها البريد شيئا لمدة أسابيع ثلاثة ، وقد ابتسمت حين تخيلتها تبتسم من سوء طالعى الذى نضح على بياض أيامها ، ولكن الأمورعادت فاتسقت ورأيت بين بريد اليوم الرسائل المرموقة . وكانت أشعة الشمس تضطرم فى زجاج النوافذ قانية حمراء قبل أن تهبط للمغيب

ساعة كنت مكبا على مرآة صغيرة لألقى نظرة أخيرة على رباط عنقى .. اخترت من كل شىء أحسنه فى أصيل ذلك اليوم حتى بدا مظهرى المتوسط على هيئة تشكك الناظر فلايستطيع أن يحكم على : هل أنا شاب من الطبقة الدنيا صعدت به ظروف العيش إلى حيث تبوأ مكانه فى الطبقة المتوسطة ، أم أنا شاب من الطبقة العليا هبطت به ظروف العيش إلى حيث استقر فى مكانه من الطبقة الوسطى ؟! أجل كانت هيئتى مشكلة ولعل مرجع ذلك أولا وقبل كل شىء إلى وسامتى ، فأنا ابن أبوين كاد كل منهما يكون أنموذجا فى نوعه ، فضلا على أننى الآن مرتاح راض عن موضعى فى المجتمع قادر على أن أقدم لمعدتى كل ماتطلبه من وقود فأفاء هذا على جسمى خصبا انبثق من عينى شبابا مونقا متدفقا حارا شهيا ، لو لبست أثوابه نفس واثقة قوية لم يكتب عليها أن تكون جحرا لحشرات أنت أدرى بأنأتها ـ لكان لى فى كل يوم غرام مع من أشتهى من الفتيات . لكننى ضعيف النفس !!

ولم تكن السيدة « ف » رأتنى كثيرا فى حلتى العادية وملابسى التى أستطيع أن أتألق فيها . وإنما رأتنى فى حلتى الرسمية التى يشد إلى كتفها سير من الجلد عريض يحمل حقيبة مسترخية ضخمة كأنها فم أشدق . وأظل المساء وكنا فى الخريف ، وسيطر على القاهرة فى هذه الليلة جو أميل إلى البرودة ، وازدحم فى سمائها سحاب مسف . ولم تكن هناك نوافذ مفتوحة ، وخيم على الأحياء الوطنية سكون باكر وكنت أنا أنقل خطواتى محافظا على نظافة حذائى . لأنى فى طريقى إلى السيدة « ف » ، وأظن أن العرف العادى بين الناس يبيح لها أن تدعونى إلى الدخول حيث تقدم إلى فنجانا من القهوة ، أم تراها ستعتبرنى الليل كذلك مؤديا وظيفتى الرسمية ؟! وحجزت نفسى عن أن تتدبر الموقف إذا ما حدث الفرض الثانى ، لأننى رأيت أن حلاوة الخيال ستزول ، وستعقبها مرارة وفتور تشيع فى قلبى كثيرا من

الضيق ، فآثرت أن أسير وأنا مشبع بيقيني أنها ستدعوني للدخول ، وإلا كان ذلك سماجة منها !! لكنني أشرفت على الموقف من زاوية أخرى حين تساءلت : أليست امرأة تسكن وحدها ؟! فما بالي أسرف في التفاؤل ؟! ففررت من الإجابة لأنها لم تكن في صالحي ، ولست أدري ما انتابني بعدها ، حتى رأيتني أستأذن عليها بطرقات خفيفة ، وأنا محول وجهي إلى الظلام الجاثم تحت منحنى السلم على قيد خطوات ، لكن صوتها المستميت الناعم لم يستجب إلى طرقاتي . وهناك وقفت سادرا واجما كأنها قد أخلفت موعدي ، وجعلت عيني في الباب المصمت الذي لم يكن يضيئه زجاج ولا بللور ، ورجحت بعد ذلك أن تكون غائبة وهممت بالمسير ، لكن المهمة كانت في قياسي أعظم من أن أتخلى عنها بعد الجولة الأولى فعاودت الطرق ، ولكن الصوت الناعم لم يداعب مسمعي لا عن بعد ولا عن قرب فتنهدت عميقا ، وبدأت أجر ساقي راجعا إلى الوراء ،ولكنني فوجئت بالباب يفتح في هدوء ورأيت السيدة « ف » واقفة في فرجته متشبثة بالمصراع المفتوح متعلقة به كأنها تخاف أن تنهار ، وكان وجهها محتقنا حتى بدا أسمن من المألوف وعلى كتفيها دثار من الصوف تجاهد به رعدة هزتها مرتين منذ قدمت في موقفها عند العتبة . ولم أنتظر حتى تقول شيئا فقد هتفت في جزع وتأثر : أمريضة أنت يا سيدتي .. هل تأذنين في أن آتي بطبيب؟! فغمغمت : أشكرك .. فقد كنت على وشك أن أطلب إليك ذلك . وتركتها تعالج إقفال الباب وحثثت خطاي أنا إلى طبيب على مقربة من الحي يقطن في الشارع الرئيسي وتدخل عيادته في منطقة توزيعي ، ولم يكن في زحمة من مرضاه ولا في شغل يستدعي أن أنتظر مدة طويلة ،وعرفني حين رآني ، فلم ينقض وقت طويل حتى كنا نهبط الدرج في طريقنا إلى منزل السيدة « ف » . وانتظرت في حجرة أخرى حتى فرغ الطبيب من مهمته وأشار

بالدواء ثم تركنا وانصرف .

قلت للسيدة « ف » وأنا أضع على المنضدة الإضافية الصغيرة القريبة من فراشها زجاجتين من الدواء ورسالتين وصلتا باسمها : ليتنى أستطيع ياسيدتى أن أقدم أكثر مما قدمت من عمل تافه . لكن ..هل ترغبين فى أن أنبه إحدى جاراتك إلى أنك قد تحتاجين إلى سيدة تؤدى لك خدمة ؟ فتبسمت فى تجلد وأجابتنى وهى تحت دثرها الثقيلة : مطلقا .. وأشكرك . أوه .. أتظن هذا عبثا ؟ ! ذلك أخف ما نلقاه . طاب مساؤك ! فهتف قلبى قبل لسانى : طابت لياليك جميعا !

وصفقت بيدى بابها ورائى وأنا خارج فأقفل ، وكنت لاأزال أردد فى ضميرى وخطواتى تتعثر على الطريق : نعم طابت لياليك .. وأيامك .. طاب دهرك كله .. ليتنى سهرت على جسمك المحموم !!

ـ ٩ ـ

كانت حرارتى أعلى من حرارتها فقد أصبت بحمى لا يسجل نارها « الميزان » ولاتتراقص فى هذيانها الأشباح . حمى الحب . كلها أمن وسكينة ودفء ولذة نقلتنى إلى أرض غريبة لا يعرف مسالكها إلا المحبون !!

ولم أشأ أن أكون أنانيا فأسرع إلى بيتها فى الصباح التالى لأسأل عنها لأنى خفت أن تعتبرنى « انتهازيا » يعرض عواطفه على امرأة فى حالة غير طبيعية كالذى يغازل المحتاجة أو يخدع السكرى أو يسطو على مستغرقة فى النوم . وهكذا رأيت الموقف فى الصباح التالى وإن كان من المحتمل أنها ارتقبت حضورى .

لكننى اختطت بين الطريقين مسلكا بين بين فتركت بطاقة باسمى أمررتها من الفرجة المستطيلة الضيقة القائمة بين الباب والعتبة وقد كتبت لها

عبارة جعلت أنقها طول الليل وجعلتني أذكر « ناصف أفندي » مدرس الإنشاء في المدرسة الثانوية وأنا أعض أنامل الندم على أني لم أنتصح بما نصح فاثراً من كتب الأدب . ثم ذكرت شيئا أهم من هذا كله وهو أن السيدة « ق » طلبت إلى بعد إجلائها صندوق البريد عن بابها أن أمر عليها بالرسائل في أوقاتي الخصوصية دون أن أحمل نفسي عناء ولامشقة . فلم لم تطلب مني أن أضع لها الرسائل تحت الباب أعني بنفس الطريقة التي تركت بها بطاقتي اليوم ؟! قلت : الأمر واضح . إنها تريد أن تجرد لقاءنا من المعنى الوظيفي الجامد فتلتقي في « بالرجل » لا « بساعي البريد » . نعم .. نعم .. الأمر واضح . لكن المسألة باخت في نفسي وزايلتني حلاوة السكرة حين هجم لي رد جديد وهو أنها لم تنتبه إلى هذه الطريقة ولو انتبهت إليها لأشارت على بأن أسلكها .

فانشققت على نفسي ونشب بيني وبينها خلاف . وركبت زورق الحيرة فتأرجح بي في بحار من الشك . أما أنني أحببتها فذلك ما قد حكمنا فيه وأصبح الحكم غير قابل لأن يستأنف ، وأما أنها تحبني فذلك ماقد نشب بسببه العراك وتطلبت حكما يفصل بيني وبين نفسي ، وآثرت أن يكون من الحوادث حتى أقتنع فلا أعود إلى اللجاجة مرة أخرى .

وتمر ثلاث ليال على حادث مرضها فأرى بين البريد رسالة باسمها فكدت أهتف بحياتي حين خطرت لي هذه الخاطرة فوجدت فيها الحكم المنشود ، سأمر بهذه الرسالة آخر النهار فأقضي وطرين أحدهما من مطالب القلب وعلى أن أراقب عينيها لأرى ماذا تقولان . إنها ستشكرني على البطاقات التي ألقيتها من تحت الباب سائلا عن حالها ، ثم تتكلم بنظراتها في موضوع الرسائل فأرى حينئذ رغبتها مطبوعة في عينيها ، وقد تقول لي بإشارة أو عبارة : لاتعن نفسك بعد اليوم فتعود بالرسائل ، ضعها من تحت الباب كما

كنت تفعل بالبطاقة .

وأعجبتني الفكرة وارتحت سلفا للحكم الذي سيصدر ، لكن قلبي خفق له . واستعجلت ساعات النهار حتى يحين الليل فجعلت أبعثر الوقت بطرق شتى هدتني إلى القراءة ، ثم عرفت دار الكتب لأنني رأيتها تمضي في هذا الطريق ، فأحببت الوسيلة والغاية في وقت واحد ، ودلفت ثانيا إلى ذلك العالم الذي كنت طلقته من ثلاث سنوات غير آسف على ما فيه فلم أمسك كتابا ولاقلما بل كنت أشعر كأن دفتي أي كتاب أثما تنطويان على صفحات ملأها كاتبوها بالسخر والاستخفاف بتفكيري ، لكن طيف السيدة « ف » كان شعاعا انصب على الورق فدخلت دار الكتب لأنها تفعل ذلك ، ثم إنني مقدم على ميدان ليس من الممكن أن أستخدم فيه سلاح الوسامة كما يفعل النساء لأن الوسيم الجامد الغبي البليد لايزيد على أن يكون صنما مليحا يؤدي مهمة جسدية .

وطرقت الباب وقلبي يخفق ، وخيل إلى أن أبادئها أول ماتفتح قائلا لها : سيدتي : هل لك في قلب سخي فتي يقدس كل معنى حرمه منه الزمان ويتمنى أن يفيضه على الناس ؟! يطلب حنانا أخف من ظلال النخيل ثمنا لحنان أرق من ظلال التوت ، وحبا كعيون الصحراء ثمنا لحب كفيضان النيل ، ووفاء في القرب وحده ثمنا لوفاء في القرب والبعد .. ألا ترين يا سيدتي أنها صفقة من أندر الصفقات ؟

وعجبت لأفكاري المضحكة المبكية ، لكنني نحيتها عني ساعة سمعت وقع أقدامها في طريقها إلى الباب ثم لاحت السيدة « ف » من الفرجة بين المصراعين فحييتها تحية المساء وبحثت عن ريقي حتى وجدته فقلت لها : لك اليوم رسالة . فلم ترد علي . وكان المصراع المتحرك في طريقه إلى الحائط ليستقر عليه عند تمام الفتحة . فما كان منها إلا أن دفعته ليفسح الطريق

وهى تشير بحركة فيها رشاقة تأودها أن تفضل بالدخول .. فسرت ، وكأننى فى منام !!

رأيت شبها عجيبا بين مسكنى ومسكنها فقد كان حجرتين متداخلتين اتخذت من أولاهما غرفة للجلوس . وكان الأثاث فيها يدل على التمدن والفاقة : فهناك كرسيان من طراز أفرنجى يبدوان غريبين بين حيطان السكن . ثم منضدة فى وسط الغرفة من خشب لايوائم خشب الكرسيين عليها مفرش طرزته يد صناع بأزهار البانسيه والورد وبخيط من الحرير تطريزا بارزا تخطىء النحل فتقع عليه . وعلى الأرض سجادة سطت يد القدم على نفوشها فتركتها ناقصة . لكن المنظر فى مجموعه يوحى بأن الساكنة امرأة ذات مزاج فنى يتسم بالهدوء . فليس هناك شىء صارخ ، وقد سبق لى أن دخلت مخدع نومها ليلة مرضها فألفيته كذلك ، كل شىء فى الحقيقة صورة من ملامحها ، سهولة وبساطة وهدوء مع رقة ظهرت فى« المالك » سقما وحساسة . وظهرت فى « المملوك » ضيقا واقتصادا .

ثم غابت عنى حتى استبدلت بثوبها الذى لقيتنى به ثوبا آخر أشد اتساقا على جسمها وأكثر هدوءا وزينة . ثم اقتعدت أحد الكرسيين حيث كنت تجاهها : وقلبت نظريها فى السقف قبل أن تشكرنى على بطاقتى ، وعلى ماسبق أن تجشمته فى سبيلها من متاعب ، وكانت فترة غيابها عنى لاستبدال الثوب فى صفى لأنها أتاحت لى أن أسترد أنفاسى وأن أهيىء ذهنى لمفاجآت الموقف . لم أتردد ولم أتلعثم حين شرعت فى الرد قائلا : هل ترين حقيقة فى هذه التوافة مشقة حملتها فى سبيلك ؟ ! ورجوتها بعينى أن تقول لا ، فأطرقت تنظر فى كفيها وتراجعت أجفانها فى هوادة لترمى ظلها على وجهها الشاحب ثم تنفست عميقا ثم ألقت إلى بنظرة سريعة ما لبثت أن استردتها وبدأت أشعر أننا رجل وامرأة رمت بهما عجلة دوارة فسقطا على

حاشية الدنيا وكأننا غريبان ؟ .وركبها انكماش الأنثى وخيل إلى أنها استشعرت ندما خفيفا لوضعنا فى هذا الموقف . وطالبتنى الرجولة أن ألقى شيئا من الحركة على خمود موقفنا فشرعت أتحدث عن الأزمة الاقتصادية الحادة التى أمسكت بتلابيب العالم ، وكنت لحسن الحظ قد قرأت عنها مقالا ضافيا عميقا فى مجلة وقعت فى يدى منذ أسبوع ففتحت أمامنا الأبواب ودرج بنا الحديث فى شئون شتى ولمسنا شئون التعليم فكانت مفتاحا أدير فى قفل خصوصياتها .

حدثتنى أنها مدرسة فى إصلاحية البنات وأن مهنتها هذه تقفها كل يوم على ألوان من الشخصيات يلذ لها أن تراقبها وقد كانت على حد قولها ـ تفتح بين الحين والحين فتحا جديدا فى عالم النفس يؤكد ثقتها بأن التجارب التى يتركها الجيل للجيل ميراث صالح يدفع بالبشرية خطوة على طريق المعرفة . فهززت رأسى كمن يتذوق لحنا ثم قلت فى شىء من الأسى والشوق واللهفة : ما أجمل ماتقولين ؟! فأجابت : أشكرك على حسن الظن ، فأردفت : بل قلت الحقيقة . ثم استدركت : ولكن .. فهزت رأسها تحرضنى على الكلام ، فأكملت : يخيل لى أن الناس كمجموع ينتفعون بتجارب الناس كمجموع .. أعنى أن التجارب الفردية لاتكاد تترك أثرها فى الناس. فقالت : كلام جميل !! فأردفت : إن جيلنا الحاضر ينتفع بتجارب الجيل الذى سبقه فى نطاق التعليم والطب وغير هذا وذاك فى آفاق المعارف ، ولكن هل انتفع اللص الذى سرق فسجن بتجربة الذى سبقه حين سرق فسجن؟ لا بالطبع، فقالت وهى تتنهد : كلام جميل كذلك ، هل تقرأ كثيرا يا سيد « مختار »؟ فأجبتها : بل قليلا ، ومنذ وقت قريب ، فأردفت وعلى فمها ابتسامة : إذن فلابد أنك كنت طالبا ممتاز !!! فحركت أشجان قلبى بهذه الدعابة حتى حملتنى على أن أرد بسرعة وبصوت فيه ارتفاع وأنا أشير نحوها بكف

كأنني أمتع مركبة تمشي : لا ، لا، لابالعكس ، لا تسرفي في التفاؤل فقد كنت من أبلد الطلاب !! وابتسمت على الرغم من أن هذه العبارة قد انسابت من فمي في حماسة تحمل الصدق فحملتها على أن تضحك وشاركتها ضحكتها في حبور لا أنساه ، قمنا بعده إلى أحد أركان الحجرة حيث ألقينا نظرة على كتب كان بعضها من الكتب الدينية وبعضها في الأخلاق ، وفيها قصص ، كما فيها من الكتب الدينية مايحمل أسماء علمائنا المجددين . وكان بعض هذه الأسفار يحمل خاتم دار الكتب وبعضها الآخر لايحمل خاتم الدار . وقالت لي السيدة « ف » بعد أن فرغنا من قراءة « كشف » أسماء أصدقائها الأوفياء !! أتريد أن تستعير شيئا لم يسبق لك أن قرأته ؟ فوافقت شاكرا سعيد النفس لأنني رأيت العلاقة بيننا آخذة في النمو السريع ، ثم ودعتني إلى الباب وأقفلته ورائي برفق .

لم يتيسر لي سبيل النوم ، لكتابها وأفكارها ولقياها وحديثها وطيف خيالها الذي شبه لي مرارا أنه خارج من حجرتي الأخرى جامعا بكلتا يديه ثوبا حريريا على الجسد الناعم كأنه يخاف برد الليل أو تراب الطريق .

قطعت الشطر الأول من الليل في قراءة الشطر الأول من القصة ، وقطعت الشطر الثاني من الليل في تدبر ما قرأت وفي استعادة الحوادث ، وفي فنجال الشاي الذي شربته عندها ، والذي قامت جهزته بيديها ، وكيف أن الطبق ارتفع مع الفنجال لاصقا فيه حين رفعته عنه لما تخلخل الهواء بينهما فتلاصقا فعلقت على هذا بغير كلام ، بل بنظرة وابتسامة ، فسمعت السيدة « ف » تقول لي بلهجة كانت خليطا بين الهزل والجد والعلم والخرافة : يقولون يا سيد « مختار » إن هذه الحادثة لا تقع إلا لمن كان كتوما بطبعه ، لا يذيع سر صديق . فعلقت مداعبا : لست أنفي صحتها ، ولكنني أظنها تخلفت في هذه المرة . لكنني قرأت في عينها مايناقض أقوالي .

وعادت حوادث القصة فشغلت أفكارى من جديد . كان الذى قرأته منها يتناول امرأة ذابت إرادتها فى الحب المحرم ، كما تذوب قطعة الزبد فوق نار لينة .

ولعل الكاتب كان بارعا ، ولعلها حادثة شخصية تناولتها شباة قلمه فى حذق ومهارة ، وبعد أن عثرت قدمه مصادفة بهذه المرأة على طريق الحياة .

اخترت هذه القصة بنفسى من بين كتبها وبمحض ارادتى ، ولكنى أذكر أن نظراتها دفعتنى ، وتدخلت فى اختيارى فلم تدعنى حرا ، دفعتنى بنظرة ثم شجعتنى بإشارة ، وهذا فعل من التصريح .

وسمعت أذان الفجر وتتبعت أنغام المؤذن حتى غاب آخر نغم منها فى ثنايا صياح ديك على أحد السطوح القريبة . ثم سيطر على النوم حتى انتبهت على أشعة الشمس التى تسللت من إحدى النوافذ الشرقية .

***

أحسست فى يومى التالى كأننى مخلوق مجنح حواه الأثير ، وأن عينى هاتين قادرتان على أن تستشفا ما وراء القبة الزرقاء ، وأن أذنى هاتين قد تبدلتا فسمعتا نجوى الملائكة . وهبطت السلم العالى فلم أشعر بدوار ، ثم هبطت المنحدر الذى يؤدى إلى ميدان باب الخلق وأنا أسعد الخلق . وبدا لى كأنما حاضرى ينفصل عن ماضى ، وكأن سدا عظيما قام بين الظلام والنور والشقاء والسعادة ، وكأن الأرض لم يعد فيها أنين مكلوم ولاصراخ مظلوم ولا زفير محروم !! نسيمها حنان وأفقها أحضان ، يتمطى فى نعومتها كل خلق الله !!

قلت فى نفسى بعد فترة : وماذا بدل الدنيا ؟! فرأيت الجواب فى صورة ظلام ينسدل على « القاهرة » فى هدوء يحرك ساكن الخيال ، كما

تنسدل ستائر العروس على النوافذ : ويعقب ذلك لبس و « هندمة » ودروج على الطريق إلى مسكن السيدة « ف » ثم رجل وامرأة فى كرسيين متقابلين وأحاديث طابعها جد تشوبه إشارات إلى حبنا المولود وهذا هو ما بدل الدنيا!

دار حديثنا فى اللقاء التالى حول موضوع أوحت به حوادث القصة التى قرأناها . هيكله الرئيسى هو الخطيئة والغفران . ولم تدافع السيدة « ف » عن خطيئة تلك التى تردت ، ولكنها عرضت حوادثها جزءا جزءا . قالت : إن الذين يلقون على المخطئة مسئولية خلقية قد حملوها هذه التبعية لأنهم فرضوها فى تمام وعيها حين بدرت لها بوادر الخطر . فالقصة التى قرأتها ياسيدى قصة زوجة لم تثبت أمام الإغراء فزلت قدمها ويقولون :إنها مسئولة لأنها لم توصد فى وجه الهوى نوافذ قلبها منذ اللحظة الأولى . فبماذا يجيبون إذا اعترض عليهم معترض ، بأن هذه المرأة كانت ناقصة الإدراك وحكمها حكم النائمة تماما ، لأن حياتها الزوجية كانت مثار هموم ، فتحت فى حصنها ثغرة دخل منها المهاجم . إننا مسئولون عن الدفاع إذا هوجمنا ونحن فى حالة طبيعية . أما النائم والمريض والميت « وضحكت » فالمسئولية واقعة على من يهاجمه ، لأنه ليس أهلا للدفاع . قلت : وعلى أننى أوافق فى كل ما تقولين ، فإن لى وجهة نظر أخرى هى أن التطلع الكامن فى نفوسنا كثيرا ما يدفعنا إلى غير ما نريد . يلذ لنا فى سعادتنا أن نشرئب بأعناقنا إلى السعداء أمثالنا لنرى كيف يسعدون ، ورأينا أشد إحساسا فى نعيم السعادة . ويلذ لنا فى شقائنا أن نشرئب بأعناقنا إلى الأشقياء أمثالنا لنرى كيف يشقون ، وأينا أشد ترديا فى جحيم الشقاء . ودعينا من تلذذ بعض السعداء بشقاء غيرهم ، وتلذذ بعض الأشقياء حين يشمون رائحة السعادة .. حتى الموت فإننا كثيرا ما نستطلع طريقه ثم نعود مذعورين !! أنا شخصيا يحدث لى أن أكتم أنفاسى لآخذ فكرة عن خمود الرئتين وهبوط

القلب واضطراب الجوارح ، حتى إذا مافرغت طاقتى استأنفت تنفسى وأنا أقول : أعوذ بالله .. إنه شىء فظيع !!

هذا التطلع كثيرا ما يشقى ناسا وهم لايشعرون .

قالت السيدة « ف » : هذا صحيح . لكن المسئولية الكبرى بالنسبة لهذه الزوجة إنما تقع على المجتمع .

ففتحت عينى فى تعجب وبلاهة ، فابتسمت كأنها ترجونى أن أصبر ، ثم واصلت حديثها : من أبسط القواعد التى ننتجها فى حياتنا قاعدة « الإبقاء على الفضيلة » .. وأخذت نفسا عميقاكأنها أحست أننى عاجز عن تتبعها بأفكارى ثم استطردت : أليس من الحكمة أن نترك دم المنتحر ينزف لأنه قطع شريانه بنفسه ، ولا أن نقذف فى الشارع بالبقية القليلة التى تركها اللص من نقودنا المسروقة !! قلت لها : من ذا الذى يمارى فى هذا يا سيدتى ؟

فأجابت وقد تلهب وجهها بحمرة الحماسة : المجتمع !! ألاترى ذلك واضحا فى أفعاله ؟! هذه الزوجة التى أخطأت ، عرف المجتمع خطأها فثار عليه ولم يعطها الفرصة للتوبة ، بل قطع عليها الطريق ، فماذا تظنها فاعلة ؟! لابد لها أن تسير ، إلى الوراء أو إلى الأمام ، وقال لها الناس : احذرى أن ترجعى فلست منا فى شىء . فلم يبق لها بعد ذلك إلا أن تمضى فى طريق الخطيئة . هلا ترى بعد ذلك يا سيدى أننا كثيرا مانحيد عن هذه القاعدة البسيطة وهى « الإبقاء على الفضيلة » ؟ قلت : كلام مقنع ولكن .. « وقلبت كفى وزممت شفتى فى يأس » فقالت فى تخاذل : نعم ، « ولكن » .. أنا أعلم ما بعدها . تريد أن تقول : إن تطبيق هذا « المبدأ » على « مثال » الزوجة يعطى نتيجة كريهة . وما الذى يجبر زوجها على أن يتقبل امرأة زلت ، ولكن مرة أخرى لاتنس أننا حيال « نقص » لا يلبث أن

يستحيل « كمالا » إذا واجهناه وعالجناه ، وبذلك نضيف إلى «الوحدات » الكاملة على سطح الأرض « وحدات » جديدة ، أما إهلاكنا « الناقص » فورا وبمجرد نقصه ، فهذا إسراف قبيح يعرض عالم الكمال فى كل شىء للفقر والخواء .

وانفجرت ضاحكا وأنا أقول : مرحى ، مرحى !! لو أن كاتب القصة ساق حججك هذه فى الدفاع عن المخطئة لحظيت بغفرانى أنا شخصيا . فابتسمت ثم سألت باعتزاز وخجل : فى العالمين معا ؟! عالم الكتب وعالم النفس ؟! فسكت ولم أجب !!

وهكذا خلقت منى السيدة « ف » إنسانا يفحص أسلحته فى كل شهر مرة . كان على أن أحدثها وأن أشاركها فى التفكير وأن أحظى باحترامها . أو كان على الأقل ألا أصغر فى نظرها ، لذ لى أن ألقى منها حنانا واحتراما فى وقت واحد . ثم عرضت عليها مرة أن نلتقى إذا شاءت فى مكان غير البيت فاعتركت على وجهها دلائل رغبة ورفض حتى خيل إلى أن هذه السيدة تمشى فى طريقى على الرغم منها وأنها لا ترسم حيالى خطة محددة وإن كنت أنا فى الواقع أراها النصف الذى لايلائم أحدا سواى .

كان على ما دامت هذه هى رغبتى أن أعلم حقيقة وضعها من الناس لأننى عرفتها فى نطاق الجمال والتفكير والوحدة والاستقامة ، امرأة تغذى عواطف فيلسوف ، لكنها على الرغم من كل هذاتسعى بجمال يفتن العباد ، ويبدو أنها تكبرنى بسنوات قد تكون خمسا إذا صح تقديرى .

ثم التقينا فى الخلاء . يجرى النيل على مقربة منا وعلى البعد بستانى يغنى وهو يشذب الأشجار . وجعلت السيدة « ف » تنظر إلى الماء وإلى مسافة طويلة كأنها كانت فى شرود .واتخذ وجهها طابعا عجبا كأنها فتاة أنصتت فيها الأنوثة إلى أولى همسات الحب . وقد كنت فى الحق أسائل

نفسى : أمن المعقول أن عيون الرجال غفلت عن هذه المرأة حتى يومنا هذا ؟!
أعذراء هى ، أم أن يدا قوية غشوما ضربت بينها وبين زوجها في الفراش
فشيعته إلى القبر أو شيعها إلى عالم النسيان ؟ وظللتنا فترة من الصمت لم
ترفرف على مجلس لنا من قبل فرجحت أن موضوعا جديدا يراود أفكارها
وهو مما لايحسن الكلام فيه أو لعله مما تستحى أن تتحدث فيه . ورأيت
الطريقة المثلى لنفض ختم الحديث أن أبدأ فأقص عليها قصتى الشخصية
فأكون بهذا قد أعلمت وأوحيت ، وستشرع هى من فورها فتضع الموزون فى
الكفة الأخرى وتقص على قصتها ، وتنحنحت وابتلعت ريقى واستحضرت
صوتى كأننى سأغنى لأول مرة على خشبة المسرح . ثم قلت : اسمحى لى
أن أنهى إليك أخبار نفس قد يهمك أن تعلمى أخبارها . فابتسمت وهى
ترمى ببصرها نحو زمرة أعشاب برية رقص بعضها الهواء . وقالت : بل
أخبار أعز نفس ، تكلم . وأعارتنى سمعها وطمحت ببصرها كأنها ترى شيئا
على الأفق . وبدأت أنا أقص ما غبر من ماضى فى صدق وإخلاص
وصراحة كأننى أعرض على طبيبى تاريخ علة قديمة ، ولم تقطع على حديثى
ولم تعلق على حادثة ، اللهم إلاسحائب مختلفة الألوان كانت تمر فى صفحة
وجهها كما تمر الظلال ، عبرت بها عما بداخلها تعبيرا عميقا لأنها كانت
فصيحة الملامح . وختمت مقالى يومئذ بأن همست : كنت عاهدت الزمن على
ألاأطلب منه شيئا بعد أن حقق لى بعض رغائب أراها الآن تافهة جدا .
وسخا الزمن ـ وهو البخيل ـ فنصب لى على طريق حياتى منارا عاليا يلقى
شعاعه إلى مدى بعيد ، هذا المنار هو أنت !!

قالت وعيناها تسقيانى خمرا : حرارة الصدق والإخلاص والحب فى
حديثك أحستها الأحجار وجذوع الأشجار هذه التى تراها حولنا . ولكننى ..
« وتنهدت » أليس من المستطاع أن تتخلى عن أفكارك ؟ أنا لن أتخلى

عنك بطبيعة الحال وسأبقى حيالك ماعشت أختا وصديقة أضن بالطاقة العذبة التى حملتها نفسى لك أن يبددها عارض يعرض .ثم سكتت ونظرت إلى النيل وقالت وكأنها تناجى غيرى : كنت زوجة . وفى هذا ما يكفى !! وأطرقت نحو الأرض حين اقتلعت بيدها عودا من النجيل جعلت ترسم به شخوصا شتى ، وأحسست أنا ـ وإن توقعت ذلك من قبل ـ أن شيئا من الفجيعة ألقى ظلاله على نصاعة أحلامى ، ولكنى شخصت إليها فرأيت الجمال الذى يوقر ملامحه شبه حزن قديم ، والعينين الهادئتين اللتين تقسمان أنهما ماكذبتا قط ، والأهداب المشرعة التى تلقى ظلها على الورد ثم تسترد الظل . وتصورت فى لمحة قصيرة كيف أن هذا كله سيكون ملكى ، وأن ذلك الينبوع غير راجع ولا مدفوع ، ثم عدت فذكرت شيئا بعيدا . ذكرت أبى الذى كان يغفر لأم مختار بعض أخطائها لشفاعة الجمال للأخطاء ، ثم هتفت فى سرى : وكان معذورا ! وهذه السيدة لو كانت ذات ماض ـ وهذا غيرمعقول ـ لوقف سحرها فى طريق حياتها فلا تنهار . لكنها البراءة !!

ومرت على وجهها فى هذه السكتة لمحات مختلفات الألوان كما تمر ألوان الطيف فى البللورة ، حتى استطعت أن أسترد انتباهها بقولى لها : كنت زوجة ؟ .. ولو !! فأهدت إلى نظرة غامضة وقالت : ولو ؟! .. هذا بديع ، ولكن .. لكن يخيل إلى أن فى فطرتنا عنصر الإلحاح الذى يدفعنا فنطلب « النهاية الكبرى » فى كل شىء ، قلت فى دعابة رفع الحب عنها القيود فلم أعد أستشعر خجلا إذا عجزت عن مجاراتها فى الفكر : بلبلت أفكارى !! فرفه عنها قولى حتى أحسست زهوا واستطردت تتحدث : نمسك بحبل المطاط ونحن صغار فلانفتر عن شده حتى تنال « النهاية الكبرى » فإذا به ينقطع بين أيدينا ، وتعطينا كرة الحظ على المائدة الخضراء ماقد نستكثره فى ضمائرنا ولكننا نلح حتى نعرف « النهاية الكبرى » وأنى لنا

أن نعرفها إلا إذا بدأ حظنا يتراجع فبدأنا نخسر ؛ ثم لانكف !! ويعطينا يوم الأربعاء هذا الذى نتملاه من السعادة فنجد أنفسنا مدفوعين لننال « النهاية الكبرى » فإذا بالتقدم يقص من أطراف سعادتنا شيئا . دعنا نعيش فى الحاضر فترة من الوقت ولا تدفع الزمن بكلتا يديك فإنه يمضى على الرغم من كل شىء !! نظرت إليها نظرة المفتون ثم وددت أن أقبل ثغرها وحديثها لو كانت الأحاديث تقبل . إن هذا الجمال الذى يوقر ملامحه شبه حزن قديم تملك صاحبته عقلا يعقلها عن كل منقصة . يا الهى !! أهكذا تفعل الكتب؟! تبا لى !! لم كرهت المدرسة !! ثم ذكرت الماضى فوجدت فيه بعض ما يخفف على مرارة الندم ، ثم نظرت إلى السيدة « ف » وأنا أبتسم وأقول : لك ما تشائين يا سيدتى ولكن ينبغى أن تعلمى أننى أسد عليك الطريق . لن أدعك تعرفين إلا إلى الغاية المشتركة التى تجمع كل ذكر وأنثى ..فاعلمى أنه لامحيص !! أجل لامحيص !!

***

لم أعـد أذهـب إلى القهـوة ولا أرى « أبـا الفتـوح » ولا أذكر عـزبة « خورشيد » !! امتدت يدها إلى الماضى فطمست معالمه قبل أن تبنى الحاضر بأيد وقوة .. وجعلتنى أعيش معها بقلبى وأفكارى . أعمل ، وأقرأ ثم أناقش ما أقرأ فأجعل من نفسى طرفا أصيلا وطرفا يمثلها لتصارع الأفكار.

ولم يرق لنا أن نلتقى فى مسكنها كثيرا حتى لا تنوشنا الألسن على أن التقاءنا فى المسكن كان مدعاة إلى أن أفكر فى وجهها أكثر مما أفكر فى معانيها الباقية . وقد لحظت هى ذلك فنحتنى بنظرة ناطقة عاتبة يشوب عتبها قليل من خيبة ظنها فى . والحق أننى آمنت بكل ما يبدو منها لأننى رأيت خصالها . كلها معانى ضخمة من المحال أن يتقلدها المتكلف إلى آماد

طويلة .

أخذت يد الليالي تدفعها شيئا فشيئا حتى تتقارب ونقص ما بيننا من التباعد نقصا لايحس ولا يرى ، كان أشبه شيء باستهلاكنا أعمارنا فلا نفطن إليه إلا وقد بلغنا الذروة . وقد حدث لنا هذا :

ــ كنا في ليلة من ليالي الشتاء وفي حجرتها المعهودة على كرسيين متقاربين نحتسي الشاي وتدفئنا بأنفاسها جمرات خبت في موقد نحاسي على شكل زهرة اللوتس ، وقد علقت بجو الحجرة بقية قليلة من عبير « عود » أحرق منذ المساء ، وسكن الحي الوطني بعد المغرب مباشرة ولم يعد أحد يجول في الحارة إلا الذين هم آيبون إلى مساكنهم .

كانت السيدة « ف » في ثوب من « الكستور » داكن الرقعة تظهر فيها دوائر بيض على هيئة الأحقاق . فصل على جسدها المفصل على طريقة « الروب » فاتسقت فتحته على صدرها كما تتسق فتحة « الجاكت » . ويسر لي ثوبها هذا أن أرى الأضداد جنبا لجنب : رأيت البياض بجنب السواد ورأيت جزءا من صدرها تحت ثغرة النحر ثم طول عنقها الذي يذكرني بجيد « إيزيس » وشعرها الغزير المتراكب في ثقل نوعي ـ كما قلت لك ـ ما تترامى ستائر القطيفة .

كان مجلسنا يومىء إلى أننا في سعادة هادئة أشبه أن تكون سكرة لا عربدة لكن فيها انتشاء وإشراقا وتحليقا . وكأننا اتفقنا بهدوئنا على أن نترك الأيام تمضي في سبيلها بطريقتها وأن نأخذ من الثمر ما يجود به الشجر يوما بيوم ، لكن عنصر الطمأنينة كان متميزا في علاقتنا كأننا زوجان حبيبان قطعا في حياتهما مراحل الجلبة وآلا إلى الاستقرار . كانت تقرأ وأنا أسمع، ولطالما كلفتني من الأعمال أشياء جعلتني اليوم أكبر من سني !!

وعرضت لنا مسألة التضحية وما تعقبه من سعادة يتمتع بها فريق دون

فريق . ثم عرض لنا بعد ذلك لون من ألوانها هو التضحية في الحب .

فأمسكت عن القراءة وتوقفت بغتة كمن يمسك أقدامه لئلا يتردى في بئر وجد نفسه فجأة على حافتها . ثم وضعت الكتاب مقلوبا على المنضدة القريبة حتى لاتضل الصفحة . ثم عقدت ذراعيها على صدرها كمايفعل صغار التلاميذ في الفصول وقالت بنبرة تنم عن شعورها بخطر قريب « آه .. دخلنا في الجد » وبدا على وجهها أنها لن تستأنف القراءة فما كان مني إلا أن تناولت الكتاب وأنا أقول بصوت جاهدت أن أخفي اضطراب نبراته : فلأقرأ أنا .. فلا تعني نفسك يا سيدي ، ثم بدأت :

ـ « أما التضحية في الحب فقد تسعد طرفا واحدا ككل تضحية كما يموت بعض أبناء الوطن ليسعد الباقون . ولكنها في بعض الأحيان تتيح للرجل أن ينال كل ما يشتهي وتتيح للمرأة تبعا لذلك أن تنال بعض المتاع ، أو تنال كل المتاع كما ينال الرجل سواء بسواء . لكن مرارة الندم هي التي تجعل السعادة منقوصة .

على أن هناك نوعا من الأحباب يعطي وهو يريد ، ويدرك كل مايفعل، وهذا ضرب من النفوس قوي حتى في ساعة الضعف ، تقع نفسه في القمة دائما وفي مكان حصين لا يستطيع الندم أن يرقى إليه » .

كان هذا تعليقا على حادثة فتاة فر صاحبها بعد ما خدعها ورنق ماءها فلا يشربه إنسان . وجلست هذه الفتاة تقول لإحدى صاحباتها في طيبة تظن بلاهة : لست أدري لم غاب عن أفقي وصد عن طريقي ؟!هل يظن أنه بما عمل قد أحالني إلى شريرة؟! وإذا كان هذا هو ظنه فما باله عمل ذلك ؟! إنني لست شريرة ولاسيئة إلا في ناظريه هو ، لأنني أحس أنني لم أتغير .. بالنسبة إليه على الأقل . « أقسم لك أنني لا زلت أحبه !! ليته يلقاني !! »

وتوقفت عن القراءة ووضعت الكتاب أنا الآخر مقلوبا على المنضدة

القريبة لأتفرغ للتعليق . لكننى بصرت السيدة « ف » وقد استحال لونها إلى شحوب الموتى . كانت ناظرة إلى حجرها لاتتحول عنه حتى لا تلتقى الأعين ولكن ذلك لم يحل بينى وبين أن أقول شيئا مما أريد فهمست : عشاق ضروب .. أشكال وألوان . وكل يفعل مايظن أنه يسعد ..

وخيل إلى أن الليل يتحدث معى وأن مخدرا عظيما سرى فى حواسها فلم تعد أهلا لأن تفعل ما تؤمر به . وكانت لاتزال ملقية ببصرها إلى حجرها حتى تقدمت خصلات شعرها فانسدلت على أسفل جيدها كماتنسدل ستائر المخمل الأسود . وألفيتنى مدفوعا نحوها حتى وقفت إلى جانبها ووضعت يدى على رأسها للمرةالأولى فى حركة تلقائية لاتشوبها إرادة . ثم قلت وأنا أضغط رأسها إلى الوراء حتى رفع إلى وجهها : أليس كذلك ياسيدتى : ألسنا فى الحب أشكالا وألوانا !!

وترقعت ـ كما تتوقع أنت الآن ـ أن تنقطع السدود فورا وأن تغيب فى هذه اللحظة قوانين السماء والأرض ، وأن نستمع إلى نداء قد استمع إليه من قبلنا أحباب كثير . ولكن .. ولكنها أخفت وجهها بين كفيها وانخرطت فى بكاء عنيف .

قالت لى السيدة « ف » بعد فترة عميقة وبصوت تقطعه الشهقات : هل تحبنى ؟ ! فأجبتها وقد تراجعت إلى مجلسى الأول : ألا زلت تطلبين الدليل !! قالت : إنه آخر ما سأكلفك به من متاعب . أصغ إلى . أطلب إليك باسم حبنا أن تنصرف عنى حتى أخلو بنفسى . هل ترى فى ذلك عناء تحمله من أجلى فإننى فى حالة لاتصلحها إلا الوحدة ، وإذا كان اسم التضحية يروقك فلا تعد إلى حتى أستدعيك .. أرجوك !!.

كانت قواها جميعا متعاونة فيما فعلته كما تتعاون قوة الجيش العظيم فى المعركة الفاصلة : دموعها الكبار تنبثق من عينيها فى حدة تنم عن

اضطرابها الجائش وشهقاتها تقطع نبرات صوتها المستميت الوانى بطبعه، فانظر ماذا عسى أن يفعله مثل هذا الحديث !! وغاب عنها الوقار وحل محله انكسار ظاهره جمالها فأمسى جديرا بأن يحرك الصخر . وعجبت فى مجلسى من أن السيدة « ف » التى تحتل من نفسى منزلة لم تتطاول إليها امرأة ، كيف استحالت هكذا إلى أنثى .. امرأة .. وامرأة بكل ما فى الكلمة من معان ، تريد خشونة تحوطها كما تقيم حول البستان سورا من النبات الشائك .

كانت حاجتها الحقيقية فى هذه اللحظة احتضانا وضما وتقبيلا لأنها كانت نهبا لآلام ومخاوف . لكن السيدة « ف » وقد عرفت أنت من هى - فاض حديثها بالصدق وهى ترجونى أن أخرج . فلم يسعنى إلا أن أمتثل . وخرجت أتعثر تعثر نسمات الخريف فى منعرجات الحارة وذهبت من فورى إلى بيتى ، وخيل إلى أن وقع الحوادث كان عميقا فلم يفتح على أبواب الأرق فلم ألبث أن استسلمت لنوم عميق .

خرج حيها منذ قريب من منطقة توزيعى فلم أر بابها فى اليوم التالى . لكن يوما آخر لم يكد يمر حتى رأيت بين يدى رسالة عرفت فيها خطها قالت فيها شيئا لم أتوقعه قط :

٢٠ أكتوبر ..

« ليتنى أستطيع أن أشكرك على الليالى السعيدة التى أقحمتها بحبك فى نطاق حياتى الكئيبة .. أجل ليتنى أستطيع !! كنت أنانية معك إلى حد كبير فها هو ذا حبنا قد ولد منذ عام وأنا لم أمنحك شيئا .. آه ! ماذا أقول ؟ ليت عندى ما أستطيع أن أقدمه إليك . إن الأوان قد آن لتعلم كل شىء وسأقوله بنفسى :

كنت بالنسبة إليك امرأة قاسية تأخذ ولاتعطى ، وقد يكون ذلك غير

واضح فى ذهنك ولكنه عين الحقيقة ، فأنت يا أحبيتنى قد منحتنى كل ما أتمناه لكنى يا أحبيتك لاأظن أنى منحتك إلا التافة القليل ، وأحلام المحبين عريضة .

ذلك هو ما أفاض دمعى وزلزل قلبى مساء كنا نقرأ . ألاترى هذه الفتاة الطيبة التى قالت لصاحبتها بعد أن سلبها حبيبها أعز ما تعتز به العذراء : « أقسم لك أننى ما زلت أحبه !! ليته يلقانى !! » إن هذه الفتاة التى أبكتنى . وأننى على الرغم من رضاك بحبنا المحروم تمنيت أن أكون بالنسبة إليك هذه الفتاة ووددت أن لو كان الزمن ساقنى إلى طريقك أيام كنت أملك « الدرة » فبذلتها لك لأبرهن على أننى فانية فيك لا أرى لشخصى كيانا مستقلا ولاأحسه إلا قائما فى كيانك . لكن .. كل شىء جاء متأخرا وغير مطابق لأحوالنا ، فأنت لست كحبيبها الغادر وأنا لاأملك ما أقدمه إليك !!

كل شىء فى قديم مر « بتجربة » فلا أرى فى منزلى شيئا أقدمه لضيفى الغالى ، فماذا أعمل ؟!

حرام على أن أستغل طيبتك وأن أحرم شبابك متع الحياة وأن ألوح فى حياتك سرابا وفى الدنيا ماء وجنات وظل وفاكهة .

وبحسبى ماقد حققته لى من سعادة ويكفى أننى التقيت ـ ولو عرضا ـ بمثل من مثلى حلمت به أيام كانت تسدل على سريرى كلة العذراء ، وحلمت به بعد أن أسدلت على فراشى كلة الزوجية ، وظللت أحلم به بعد أن أسدلت على مخدعى كلة امرأة لاهى زوجة ولا عذراء .

اغفر لى حبى لنفسى فقد أضأت بك كهف حياتى سنة كان من الممكن جدا أن تنتفع بها فى نطاق آخر ، فلاتلمنى ، فإننى محرومة !! »

٢٢ أكتوبر .

ماذا أصنع ؟! لابد أن أقول لك كل شىء وإلا هلكت هما وحسرة .

ألم أقل لك : إنه ليس عندى ما أقدمه إليك ؟! وقد تتساءل عن معنى هذا .
أما معناه ياصديقى فهو شيء فظيع ، أفظع مما تتصور . لأنك عبدت لمدة عام صنما ليس أهلا للعبادة بالطبع ثم هو بعد ليس أهلا لأن يوضع فى بيت الأصنام .. فقد أحببت امرأة لها ماض سيىء .

كنت منذ أعوام أعيش فى بيت زوج كريم ، كان كريما حتى فى أحرج الساعات ، وكنت فى إحدى عواصم الوجه البحرى ، تحت رجل يسلك فى الحياة مسلكا عجيبا : يؤدى واجباته فى الخارج كما تؤديها الآلة الحاسبة ويؤدى واجباته فى البيت كما يؤديها عداد الكهربة ، فهو فى السوق صاحب أكبرمطعم والمستقل بالقدر الأعظم من العملاء . كثير المال يعيش فى بحبوحة . لم أطلب منه شيئا إلا قضاه . ولم أقترح عليه رأيا إلا صوبه . يسارع إلى ما أشير به قبل أن تنتهى اشارتى . حريص على إسعادى بطريقته التى كنت أراها بينى وبين نفسى غير منطبقة على ما أريد .

ودرجت حياتنا على هذا النمط حتى آلت إلى حال تمنيت معها أن يخالفنى مرة أو أن يقسو على مرة فأشعر بحلاوة الصلح وطعم السلام وتطرح الإراحة وأذوق تطلع الأعضاء إلى الاستلقاء بعد وعثاء السفر وامتداد الطريق لكن ذلك لم يحدث قط . لم يكن هناك خصام فأذوق طعم الصلح ولاحرب فأعرف معنى السلام ولاتعب ولاوعثاء طريق فأرى تطلع الأعضاء إلى الاستلقاء .. بل تحية صباح ثم انصراف إلى العمل وتحية المساء ثم رقاد فى فراش مشترك . وبين هذه وتلك مطالب مقضية ونفقة ميسورة ومعاملة من إنسان لايعرف إلا ما أريد .

وكنت منذ شبابى الباكر خيالية انطوائية وهاتان خصلتان ما اجتمعتا فى نفس إلا رعتاها فى صمت كما ترعى النار فى مخزن التبن .. ولم يكن هناك فى بيتنا بنون يبعثرون أوقاتنا ولامشاكل عامة تلهينى عن

الخصوصيات . لأن الذين ينحون أنفسهم للمجتمع بمايعملون لن تستطيع مشاكلهم الخاصة أن تستحوذ عليهم ، ومعنى ذلك أنهم لن يعيشوا أنانيين ما عاشوا . أما أنا فقد كنت أنانية من قبل كما كنت معك . أعطتنى الظروف فرصة فسيحة فكرت فيها فى نفسى وحدها حتى حاق ما حاق ثم أجبرتنى بعد ذلك على أن أكون أنانية بشكل آخر حين حرمت من يجب ألا يحرم لحرص على نفسى ، ولأنه قد سبق أن أطعمت من لايحب أن يطعم فساء ظنى بالناس . ولم أسىء الظن بك أستغفر الله . لكننى طبقت عليك مبادىء حياتى ويؤلمنى أنك قبلتها .

ليتك لجحت يوما فاستدرجتنى من حيث لاأشعر حتى نلت منى ما يخفف عنك نار الحرمان . لاتعجب فإنى أحبك : وما أشبهنى الآن بالمفلس الذى أتلف ماله فيما لافائدة منه ثم عاد فتمنى بعد فوات الأوان أن لو كانت العناية رافقته فاشترى التحفة التى تفتنه اليوم فظفر بها قبل وقت الإفلاس !! أجل ما أشبه هذا بذاك . ليتنى قدمت إليك شيئا من مرافقى الهالكة ، إذن لندخل اليوم فى حساب الماضى وهو جبل فكيف تثقله حصاة جديدة !

٢٤ اكتوبر ..

ترفق قليلا فى احتقارى ياصديقى فقد عودتنى فى معاملتك لونا آخر والتمس الأعذار لامرأة ماكذبت عليك قط .

كان بيت الأحزان الذى أقمت فيه الشطر الأخير من حياتى الزوجية متصلا بالبيت الذى يلاصقه ويبدو أنهما كانا بيتا واحدا كبيرا ذا جناحين متشابهين أمامه حديقة واسعة ثم قسمه الوارثون بسور أسسوه بالحجر وأكملوه بقضبان من الحديد نمت عليها نباتات تسور بها الحدائق فأصبح المنزل اثنين متشابهين فى كل شىء . ثم تداولتهما الأيدى كشأن كل موروث

حتى أصبح المالكون غرباء كالمستأجرين سواء بسواء . وفى أحد هذين المنزلين وقعت لى حادثة لا أنساها وإن عمرت ألف عام :

امرأة منطوية على نفسها خيالية كثيرة الأحلام شديدة الحساسة كل شىء يلمس قلبها بعنف ، ليس هناك أبدا مايمسه برفق يا صديقى العزيز . كان ذلك فيما مضى .. أما اليوم ، فإن لى شأنا آخر .

وفى منزلنا خادمة تقوم بأعمال الطبخ والغسل والتنظيف .وبستانى يمر على حديقتنا . وحدائق المنازل المجاورة فى هذا الحى المنعزل الهادىء البعيد عن كل ضوضاء فى المدينة الصغيرة . ويقوم هذا البستانى العام بما تطلبه الأشجار والأزهار . وكانت حديقة مسكننا ملاذى ما دام الجو يسمح بذلك . وعلى مقربة من السور الذى يفصل البيتين المتجاورين عريشة خشبية صغيرة ألبست جلبابا من الخضرة وفتحت فيها نوافذ عدة وحفت بها أحواض الزهر وتلاقت عندها طرقات ضيقة لا تكاد تطؤها أقدام إلا إذا سرت عليها . جعلت هذه العريشة كنى ومسكنى ألجأ إليها بكتاب أو ألجأ إليها وفى يدى ما أخيطه أو أطرزه ثم أنكب على عمل كأننى أطلب به أجرا.. أستغرق فيه لأن قلبى طاقة محبوسة لاأجد لها متنفسا ، فقد كنت زوجة لـ « جهاز » من الأجهزة لالرجل من الرجال .

لم أكن أحبه ولم أكن أكرهه وكان قليلا ما يسأل عن عواطفى بعبارة فيها جفاف التصريح خالية حتى من التمثيل ، كان يسألنى فى إحدى الليالى قائلا لى : « هل تحبيننى » يلقيها بنفس الطريقة التى يسأل بها المسافر أحد موظفى المحطة عن موعد وصول القطار . وكان يعز على أن أكذب كما يعز على أن أصدم إنسانا فى خدمتى . فأحتال على الموقف قائلة وأنا أنظر إلى شىء بعيد أو أرخى من أجفانى فلا يرى فى عينى ما يخالف أقوالى : « ألا زلت تطلب الدليل ؟ » ثم أقول بينى وبين نفسى لم يفعلون هكذا ؟ لم

يسأل الرجال نساءهم مثل هذا السؤال ؟ ما كان أحراهم أن يلتمسوا الإجابة في أفعالهن لا في أقوالهن .

وهكذا أحسست أن في حياتي ثغرة لأني أعاشر رجلا من العجين يلين في أي مكان أغمزه فيه . وكثيرا ما يلذ لنا أن نكون مملوكات حتى لو ثرنا على ذلك الوضع . فما أشبهنا بالبطل الذي يكبل يديه بالحديد ليذوق لذة فك أغلاله !! هكذا نحن .. أو هكذا كنت فيما مضى . ولذلك كنت كثيرا ما أخلق من الخلاف ما يحرك حياتنا الراكدة كما تلقى بالحصاة على وجه الغدير الساكن . لكن زوجي كان يسارع إلى التسليم بمجرد إعلان الحرب فلم تسول له نفسه أن يخوض المعركة الأولى ، فكنت آوى إلى فراشي مهمومة ضائقة الصدر فريسة للملل والسآمة .

ثم بدأت حياتي تتغير يوم رأيت جارنا الشاب الوسيم يدلف إلى باب مسكنه الملاصق لمسكننا وأنا راجعة من السوق ، وأحسست أنه يرشقني بنظرة وأن عينيه الواسعتين تفيضان غزلا ورقة فسألت نفسي ثم أسفت بعد هذا السؤال : ماذا عسى أن يكون إذن لو ظاهر اللسان عينيه هاتين في حديث طلي لذيذ !! ثم نسيت هذا كله بعد دقائق .

وأظلنا يوم من أيام الربيع ضحكت فيه الحدائق بشتى ثغور ، وكانت حركة « التفتح » مسيطرة على الأرض جمعاء فشملت الزهر والورق والينابيع والقلوب . وكثرت أحلام اليقظة فظهرت في أصحاب الحساسة « عصبية » وضيقا لا يعرف سببه . وكنت أنا منهم !! وكنت في عريشة الحديقة أطرز ، واليوم جمعة وخادمتنا في الداخل تقضي بعض شئون وجلست أنا شاردة اللب لاأعلم أين كانت أفكاري حتى انتبهت على حركة خلف السور الفاصل فإذا بي ألمح الشاب يتحرك ويدوس بعض الغصون الجافة كأنه يريد أن يحدث صوتا .

كنا في شبه معزل لأن البيوت المواجهة كانت جميعا ذات طبقة واحدة . وكنت أنا وحدي ، وكان هو وحده لأنه موظف عازب ، خادمه الفتى في الخارج أو في الداخل لا يعني . وهناك عدة شجرات عند مدخل كل بيت تؤلف خميلة تحجبنا عن الناظرين . وجعل الشاب يأتي بأعمال أظنها لم تكن ضرورية ، وقد رأيته من فرجة صغيرة تجمت في السور النباتي حديثا حتى شككت أنها فتحت عمدا . وكان يعمل وهو يبتسم ، وكانت بسمته توددا وإغراء . ثم أخذ يغدو ويروح بين الظلام كما يغدو الشبح الجميل ثم عاد فسامت الفرجة حتى آض البعد بيننا لا يزيد على أمتار ثلاثة ، أراه من خلف السور عبر النافذة المفتوحة في عريشة النبات ويراني هو كذالك ، ثم وقف وبدت على ملامحه أمارات الكلام فألقيت عليه نظرة استرجعتها بسرعة لكنني مالبثت أن سمعته يقول : « صباح الخير » .. فلم أرد بل انكببت على طرزي أرشق فيه الإبرة بعنف وأنزعها بعنف ، وكان من الممكن أن أقوم أو أن أرده إلى صوابه بكلمة قبيحة لكنني أشفقت عليه وعلى نفسي أن أضعها في موضع الحطة . وتمر ثوان يستأنف بعدها قوله : إن كثيرا من أزهار حديقتنا بدأت تموت.. هي الآن في النزع ، في الاحتضار .. لأنها محرومة « فخلت أنه يعنيني » حتى استطرد : أقصد أن أسأل ياسيدتي عن « حسن الجنايني » . هل مر بحديقتكم قريبا أم أن أهماله مشترك عام ؟!

واسترقت النظر فرأيته يبتسم وبدا كأنه ساحر بريء أو لص جميل كما يقولون . فلم أملك أن أجيبه باختصار : إنه مر بنا . فانصرف مترددا وهوينظر نظرة بعد أن يخطو خطوة ويومىء برأسه شاكرا فضلي .

٢٦ اكتوبر ..

لابد من الشكوى ياصديقي . نعم لابد منها !! لأن قولة « اه » موجودة في جميع اللغات ومدلولها واحد !!وهأنذا أشكو إليك مالم أبثه من

قبل لسواك ، فلا تكن قاسيا فيما تحكم !!

لم أنم ليلتئذ ودخل على زوجى بعد هزيع من الليل ، فخيل إلى أنه متغير الملامح .كان كبير البطن بطبعه من طول الجلوس وأكل الدسم ، فرأيته بعد هذا الشيطان الجميل إنسانا ليس ذا كرش فحسب ، بل يحمل على بطنه الكرة الأرضية ، وضاقت أنفاسي وهو يلقى فى مسمعى بكلماته المألوفة التى يقولها عند عودته : هيه .. كيف الحال .... والصحة . هل نمت منذ وقت طويل ؟!

وضقت ذرعا بمايقول لأن أنفاسي كانت فى انبهار أنفاس من يشاركه حمل الأرض ، لكن الأيام توالت ولم أغير عادتى ، كنت أرى كل يوم شيئا جديدا بالنسبة للفرجة التى لجمت فى السور ، كانت تتسع قليلا قليلا فتتسع معها ثغرة قلبى . وأؤكد لك أننى لم أكن أتمنى أن تربطنى به علاقة ولكنه التطلع . التطلع الممقوت الذى يودى بكثير من أصحابه . ألاتذكر قولك ذات مساء : إننا كثيرا ما نستطلع طريق الموت وأنت نفسك تكتم أنفاسك لتأخذ فكرة عن معنى الفناء وهو معنى كلنا نخشاه . وفضلا على هذا فإننى كنت واثقة من نفسى . وذكرت نابليون الذى كان ينام على ظهر جواده فى الميدان لعدة دقائق أوثوان يبدؤها بإرادته وينهيها بإرادته فحاولت ـ وهذا حق ـ أن أحاكيه فأغفى وأنا على جواد الحب لعدة دقائق أو ثوان أبدؤها بإرادتى وأنهيها بإدادتى ، ولن يكون هناك خطر.

ووافقت الفكرة فصممت على الاستطلاع ، ويا سوء ما استطلعت .

أرخيت زمام الأمور يوم بادلته التحية فتدفق بالحديث يهمس به كأنه أحد « الرقاة » وعن لى أن أجعل أوقات نزولى إلى الحديقة بعد الظهر، وأن أبعثر أوقات الصباح فى شىء آخر ، فانقسم اليوم إلى قسمين متضادين أولهما كئيب باسر والثانى جميل باسم . فلما تساءلت عن السبب أيقنت أنه

« هو » فقلت لنفسى : إذن فلنرجع ، وكفى استطلاعا . لكن حجة قوية مالبثت أن صدمتنى وفحواها : « حقيقة أنك عرفت المكاره فى الحب ، لكن .. هل عرفت شطره الأخضر ؟ » فارتجفت أوصالى !!

واقترب يوما من السور ووضع جبهته على الحديد : ثم همس فى دعابة عذبة : أنا سعيد .. الرضا يلون وجهك الناضر .. ياسلام !! لقد ملئت غرورا بنفسى لأننى أراك تتفتحين تفتح الأزهار، منذ انفتحت فى سورنا هذه الثغرة . فابتسمت وقلت وأنا أكتم ضحكة عميقة : حقيقة إنك مغرور !! « لكننى كنت مرتاحة ».

ولم يلبث الشيطان أن سألنى عن التاريخ فأجبت ببساطة : إننا فى العشرين من شهر أبريل فضحك عميقا ثم قال : ليس هذا ما أعنى .. ولاتذكرى أبريل من فضلك فى معرض حديثنا لأنه شهر الكذب ..أرجوك !! أنا أسألك عن الشهر العربى !! فتحيرت حتى لاأدرى ما أقول . وأرتج على فلم أنبس بحرف ، لكنه فسر ما عنى قائلا : إن القمر مولود جديد ، فهو لايرسل إلا شعاعا خابيا يلمس الزهر والشجر لمسا خفيفا لكنه ساحر .

فنظرت إليه ملتهبة الوجه مختنقة النفس لا أستطيع أن أنطق . وبدا على ذعر شديد ، لكنه قال وكأنه فجع فى أمله فى : لماذا تصنعين هكذا بنفسك . أتظنين أن هناك فرقا بين لقائنا فى الليل ولقائنا فى النهار ؟! الأمر بالعكس . فإن جلوس الناس فى حدائق بيوتهم مساء أجمل وأستر وطبيعى كذلك . لاتنزلى . لكننى سأفعل . ثم سار كأنه عاتب !!

وهبط المساء وسكن حينا الراقى ، وظهر على الأفق الغربى قمر وليد ، ألقى شعاعه على ذوائب الشجر وأحواض الزرع والعريشة الخضراء هادئا خفيفا ، يوحى بمعان كثيرة مثيرة خصوصا للذين منوا بلقاء . ووقفت فى مخدعى أرقب السماء وأنظر المساء وأغوص فى سريرة الليل لأرى ما يكنه

لمثلي . ودرت في الشقة كأنني ملسوعة لا أدري ماذا أصنع ، حتى أكملت أشواطي خمسة وعشرين على الأقل ، فأخذني الدوار وأحسست بحاجة إلى الهواء الطلق فعدت حيث ارتفقت النافذة لكنها كانت بخيلة فلم تجد على بنسمة ، فلم أر بدا من النزول ، وقلت : ماذا في هذا وماذا يعنيني ما دمت سأصد عن الثغرة ؟ وقد فعلت . وجلت في أرجاء الحديقة حتى مررت بكل ركن ، فلم يبق إلا الملعون . ثم اندفعت إليه كما اندفع آدم نحو الشجرة التي أخرجته من الجنة ، وهناك رأيت وجهه المستدير يرف تحت الشعاع الخابي . وهمس : مساء الخير . فلم أجد أنفاسي ، قال : ليس من المستحسن أن نرفع أصواتنا بالنجوى فإنه ليل . اقتربي من السور . إن أحجارا وحديدا وزرعا وخشبا وأشياء كثيرة تفصل كل منا عن صاحبه ، فما بالك تخافين ؟! .. ألا تسمعين نجواي .. آه .. أحبك . اقتربي ولاتخشي شيئا .. إن أحجار السور أحنى على القلوب منك أيتها القاسية .. ما بالك حائرة هكذا كأنك فراشة بيضاء بين خضرة الحديقة !! أنا لا أطلب منك إلا شيئا واحدا فأجيبيني إليه ثم عودي ، قولي : لماذ لم نلتق قبل ذلك بسنوات ؟! وماذا كان يحدث لو أنا تلاقينا ؟! وظل يكرر السؤال وفمه خارج الحدود لأنه في سماء حديقتنا ، وإن كان جسمه في أرضهم ، ولا أعرف كيف اقتربت منه ولاكيف أخذني الدوار . فإنني أسندت رأسي إلى حديد السور، ثم أفقت وكأن شيئا حادا يسري في خياشيمي كأنه النوشادر ، فإذا بقبلة جديدة تقع على فمي المزموم !

٢٨ اكتوبر ..

لن أخدع الناس مرتين ، ولن أستطيع طريقا عبرته من قبل !!

أنا نقد زائف يا صديقي فلا يغررك حسن الصنعة . فإذا أعجبك أن تحتفظ به بعد معرفة الحقيقة فذاك من خصوصياتك . هل كان يجدر بي أن

أتستر على الماضى !! حتى تقع فى حبائلى ، ثم أقصه عليك أوتقصه عليك المصادفات ؟! لست أرضى لأننى آليت على نفسى أن أكفر ، ولأن فى القلب شيئا أقوى من القسم ، وذلك هو الحب . وقد تقول بينك وبين نفسك : تعسا لهذا الحب !! لكننى سأظل أنانية ، بإبقائى على حبى فيك . هل يروقك أن تعرف بقية المأساة ؟ إذن فاسمع :

قررت بعد هذه الحوادث أن أغير مكانى ، وأن أفر من الذى يترصدنى. وقد فعلت . ثم غرست عدة شجيرات تحت الفرجة حتى تنمو فتسدها ، وجعلت أسقيها وأرعاها غير معتمدة على البستانى فيما يعمل . ونمت الشجرات واخضرت فسدت أوراقها السور ، وخيل إلى أنا أن الصدع الذى كان فى قلبى قد انصلح ، لكننى كنت أعد الأيام من حيث لاأشعر، وأقف وراء الشيش فى إحدى النوافذ لأراه من حيث لايرانى ، فأيقنت أن رسيس الهوى لايزال فى خلايا قلبى ، لكننى لم أعره اهتماما ، وتركت حبل الزمان يمتد فى طريقه المعتاد ، وإن أحسست ضيقا فى حياتى الزوجية .

ثم غاب عنى فلم أعد أراه من بعد ولاقرب ، فأدركت أنه فى إجازة الصيف . وكأنما كانت هذه الأيام التى غابها ضرورة من ضرورات هذه القضية، فقد أفرخت فيها الفتنة ، أقصد فتنة نفسى .

كنت إخال ــ وأنا على يقين أنه غائب ــ كأن شبحه يتخايل وراء السور، وبلغ بى الأمر فى إحدى الأماسى ، وكان قمر وليد جديد يزجى شعاعه على خضرة الحدائق فى سكون الليل ، بلغ بى الأمر حد أننى خلته يهمس وأننى أسمع لجواه : « مابالك هكذا حائرة كأنك فراشة بيضاء بين خضرة الحديقة !! فانتفضت فى مجلسى مذعورة فلم أر بجوارى سوى أوهامى .

ثم أخذت الثغرة تنفتح فى السور مرة أخرى ، لأن ثغرة قلبى انفتحت بذاتها ليلة أحسست حنينا إليه.كان غائبا عن المدينة فجعلت كل يوم أحز

بمقصى الصغير عدة أغصان من الشجيرات التى أمرت بغرسها ، كأنتى أتسلى حتى حادت خضرتها عن منافذ السور ، ولم يكن على الناحية الأخرى فى حديقتهم شيء يعترض الفتحة ، لأنه جردها من كل غصن . فانفتح الشباك ولكن وجهه كان غائبا !

وغلت القدر قبل زمنها الموقوت بفترة طويلة . فقد كنت مقدرة أن الحوادث لن تجرى بمثل ما جرت به سرعة وانطلاقا . وجعلت أسائل نفسى عن الغاية التى أسعى إليها ثم أفر من الجواب .

حتى كان مساء كنت فى الحديقة قريبة من الثغرة ولم يكن هناك قمر ، لا ، ولا حس ولاحركة . إلانقيق الضفادع فى سمر ليلها الصائف ، و إلا أحاديث تلقيها نفسى على نفسى ، وإلا قلبى المكدود الذى فقد الحصانة فأضحى عرضة للإصابة الأولى . فى هذا المساء سمعت تكسر الأغصان الجافة تحت قدم تسير فدق قلبى كما يدق فؤاد الطالب لصلصلة ناقوس يؤذن بامتحان يحبه ويخشاه .وحاولت أن أفر من بين الحديد فهمست بالرد . ثم جعلت « رقاه » تنساب فى السكون والظلمة التى تؤنسها من فوقنا نجوم تتغامز وأنا فى مكانى لاأريم ، حتى انتبهت على عبارة يدعونى بها أن أقف إلى تجاهه لكنى خالفته فما راعنى إلا أن رأيته يثب إلى السور فى خفة الذئب ورشاقة الفارس حتى صار فى أرضنا ..

اسمع يا صديقى : إن عنصر الاختيار مسيطر على اعترافاتى هذه سيطرة حقيقية ولست أريد بما أقول أن ترثى لى ولا أن تدافع عنى أمام الناس فإن الدفاع خاسر خاسر ، ولكنى أريك السيدة « ف » كما خلقها الله ، فإذا طابقت صورتها «مواصفات » امرأة فى خيالك ـ وهذا محال ـ فأحبها ، وإن كان حبك أوكرهك خارجا تماما عن مقومات حبى فيك !!

ثم دخلنا إلى العريشة الخضراء فوجدنا نفسنا فى ظلام أشد حلوكة من

ظلام الخارج ولم يكن هذا الشيطان الجميل معى وحده بل كنا .. وثالثنا إبليس ..!!

قلت له بعد فترة كانت قصيرة جدا لكنها بدت فى استطالة الأبدية : هذا محال !! هذا محال !! وكدت أصرخ بعد أن فقدت معنى لايستطيع إنسان ما أن يثبت أننى فرطت فيه لأنه لم يترك أثرا ماديا . لكننى كففت عن الصراخ فكل شيء قد انقضى . ثم تشبثت به تشبث الغريق بطوق من الفلين وطفقت أقول له : هذا محال !! هذا محال !! كأننى أنفى ما وقع وكأنه حلم . لكن بشاعة الحقيقة أسالت دموعى . فقال لى ونحن فى الظلام : لماذا تبكين ؟ قلت : لن أعاشر الرجل الأول ، فأجابنى : وهذا كل ما أرجوه، إذن فانفصلى عنه ولنتزوج !!

كانت عواطفى فى هذه الليلة غير ذات لون كأنها عدة أصباغ أراقت بعضها على بعض يد غلام عابث . وقضيت الليل لاأعرف طعم النوم . وجاء زوجى من الخارج فألقى على كلامه المعهود . ثم نام . وحمدت الله على أنه لم يسامرنى ، وإن قل أن يفعل لأننى كنت لصا سرق للمرة الأولى فهو يرقب عيون الناس .

وأصبح الصبح فلم أنزل إلى الحديقة بل آثرت أن يكون ذلك فى المساء. وتكررت الحادثة .. أستغفر الله ـ أريد أن أقول : إنه تسور السور وجلس إلى جوارى . وكنت متوقعة أن يبدأ من فوره فنتحدث فى برنامج الخراب حتى ننتهى من الموقف .، لكنه ـ وا أسفاه ـ لم يبدأ من البداية بل بدأ من النهاية ففهمت من حركاته ـ وأنا زوجة ـ أنه يطلب منى فورا ذروة مابلغناه بأعمالنا ليلة أمس فلم يسعنى إلا أن أنخرط فى البكاء .وقال الشيطان : وفيم البكاء ؟! قلت : جئنا لنفحص الموقف لأنه أصبح شائنا ، فسكت ولم يرد ، وخيل إلى أن ظلام العريشة يستحيل شيئا فشيئا إلى ظلمة قبر وددت

لو أنه أقفل على بابه . كنت فى هذا الموقف أنظف القذرات لأننى أفقت بعد اللطمة الأولى وانتصبت أمامه مخاصمة محاسبة مستكملة الأهلية لأفهمه معنى القضية . لكنه سألنى بوقاحة : وهل تظنين أن تصرفك هكذا يجبر رجلا على تغيير خطته ؟ فسألته عما يعنى ، فأجاب : دعينا نسعد فترة من الزمن .

قلت : بل إنه شقاء . فتسلل فى الظلام واثبا كما تفعل الذئاب بعد أن همس يقول : حسن .. إذن فلابد من دراسة الموضوع ؟!

٣٠ اكتوبر ..

هى ترى فما قصصته عليك شيئا ينسى ؟! لا ، مطلقا . أم هل ترى بعد الذى حدثتك به أمرا أفظع وأعنف ، قد تقول : لا . ولكن استمع إلى :

كنت أحمل معى « جسم الجريمة » كما يقول أهل القانون . وما « جسم الجريمة » إلا جوارحى . ومن طبيعة الجرائم أن يود الجانى فيها بكل مايستطيع أن يتخلص من « جسم الجريمة » ولم تتخلف هذه القاعدة معي فقد وددت وحاولت أن أتخلص من نفسى لكن .. إنها الحيـاة ، وما بـالها تمسكنا ؟!

أويت إلى مخدعى ناضبة الدموع ، ومر الهزيع الأخير من الليل ودخل زوجى ثم جعل يهمس بكلمته المعهودة ، وأنا متظاهرة بأن النوم يثقلنى وأنه من الأحرى ألايقلق راحتى ، لكنه ثرثر وهو يستبدل بثيابه العادية ملابس النوم ، ثم امتدت ثرثرته فأدركت بإحساس الزوجة ماذا يريد . وأوقد مصباحا أحمر فأحسست النار ترعى فى أوصالى . قمت من السرير كمن يغادر فراشا من الشوك جاعلة من إحدى كفى مروحة أحرك بها نسيم الحجرة وأنا أنفخ ثم وقفت بجوار النافذة وجلس هو على حافة الفراش وجعلت أدمن النظر فى أرجاء الحديقة وأنا مسلوبة اللب تالفة النفس هالكة الأعصاب أتمنى

أن تدركنى المنية أوأن تواتينى الشجاعة فأقتل نفسى . وكنت أسمع تنهداته من خلفى حقيقة واقعة وأسمع تنهدات الشيطان الجميل فى العريشة الخضراء بأذنى خيالى وتختلط هذه بتلك فتفعل فى نفسى فعلا بشعا زريا لا تستسيغه امرأة ـ دعك من الشرف ـ بل امرأة تشعر بشخصيتها فحسب ، ثم منحت ظهرى للنافذة وجعلت وجهى إليه فإذا به يخاطبنى بانكسار وذلة تركب الرجال فى بعض أوقات الليل . قائلا لى : « ألا تحبينني ؟! » ولم تكن للإجابة بالإيجاب إلا مغزى واحد هو أننى سأستعمل « خرقة المومس » بعد لحظات قليلة فاقشعر بدنى لهذا وسرت فى أوصالى موجة حارة أعقبتها موجة مثلوجة فارتعشت وأصطكت أسنانى . فعاد زوجى المسكين يسأل : « ألا تحبيننى ؟! » فهتفت صارخة بكل ما فى : « ألا زلت تسأل ؟! إذن فأنا لاأحبك .. لاأحبك .. لاأحبك .. دعنى لشأنى ، ثم ارتميت على الفراش أنتحب كأنى مجنونة فماراعنى إلا أنه أخذ يمسح شعرى ووجهى بيد رفيقة وهو يقول : مسكينة . مسكينة . إن أدمانك فى القراءة والتفكير فى الذرية ، أحالاك مخلوقة عصبية تريد أن تنام !! نامى يا سيدتى وليرعاك الله !!

« ثم أسلم أجفانه للنعاس !! »

لم أنم بطبيعة الحال بل جعلت أفكر فى الاستقامة التى ترقد إلى جوارى والعوج الذى أنطوى عليه ، وفى البساطة التى يمثلها هو والعقد الذى أمثله أنا . وعما سيئول إليه حالى إذا أصبحت زوجة وخليلة .

ماأقبح هذا!! كوب تتداوله شفاه ملوثة بالزيت لايرى نقيا ولاشفافا إلى أن يتحطم !

وعزمت فى الصباح التالى على أن أقابل الشيطان فأقفه على مغزى الخطب ، وآثرت أن أقابله فى الخارج فأرسلت إليه فى ديوان عمله من يبلغه

أن امرأة فى انتظاره فى مكان معين فأسرع ملبيا دعوتى فقلت له : إنه ليس فى مقدورى أن أكون ذلك الكوب الذى تتداوله شفاه ملوثة بالزيت !! فضحك من التشبيه ، فأردفت كأننى أوضح : أعنى أننى لن أكون إلا زوجة لرجل واحد ، فتلفت كأنما لا يجد مفرا ، ووقع فى حرج لم يجد منه مخرجا إلا أن يقول : كان ذلك يسعدنى جدا يا سيدتى لو أن الزواج داخل برنامجى القريب لكن .. هل تنتظرين ؟..وعلى أى وضع سيكون الانتظار ؟.. أعنى على أى صورة ستقوم العلاقة بيننا كل هذه المدة الطويلة ؟!! فرأيت من العبث أن أحاور أو أجادل ، فجمعت أحشائى على النصل المغمد وسرت دموعى تجارى خطواتى !!

جلست إلى نافذة مخدعى حين جن الليل أقلب أمر نفسى على ضوء الحوادث . فراودتنى فكرة أن أعترف لزوجى بما حدث مخفية عنه اسم الشيطان والأمل كبير فى طيبته لأحظى بغفرانه ، ولكن كيف أعيش بعد ذلك ؟! إنه عيش كئيب . ثم استولت على فكرة أقوى : هى فكرة التكفير . وسرعان ما اقتنعت بها ، فذكرت أننى كنت مدرسة وأننى تركت المهنة لأجل الزواج ، إذن فلا مانع من أن أترك الزواج وأعود إلى المهنة فذلك أكرم وخير من أن آكل فى بيت زوجى طعام صدقة ، ومر الهزيع الأول من الليل وعاد ، ثم دخل وثرثر ، ثم استطالت ثرثرته ، فقلت بسرعة قبل أن تضعف إرادتى كأننى مقدمة على الانتحار اسمع ياسيدى : إننا اجتمعنا تحت هذا السقف باسم المصلحة المشتركة . ففغر فاه وهتف بصوت مخنوق : نعم . فقلت : واليوم يجب أن نفترق مادامت المصلحة المشتركة تتطلب ذلك . فوجم ولم يجد مايقول ، قلت : من مصلحتك أن تكون أبا ومن مصلحتى أن أكون أما وقد تعذر علينا هذا ، فليطلب كل منا زرعه فى أرض جديدة . فقال وهو يتحسس شعرى ووجهى بيد رفيقة كما فعل من قبل : مسكينة .. مسكينة

. إن القراءة وال ..

فلم أدعه يكمل كلامه ، بل صددت يده بعيدا عنى وخرجت من الحجرة.

وأصبح الصباح فراجعنى فى قرارى فلم أوضح ولم أغير شيئا فيه ، بل شرعت فى التنفيذ . فجمعت ثيابى وحليى فى حقائب ثم غبت عن المدينة حتى تشربت نفسه بالكارثة قليلا قليلا فاقتنع بوقوعها كما نقتنع بموت الأعزاء علينا بعد فترة من الزمن .

كان من الجائز أنه يغفر لى لكننى لم أشأ أن أستغل طيبته إلى هذا الحد . وها أنت ذا ترانى أنظف القاذورات .. امرأة يعرف ماضيها أناس قليلون وأؤكد لك أن زوجى تحرى بعد غيابى فعلم ما تهامست به الألسن . لأن وثيقة قطع الحبل ما لبثت أن جاءت بالبريد بعد أسبوعين أوثلاثة .

مساء ٣٠ أكتوبر ..

يخيل إلى أن كل شيء بيننا قد انهار فترفق بى إذا اعترضت طريق أفكارك . إن الأقدار تناوئنى بمالا تحتمله امرأة مثلى فلماذا جعلتنا نلتقى ؟! ستبقى فى قلبى ذكرا طيبا وطعما لذيذا ما بقيت أنا فى قلبك ذكرا خبيثا وطعما غير محبوب .. آه .. الزمان بخيل وليس من طبعه أن يحابى التعساء .

لم أطق أن أغش من كنت لا أحبه فكيف أطيق أن أغش من لاأرى لى وجودا إلا فى وجوده ؟! لاأظن أننى أقلق .. فوداعا . واعلم ياسيدى أننى بانتظارأحد شيئين : فإما أن ترد إلى رسائلى وأما أن تعود أنت إلى ، فإذا ماطرقت بابى أيقنت أنك غفرت وهذا بعيد !!

ومنتظرة طول الحياة !!

ـ ١٠ ـ

عشت بعد ذلك فترة من الوقت خلتها مقصوصة من عمرى ، انقطع فيها الإحساس بكل شىء فلم أعد أن أكون شبحا يسعى بين الناس .

أحسست أن الكون شجرة عظيمة كل ثمارها تالفة . وددت بينى وبين نفسى لو أنها خدعتنى . إننا خلق ضعيف ، نتطلب السعادة ولو فى الخديعة . لكن ما بالى أقول هذا ونحن نتولى خداع أنفسنا بأنفسنا لنتلمس السعادة الموقوتة لمسا كما نغيب عن آلامنا بكأس الخمر !!

ووقفت من رسائلها موقفا عجبا فأعدت قراءة القديم منها لعلى أحظى بمايريحنى فيه كما كنت أفعل بأسماء الناجحين أيام الدراسة ، وكنت أضع الرسالة الجديدة بين يدى محاولا أن أعرض عنها فلا أنض غلافها قائلا : بحسبى ما فات . وكثيرا مافكرت فى أن أردها بالبريد مختومة غير مفضوضة لتعلم مدى عزوفى من تتبع قصتها ولتشعر أنها من المهانة فى مكان جعلتنى لا أعنى بأخبارها.

وانتفضت على جراحى القديمة فذكرت كل مايسوء وفاضت نفسى بنقمة عظمى على النساء وعرضت لى « سكينة » فى وعثاء هذا السفر ومتاعب ذاك التفكير فندمت على مافات وتمنيت أن الزمان يتراجع حتى أعود فأختارها زوجة .

ثم جعلت ليالى الماضية تعرض نفسها على خيالى ليلة ليلة ، حتى

ذكرت السيدة « ف » ثم تذكرت كتبها وقصصها وحديثها وأفكارها فضحكت ساخرا حين استنبطت بعد الأوان أنها امرأة صهرتها التجارب حتى أحالتها فيلسوفة لكن تجاربها كانت على هيئة جراح شوهت جسدها الباهر فلتدعها تزعم أن روحها خرجت من هذه المآسي وهي أنقى من البللور، لتدعها تزعم ذلك فإنها لاتملك عليه دليلا .

ثم ما بالها دفعت إلى في الماضي قصة الخيانة الزوجية .. إنني أذكر هذا جيدا كأنني أعيش فيه حتى اليوم ، وأذكر أنها دافعت عن الهوى المحرم وأنها سألتني رأيي في الغفران بعد دفاعها عنه ثم قالت : هل كانت هذه الخاطئة تحظى بعفوك في العالمين معا ، عالم الكتب وعالم النفس ؟! وقد سكت ليلتها فلم أجب بشيء ، ثم قلت في نفسي بعد ذلك : ثم من هذا الذي يضمن لي صدق ما قالت من أن الشيطان الجميل لقيها مرة واحدة .. واحدة ولم تتكرر !!.. من يضمن هذا ؟!

ثم عدت فسخرت من نفسي حين ذكرت أن العدد في مثل هذه الفجائع لايدخل في حساب أحد إلا المجانين لأن المسألة مسألة مبدأ .

إن فقدان شخصية في عالم النفس أفدح بكثير من فقدانها في عالم الأحياء ، أعني أن موت العزيز أهون على القلب وأخف على النفس من خديعتنا فيه . وقد تمنيت بعد أن جدت بنا الحوادث أن لو كانت هذه السيدة قد ماتت قبل أن تخط بيدها ما خطته لي ، إذن لعشت على ذكراها فترة أخرى تمتزج فيها السعادة بالشقاء امتزاجا أروح من طعم الشقاء الخالص .

وضاقت على الأرض بما رحبت ، وضاقت على نفسي ، فرأيت أنه من الخير أن أغير المكان فأخذت إجازة . ثم نفضت عني أغطية النوم في ساعة مبكرة من ساعات الصباح بعد ليل طويل قطعته على جواد الأرض البليد ، ثم ارتديت ملابسي وأخذت سمتي إلى محطة سكة الحديد مخترقا شوارع لم

تدب فيها إلا أرجل المضطرين . وسرت أقلب وجهى فى السماء تارة وأرمى بنظراتي على الأرض تارة وقد أنظر إلى النوافذ المغلقة التى تتحسس مصاريعها رطوبة الخريف وأنا أقول بينى وبين نفسى : إن وراء سجفها جميعا سعاد كاملة ..إلا نافذتى فإن صاحبها كتب عليه الحرمان !

***

لست أدرى كيف وصلت إلى الإسكندرية ، ولا كم من الزمن مر ، ولاأذكر شيئا مما حدث فى طريقى ، كأننى نمت فاستيقظت وأنا هناك .

كان فى يدى حقيبة صغيرة خفيفة فيها جلباب نوم ومنشفة وشبشب ومطالب شخص لايغترب أكثر من يومين أوثلاثة .

جعلت أنقلها وأنا فى ظلال المحطة من يمين إلى شمال ومن شمال إلى يمين وأسائل نفسى إلى أين المصير ؟! ولم ألبث أن اتخذت قرارا ، وأنت تعلم بالطبع أن هناك مكانين اثنين يتنازعانى فى موقفى هذا ، أحدهما عزبة خورشيد حيث « سكينة » وأهلها وثانيهما بيتنا على البحر حيث عربة الترمس ، والأنف الملتهب و « عباس الصغير » ، وبعد ساعة من الزمن كنت فى عزبة خورشيد .

لاحت مبانيها لعينى كابية دكناء لون حيطانها كلون التربة ، إلا قليلا من منازل بيض أصحابها واجهاتها بالجير ، ورسمت أمطار الموسم الماضى على بياضها رسوما شتى لاتدل على شيء كأنها آثار عبث الأطفال على الرمال . وسرت على الطريق الرئيسى حيث المبانى على جانب وترعة المحمودية على جانب آخر وكنت قاصدا دكان الحاج عبد المجيد البدال الذى كانت « سكينة » تشترى منه حاجاتهم وكنت أبعث برسائلى إليهم على عنوان دكانه ، وقد كان بوسعى أن أنحدر نحو الشرق على الترعة الصغيرة إلى مدى كيلومترات لأذهب إلى جنة « عم خليل » ولكن لهفتى على الأخبار

حولت وجهتي إلى الدكان ؛ لأنال تصبيرة من الأخبار أقوى بها على المسير عدة كيلومترات .

ولم يكن « الحاج عبد المجيد » يعرفني ولذلك حدق إلى النظر جيدا حين ألقيت إليه التحية ثم دعاني للدخول عندما أخبرته بأنني صاحب الرسائل التي كانت تصل إليه قديما باسم « عم خليل » ، فرجع الرجل برأسه إلي الوراء يتذكر ثم قال : « آه .. ذكرت .. تفضل يا بني » وتشاغل عني بالبيع وأنا جالس على صندوق شاي فارغ وحقيبتي عند قدمي . واستسمجت « الحاج عبد المجيد » ووددت لو أنني لطمته وبدا لي أنه رجل سيء الإدراك لأنه لم يقدم الأهم على المهم وقد كان الأهم في ميزاني هو أخبار « عم خليل» و « سكينة » وإن كانت الحلاوة الطحينية في ميزانه أهم من كل شيء . « وحبكت الزباين » فلم تنفض سوقهم إلا بعد أن انفضت طاقتي ، وآن للبدال أن يقول لي أخيرا : لا مؤاخذة ياسيدنا الأفندي .. حكم العيش ألهانا عن الترحيب ، هل لك في كوب من الشاي يا سيدي ؟ فشكرته وكلمته بلهجة من يتعجل أمرا قبل السفرسائلا عن الشيء الوحيد الذي يعنيني في كل هذه البقعة فأخذ الرجل نفسا طويلا أطرق بعده إلى الأرض ثم رفع رأسه إلي وقال لي : آه .. سألتني ياسيدي .. أما عمك « خليل » .. فعليه رحمة الله .. تعيش أنت !! فركبني التشاؤم عند اللفظة الأولى ، وقلت بيني وبين نفسي : وماذا ينتظر لبقية الحبات وقد انقطع سلك العقد ؟! ودق قلبي عنيفا وهممت أن أعين اتجاه الكلام بما ألقيه عليه من أسئلة فذلك أخصر لي وأنفع ، ولكن عجوزا ثرثارة جاءته تشتري شايا واشتبكت مع البدال في مزاح يمثل الزمان الخالي فعرضت عليه أن يتزوجها . ثم جعلا يتناقشان في الجهاز بحدة تقطعها الضحكات حين اشترطت عليه الحيزبون ضرورة أن يكون في جهازها سرير كعرائس اليوم فإنهن لسن خيرا منها في

شيء !! كانا يتضاحكان وقلبي يبكي ، وكنت أعجب من ضحكهما عجبا جعلني فيما بعد أتبين « نسبية الأشياء » وانفضت الدعابة وخلا لي وجه الحاج « عبد المجيد » ، فلم أمهله حتى يتكلم بل سألته : كيف حال أولاده؟! فأجاب : « أيوه ياسيدي » . سألتني . إن عمك « خليل » مات منذ .. منذ . تذكرت ، عندما يجيء رمضان المقبل يكمل - عليه رحمة الله - عامين في قبره . وبدا لي أنه سيحيد عن السؤال ويجيب بغير المطلوب . ثم رأيت على مقربة من الباب رجلين وقفا يتحدثان وفهمت مما تطاير إلى سمعي من كلامهما أن أحدهما سيشتري شيئا فآثرت أن أعيد سؤالي على الرجل فأجاب : إنها حكاية طويلة ولكن الأمر باختصار يتلخص في أن « سكينة » تزوجت بعد وفاة أبيها بعام كامل ، شابا من « أبي المطامير » وأن خلافا دب بين « البسطامي » ومالك الأرض رأت الأسرة في أعقابه أن من الخير لها أن ترحل . وهناك في مركز « أبي المطامير » أرض بكر لا تجد من يزرعها فرحلوا جميعا مع صهرهم ..ثم انقطعت عني أخبارهم .. وسبحان من يغير ولايتغير .. « أعمل لك شاي ؟ » .. نعم يا « أم زكي » .. ماذا تريدين .. أيوه يا ستي . عندي أحسن أصناف العسل !!

وأحسست طعم المر في حلقي وإن كان هناك أناس يطلبون عسلا ، وخيل إلي أن « الحاج عبد المجيد » هذا سيخرج من دكانه بعد وهلة قصيرة مستقلا جناحين أسودين ليقف على نخلة قريبة . ثم ينعق !! ورجوته بعد قليل أن يحتفظ بحقيبتي حتى أعود إليه ، وخرجت أتعثر تحت شمس الخريف متلمسا طريقي إلى الجنة المفقودة . وكان آخر ما اجتزته قبل هبوطي إلى الترعة الصغيرة باحة واسعة تتخذ منها العزبة مكانا لسوقها كل أسبوع ، وقد كان سوقها البارحة ، فجعلت أنسام الخريف تدور فيها مدومة بعدة فضلات ، منها ورق ملوث بالزيت ، ومنها ورق ملوث بالدم ، ومنها ورق

بصل وثوم ، وهناك أيضا بقايا تخلفت عن الذبائح ، وقفت الغربان تنقر فيها ، أما الحقول فقد رأيت عندها هدهدا يجول فذكرت قولا قديما : ذكرت قول « سكينة » ذات صباح : سأحبك .. مادامت الغربان فى ملابس الرهبان والهدهد يبحث عن كنز سليمان !! وها هما لازالا كما هما .. أما أمرنا قد تغير !! وسالت على الخد دمعة على قلة ماتسيل دموعى ، لكننى عدت فذكرت قول « الحاج عبد المجيد » منذ ساعة قصيرة : « سبحان من يغير ولايتغير » .

ووقفت عند رأس الطريق القديم أسأل نفسى : وفيم المسير ؟ لكننى عدت فأجبت : إننا نزور المقابر !! لاأقل من أن نلقى على هذه المعاهد نظرة دامعة أوغيردامعة ففيها غذاء القلب . وجذبنى الماضى إلى تياره فسرت ، وكأننى طالب فى المدرسة الثانوية أقصد المصلى لأجلس ، أو مضارب العزل لأرى « البسطامى » وهو مريض ، أو المصارف البعيدة لأجول جولة فى الحقول ، واستحال النسيم إلى شفاه انكبت على أذنى وجعلت تقول :

قف . كان هنا فيما مضى جنة . هذا هو موقعها بالضبط .. ألاترى شريط الحلفاء على الترعة؟ إنه هو وإن عبثت به يد الصبيان من المارة فأتلفته فى مواضع . وهذه هى المصلى لاتزال كما هى لم يغب منها حجر ولامدر بيد أن الرياح أطارت فرشها ، وقد كان من جفيف العشب .

وهذه هى الصفصافة لا تزال تحنو عليها ، لم يتغير شىء فى المصلى لأنها « ملك الله » . أما حقل عم « خليل » فإنه قد تغير ومن العسير أن تعرفه إلابإشارة من هذه الكائنات . ليس هنا كوخ ولاموز ولاشجيرات فاكهة ولا حظيرة دجاج وماشية ، كأنما اكتسحها الزمن بالنار والحديد ، ولاشىء إلا أشجار السنط والتوت وشجرة الجميز العتيقة ، رقعة عادية بين الحقول زرعت ذرة أخذت ثمراته من أعواده وهى قائمة فى الأرض ، ثم تركت حطبا جافا

ليدفىء نبات البرسيم الصغير تحت أقدامها يظلله سحاب الخريف !!

اه .. لشد ما يتغير كل شيء ! لكن ، هنا كنا نشرب الشاي .. وهنا كانت تربط البقرة ، وهنالك كانت تقوم شجيرات البرتقال ، وهناك كانت النجوى . وهنا كان اللقاء الأخير .. آه .. سبحان من يغير ولايتغير .

ولم أطق صبرا بعد ذلك واشتدت على وطأة الموقف وخيل إلى أن الكائنات ينظربعضها إلى بعض ويتساءل فى حزن مكظوم : لماذا لانبكى ؟! ولم ندخر الدموع ؟ فحثثت خطاى كأنما لأخرج من مقبرة ، وهبت زوبعة من الزوابع فانخلت من أوراق الخريف الجافة على شجرها دفا « شخللت به » فألقى فى القلب بمعنى حزين . وحملتنى قدماى إلى مواطن عدة رأيت كل حقل رأيته من قبل ثم ودعت هذا كله إلى غير رجعة فى حياتى ، ورجعت حانى الرأس كأننى إحدى شجيرات البرتوف المطرقة فى أحضان المصارف !!

ورأيتنى مرة أخرى بلاتدبير أجتاز حيا تفتحت عيناى على الدنيا فرأيتنى فيه . ولم يكن هنالك ذكريات حسنة لكننا نستعرض ماضينا بخيره وشره ، ويلذ لنا أن نراه بالأبصار والقلوب كمايعرج شخص على سجن قضى فيه بضع سنوات ثم يقف بعيدا عن بنائه الخشن ليتفقد بين نوافذه العالية نافذة رقد خلفها سليب الحرية . وبهذه النفسية نقلت خطواتى على الشاطىء ووقفت أرقب نافذة منزلنا من بعيد واثقا أننى لن أعرف بسهولة ، لأن أربع سنوات مضت على حوادث الإسكندرية قد نما فيها جسمى ، وتغيرت ملامحى وأصبحت فى حدود الرجولة وكنت قد تركت شاربى فطال وغزر كأنما كنت متعجلا ذروة الشباب .

كان الزجاج مغلقا وليس وراءه إنسان فوقفت أتلهى بالنظر إلى البحر وإلى بعض شباب من الفارغين يزجون أوقاتهم بصيد « أبو جلمبو » فجعلوا ينقلون خطواتهم بحذر ورفق على الصخورالمطحلبة تحت سطح الماء ولم ينفتح

شباك ولم يطل وجه وكأنما عز على ألا أرى وجه أمي طول تلك السنوات وأحسست شوقا إليها حتى كدت أطرق عليها الباب . لكننى ذكرت أن ضلال أحد الكلاب من بيت من البيوت كان من المحتمل جدا أن يحرك ساكنيه بأكثرمما حرك غيابى سكون بيت « أم مختار » فتسمرت فى مكانى ثم أخذت أغدو وأروح على الشاطىء المقفر الخالى حتى وجدت نافذة فى بيتنا مفتوحة ورأيت امرأة تطل منها وهى تتسلى « بقزقزة اللب » ووقفت بعيدا أفتش فى ملامحها عن الملامح التى ولدتنى فلم أجد إلا بدانة أحالت هدوءها الظاهر إلى لون من الشراسة يلوح على قسمات بعض ساكنات أحيائنا الوطنية . فلم أجد ما أعلق به على الموقف بينى وبين نفسى أبلغ مما قاله الحاج « عبد المجيد » فى عزبة خورشيد : « سبحان من يغير ولايتغير » فهززت رأسى ومصمصت بشفتى وأنافى مكانى لاأريم . ومضت برهة رأيت بعدها صبيا يسيرإلى جوار خادمة ثم يقف تحت نافذة « أم مختار » فإذا بها تضحك له وتقول : سريعا يا عباس . لاتغب كثيرا « ياروح ماما » فكأنما رمتنى السيدة بحجر لأزايل مكانى . وجف حلقى وذكرت حوادث الماضى وقلت : كان من المستطاع أن أكون كذلك « روح ماما » لو أن أبى لم يتعجل رحيله ، أو لوأن « أم مختار » من طراز آخر من غير اللاتى يطأن قلوبهن بأقدامهن فى سبيل رجل يضىء لهن المخادع !!

وماذا بقى لى فى الإسكندرية؟! يجب أن أسير . بل يجب أن أرحل فلن أقضى بها يوما ولابعض يوم .إنها مازالت كعهدى بها قاسية على ليس فيها قلب يخفق بالحنان . أجل يجب أن أرحل !!

وركبت إحدى السيارات العامة التى تسافر نحو الجنوب ولما سألنى « الكمسارى » عن وجهتى أجبته فى شرود : « كفر الدوار » . ثم جعلت أمعن النظر إلى التذكرة بعد أن قدمها إلى واقرأ ما كتب عليها بالعربية

والأفرنجية كأننا لأقطع الوقت ، ثم عدت فسألت نفسي ولماذا كان الطلب «كفر الدوار » لماذا ؟ فأجابتني : هكذا اتفق !

على أن هذه المدينة الصغيرة قدمت لي يدا لا أنساها حين سألت أحد تجارها عن نزل هادىء أستطيع أن آوي إليه ليلة أو ليلتين فجعل يصف لي موقع « فندق السعادة » بأسلوب شهي طلي جعلني أقصد إليه من فوري وقد كان صاحبه اغريقيا وكان في الوقت نفسه جميلا ممتازا وإن كان أجره غاليا شيئا ما .لكنني كنت في الحقيقة في عداد الذين يحتاجون إلى الترفيه فلم أبخل على نفسي ، كما أنني رأيت سفري إلى القاهرة وأنا في هذه الحالة النفسية لونا من العبث ينطوي على سوء المعاملة . فأخذت سمتي إلى نزل السعادة وأنا ألوي شفتي سخرا وتقززا من أسماء لاتمت إلى المسميات بسبب في كثير من الظروف .

وهنالك خلعت ملابسي وابتردت بشيء من الماء ثم اضطجعت في سرير مفرد يشغل حجرة صغيرة في الطبقة الثانية من البناء ، ذات شرفة غربية تطل على الحقول وترى الطريق الرئيسي بين « كفر الدوار » و «الإسكندرية» من بعد ، تقوم على جانبيه أشجار الكافور . وماكدت أستلقي في فراشي حتى اختطفني النوم من متاعبي وأفكاري فلم أتحرك ذات اليمين ولاذات الشمال ولم أستيقظ إلا والنهار مائل الميزان والشمس في شوطها الأخير من رحلتها اليومية . ولشد ماعجبت حين رأيتني أحسن حالا وأهدأ بالا حتى بدت لعيني الكوارث أقل ضخامة مما كانت عليه وقت الضحى ، فجررت كرسيا بيميني وخرجت إلى الشرفة وجلست أرمي ببصري في كل جانب فلا أرى إلا زبرجدة الحقول تحت شمس الخريف المائلة الأشعة ، السقيمة الصفراء. وكان النسيم أشد نشاطا وأكثر بلولة وأقوى على الإنعاش فأسلمت صدري إليه ثم شرعت أستعرض الحوادث الأخيرة جزءا جزءا وأنا أنقل بصري من

الحقول إلى الشجر إلى بعض بيوت جديدة زحفت على المزارع ، ومن ذلك جميعه إلى شجرة لبخ تقع إلى أقصى اليسار حيث بقية المبانى وحيث يستظل بظلها ضريح صغير لأحد أولياء الله أكبت على كنس أعتابه امرأة شعثاء غبراء يسيطر اليقين على أعمالها ، فأدمنت إليها النظر طويلا وأنا أذكر اليقين .

وجعلنى اليقين أتذكر الثقة ثم جعلتنى الثقة أتذكر السيدة « ف » وأتفحص خديعتى فيها ، لكننى لم ألبث طويلا حتى رأيت الشمس تهوى إلى مستقرها وراء الأفق مخلفة بعدها بقايا من شفق مستطيلة على هيئة زنارين أحدهما وردى والثانى رمادى . ثم أحسست بعد ذلك رطوبة الليل ، فأوصدت الباب وأشعلت النور .

وجاءنى الخادم بعشاء خفيف جلست بعده أشرب الشاى وأقلب رسائل السيدة « ف » بين يدى لأننى لم أكن رددت إليها شيئا منها قلت : فلتنتظر ، أجل لتنتظر حتى يوم القيامة فإن العناء الذى ستلقاه بانتظارها دهرا لن يساوى عناء يوم واحد بالنسبة لقلبى المفجوع . جعلت أقلب الرسائل وأقرؤها بهدوء القاضى المتأثم الحرج ، وأقف على كثير من كلامها فأديرمعناه بعقلى كما نتمصص الشراب لنعرف طعمه ، قرأت « وددت لو كان الزمن ساقنى إلى طريقك أيام كنت أملك هذه الدرة فبذلتها لك لأبرهن على أننى فانية فيك ! »

« كل شىء فى (قديم) مر (بتجربة) فلا أرى فى منزلى شيئا أقدمه لضيفى الغالى ، فماذا أعمل ؟ ».

وكففت عن القراءة ونظرت نحو السقف وجعلت أفكر : كان فى استطاعة امرأة مثلها أن تغش رجلين ، إما زوجها الهادىء ، وإما حبيبها الطارىء ، أعنى أنا ، فلماذا خلقت لنفسها كل هذه المتاعب !!

ثم أعرضت عن المشكلة بذهني وأسلمت عيني لصورة زيتية معلقة على أحد الجدران تمثل معبدا مصريا قديما ، ودفعني التأمل فيها إلى تدبر معنى العبادة وما يلتقي تحت معناها من حب وخوف قد يكونان بالتساوي وقد يزيد فيه الحب على الخوف أو يزيد فيه الخوف على الحب . ثم قلت في نفسي : لكن .. أليس في حب الإنسان للإنسان روائع من العبادة ؟! ألسنا في حبنا نخاف ونرجو ونطلق البخور ونرتل الأدعية كمافعل الوثنيون قديما في هياكل الأصنام !؟ .. ثم أليس اعتراف السيدة « ف » بأخطائها القديمة التي كنت أجهلها من قبيل اعتراف الوثني لصنمه حين يدفعه لذلك الخوف أو الحب ، أوهما معا ؟! وحين يظن أن إلهه الصخري يعرف دخيلة أمره ؟! الحب على كل حال هو الذي حملها على أن فعلت ما فعلت ، والحب جزء من العبادة !

وإذا فرضنا أن السيدة « ف » كانت ذات ولد فهل كان الوضع يتغير؟.. ربما .. ربما أقامت حياتها الزوجية على شيء من الدخل من أجل هؤلاء الأطفال ، ثم أيهما أفضل ؟! .. لكن لماذا أوازن وقد أشقتني سيدة قبلها باسم « الحلال » وشردتني باسم « الكفالة » وعملت جاهدة على أن تمنع المجتمع ثمرة جديدة فأهلكت باسمها ثمرة قد وجدت فعلا تريد الظل والماء ومكافحة الآفات . ثم أيهن أكرم الرذلات : هذه التي تغش رجلها ولتحول بين أطفاله وبين التشريد أم تلك التي لاتغشه فتبعثر نحل خليته ؟

ثم عدت إلى نفسي فقلت : وفيم هذا كله ؟! ما بالي أجاهد في تبرئتها أو تخفيف ذنبها كأنني مكلف أن ألتقط الزهرة من عطن المستنقع فأمسحها وأضمها وأشمها وفي الحدائق أزهار لم يمسها إلا الندى ولم يقبلها إلا الظل ولم يرقصها إلا النسيم ؟! ما بالي أفعل هذا ؟! ثم خيل إلي بعد قليل أن السيدة « ف » تفتح على الباب وأنها داخلة وهي تجمع على جسدها بكلتا يديها ثوبا طويلا من الحرير كأنها تخاف برودة الليل أو تراب

الطريق .. لقد كانت تطاردني في كل فج !! رأيت الدنيا من نافذتها فتعذر علي بعد ذلك أن أراها من نافذة سواها . على أن مقامي في « كفر الدوار » لمدة ليلتين خفف من حدة همي فرجعت إلى القاهرة وجرحي ملتئم قد وقف نزفه وإن كان يؤلمني .

وكان أول ما أحسسته بعد عودتي إلى عملي واستئنافي حياتي العادية هو أنني أخذت أتصفح وجوه النساء اللاتي يصادفنني في الطريق وجها وجها ، حدث ذلك كأنني كنت أتفقدها ، فأصبحت أراها في كل مرة تلقاني بعد أن كنت لا أراها إلا في شخصها وحده ، صرت أقول عن التي في قدها: إنها طولها ، وعن التي تقصر عنها أو تطول : إن الفرق بين قامتيهما كذا بوصة . ثم أنسب كل شعر إلى شعرها وكل لون إلى لونها فأصبحت أعاين قسماتها وملامحها في أشباهها وأضدادها على السواء . حتى عنيت قلبي !!

وانخرطت في العمل والقراءة والضرب على قدمي في أرض الله مدة شهر كامل . ثم سألت نفسي قائلا : أليس من الأكرم أن أنهي هذا الموقف فأرد إليها رسائلها بالبريد أو بأية طريقة حتى لاأدعها تظن بي الظنون ؟ ونشبت في باطني معركة استمرت وقتا آخركانت سببا في أنني أتهمتها بالخبث ؛ لأنها حملتني بماطلبته مني على أن أحكم في قضيتها حكما فاصلا وعلى أن أبلغها نص حكمي ، فإما الرسائل وإما العودة ! ومعنى هذا أيضا أنه إذا لم يكن هناك رسائل ولاعودة فإن أملا ـ ولو ضعيفا ـ سيظل يداعب أحلامها حتى يقع أحد الأمرين .

وصممت فجأة على أن أتقدم لامتحان الكفاءة ففتحت بهذا في حرب الحياة جبهة جديدة عقدت عليها كل آمالي في أن أنسى السيدة « ف » وأن أغير وجه مستقبلي ، فإنني لن أكون ساعي بريد يسعى بشهادة الكفاءة .

وكنا فى نوفمبر فبدأت العمل واشتريت كتبا وشرعت أذاكر فأطبقت على الظلمة ، وكنت كثيرا ما أفطن إلى نفسى وأنا وحدى والليل ساكن فأجدنى حاملا رأسى بين كفى ، ومرفقاى مستقران على المنضدة وبصرى شاخص وفكرى مشتت ، لأن سطرا من السطور فى كتاب من الكتب ذكرنى بحادث قديم ألهانى فانتزعنى من العمل ، كأنما شرع يقص على التفاصيل . وهكذا أتحت لنفسى أن أعيش فى الماضى مرة أخرى وأن أعود فأذوق طعم أحداثه، وأكثرها مر !

ثم رأيتنى أمام السيدة « ف » وجها لوجه بعد فترة أخرى من الزمن . لم يكن هناك مجال ولامتحول فكان لابد أن نترا ءى ، كنت داخلا دار الكتب وكانت خارجة منها ، وكنت أنقل خطواتى على أرض الممر الضيق بغتة لأننى أحسست أنى على وشك أن أصطدم بإنسان ، وهكذا رأيتها أمامى ، ولعلها كانت تفعل مثل فعلى فلم تنتبه إلى الطريق ، أولعلها كانت عامدة ، كل الذى أدريه هو أننى بصرت بها فجأة فلمعت فى نطاقى كما تعود الكهربة إلى أسلاك المصباح المنطفىء . وانتصب كلانا أمام صاحبه ينظر مبهوتا مبغوتا كأنه يعتذر بصمته عما فرط من الأقدار . ومرت لحظات قصيرة فى العد طويلة فى ميدان الشعور التهمت فيها عيناى ملامحها التهاما كأنما أكلتها وشربتها ، وكان أول ما رأيته منها جيدها الطويل العاطل من كل حلية إلا من الفتنة !! ورأيت اضطرابها فى جيدها حين اختلجت من تحت بشرته العاجية البيضاء قصبة زورها فعرفت أنها تفتش عن ريقها . ثم ارتفعت عيناى إلى أعلى فرأيت شحوبها وقد زاد عن قبل وخيل إلى أن عينيها كسبتا فصاحة جديدة لأنهما ألقتا إلى بسرعة مطلع قصيدة حزينة . ثم أطرقتا نحو رخام الممشى كأنما تقولان لى : وأنت تعرف الباقى . واستتبع إطراقها هذا تهدل شعرها المخملى الأسود ثم أطبق علينا سكون

محرج خيل إلى فى إبانه أن عين الرواد تنوشنا من كل جانب وأنهم جميعا يعرفون تفاصيل الحادث . فأخليت لها الطريق بحركة عصبية عنيفة فإذا بها تمشى دون أن تلقى على نظرة وظللت أنا عاقدا ذراعى إلى خلفى مستندا إلى الجدار مدمنا إليها النظر حتى غابت فى آخر الممر .. لكنها لم ترفع رأسها . وأظل المساء فجعلتنى حادثة النهار أستأنف النظر فى قضية السيدة « ف » بشكل عاجل ، وكان على قبل كل شيء أن أسترجع هيئتها إلى خاطرى ، فرأيت فى عينيها حزنا ويأسا وكل معنى من معاني الانكسار والذل التى يعرفها الناس ، ماخلا معنى واحد فإنه لم يكن فى عينيها .. أجل .. ما خلا اللوم ، أحسبها غير نادمة قط على أنها ائتمنتنى على سر ، وكان الرضا بما فعلت ظاهرا عليها كذلك كأنها تقول لى : أحبك على الرغم من كل شيء !! ولا زلت أحبك !! وأحسست أن فى موقفى شيئا من القسوة . وخيل إلى أننى أجلدها وهى تتأوه من حبى لامن وقع سياطى ، فخفق من أجلها قلبى لكننى عدت فرأيت الرجوع إليها شيئا محالا ، ثم عدت فتمنيت لو أنها خدعتنى ، ثم استصغرت نفسى على مناها تلك ، ثم أخرجت حزمة رسائلها لأهينها لردها ، واستتبع ذلك أنى ألقيت عليها نظرة وما إن فعلت حتى نحيتها بأطراف أصابعى واستسلمت للأفكار.

ما الذى يحدث لو أننى غفرت لها !؟ ليست خطيئتها أول خطيئة وليس غفرانى أول غفران . وبعض الناس يعاشرون مومسا فى الحياتين : حياة الدعارة وحياة الطهارة ، وهؤلاء من غيرشك واثقون من قوة سواعدهم التى أدلوا بها إلى اليم فانتشلوا هؤلاء الغريقات .

- مابالنا نجعل التكفير عن الزلات عملا يجب أن يستغرق أعمار التائبين ؟ ألسنا بهذا ندعو المخطئين إلى اليأس !؟ فإن الذى يقدم على التكفير يفضل التمادى فى الخطيئة يوم يعلم أنه سيحيا مكفرا ماعاش . ثم

مابالنا مرة أخرى نقيس حرارة مرضانا « بالترمومتر » ونقيس حرارة من لايعنينا أمرهم « بالمتر » نفسه فنصطنع بذلك لكل مشكلة مقياسا حتى ضلت بين مقاييسنا الحقائق !! ثم ما بالنا مرة ثالثة نرى البلايا ضخاما عظاما كلما قربت من نطاقنا البلايا واتصلت بكياننا نحن . ونراها حقيرة صغيرة كلما تباعدت عنا واتصلت بكيان آخر !! وما الذى كان يحدث لو أن صديقى « أبا الفتوح » مثلا قص على قصة السيدة « ف » على أنها من واقع حياته ، ثم قال لى وهو يرمى بحبات النرد فى المستطيل الخشبى أمامه : « ولكننى على الرغم من كل هذا غفرت لها. وتزوجتها .. لقد كفرت وعاشت كريمة ». لو أن هذا حدث منه لصفقت له ، وملت عليه فقبلته قائلا : إنك كريم !

ولج بى الفكر واستبدت بى الهواجس وخيل إلى أن السيدة « ف » دارت فى مسكنها يائسة تدبر لنفسها مخرجا من مشكل مر عليه شهران فلما لم تجد حلا له سكبت على نفسها البترول وهمت أن تشعل النار. خيل إلى هذا فجعلت أتصور كيف أن تمثال « فينرس » المصرى سيعيث فيه الحريق . فإذا بى أنتفض من مجلسى وأقوم إلى حيث أرتدى ملابسى ثم أخذت حزمة الرسائل ودسستها فى جيبى وأوصدت الباب وتلمست طريقى فى ظلام السلم .

سألت نفسى بعد أن هبطت المنحدر المؤدى إلى باب الخلق عن وجهتى فى هذه الساعة فإذا بفكرة رد الرسائل تنبت فجأة فى ذهنى ، ثم إذا بها تلقى موافقة وتصميما ، ولما اتجهت إلى بيتها أحسست من فورى أن هواء الليل منعش للغاية وأننى ظمآن إليه كأننى لم أتذوقه منذ أعوام عدة . ولعلى كنت فى نشوة من قصد الحانة بعد توبة نقضها وإن أوهمت نفسى أن سبب نشوتى وراحتى إنما هو إنهاء موقفى ازاء هذه السيدة ، ودخلت

الحى فألفيته هادئا يظلله مساء خريفى رطب تخالطه بعض أنفاس الشتاء .
وخفق له قلبى كأننى هبطت مسقط رأسى ، وأحسست أن بينى وبين كل شىء
فيه علاقة قديمة . ودرت فى منعرجات الحارات التى لايبدد ظلامها إلا
مصابيح واهنةمتفرقة قديمة ثبتت فى الجدران . وإلا ماينذ من شعاع داخلى
يتسرب من مصاريع النوافذ الخشبية فيسقط على الأرض أو على الحيطان
فى هيئة خطوط متوازية من النور .

وأدى بى السير إلى بيت السيدة « ف » فتلاحقت أنفاسى وهيأت لى
لهفتى عليها استحالة وجودها هذا المساء فى البيت ، لكننى دلفت إلى
الدهليز كما يدلف اللص ووقفت أمام بابها المصمت الذى لايضيئه زجاج ولا
بلور فخيل إلى أنه يرحب بى ، وأنه يضحك لى بثغر ثم يبكى بعين ، وأن
مثله فى احتمال التجنى منى كمثل الصبى « عبده » الخادم الصغير الذى
عقره الكلب والذى كانت تنفس فيه « أم مختار » غضبها فيضحك ويبكى
فى آن واحد . وكنت أشم رائحة البخور وهى تسترق خطاها من تحت الباب
ومن خصاصه ، ووجدت صندوق البريد مثبتا فى المصراع كما كان قبل أن
نتعارف كأنما رجعت لأصلها الأيام !! ووضعت يدى فى جيب سترتى لأخرج
الرسائل فأضعها فى الصندوق ثم أعود أدراجى فخيل إلى أننى أسمع حفيف
ثوبها وخشخشة كتابها . فجمدت يدى فى جيبى على ما فيه ووقفت أتلفت
لا أدرى ماذا أصنع حتى وقعت عيناى على الظلام تحت منحنى السلم فذكرت
الحجرة المحبوسة التى رقدت فيها فترة من حياتى فى لوكاندة السيدة زينب
وكيف أن القلب كان خامدا لا أثرفيه حتى لمسته أنامل هذه المرأة . فأخرجت
يدى من جيبى لأضع الرسائل فى الصندوق ولكنها خرجت خالية وطرقت على
الباب بعنف ! ورن الصدى فى أذنى كما يرن الجرس فى الصحراء ، أو هكذا
سمعته على الأقل ، فندمت وتمنيت أن لم أكن فعلت أو ألا تكون هى هناك

حتى لا نتلاقى ، لكننى مالبثت حتى سمعت صوتها المستميت الناعم يقول : من ؟ ثم امتلأ سمعى بوقع خطواتها وامتلأت خياشيمى برائحة « العود » ولم أجب عن قولها : من ؟ بل جمدت فى مكانى فإذا بها تفتح الباب ، وما إن سمعتنى أهمس ناطقا باسمى حتى تساندت لئلا تنهار وتعلقت بالمصراع المفتوح تاركة كتابها يسقط على الأرض ، ولم تزد بعد ذلك على أن لفظت فى أنين قولها « آه » بما سبق أن ترجمتها به أيام قالت فى رسالتها عنها : « إن قولة (آه) موجودة فى جميع اللغات ومدلولها واحد » ..

ولم تعد لغة الكلام بالنسبة لموقفنا قادرة على شىء بل أصبحت فى قدمها وعدم صلاحيتها للمقام أشبه بآلة (المنجنيق) إذا استخدمت فى حروب . وإن هناك شعاع يرتمى على أرض الصالة متسللا من الداخل حتى وصل واهنا ضعيفا لأن طريقه لم يكن مستقيما وكانت هى فى « الروب » الداكن ذى الأحقاق البيضاء المفصل على جسدها المفصل الذى شهد آخر ليالينا مساء نحتنى عن طريقها برفق ، وفى هذا الثوب نفسه ارتمت على الليلة وجعلت تمرغ وجهها فى صدرى وذراعاها ملفوفتان حول عنقى وهى تبكى بعنف . وتركتها تفعل ما بدا لها حتى تفيق ثم تدافعنا إلى الداخل حيث نظرت فى عينيها ونظرت فى عينى ، وحيث سمعتها تهمس فى إجلال ووله وشوق : أستطيع الآن أن أقول مطمئنة : حبيبى . إنك غفرت !!

وكان جوابى فى التقاء شفتينا للمرة الأولى يوم أتاح لنا الزمان لحظة من التى لايستطيع أحد أن يتأمل مايجرى فيها ، حتى إذا ما انقضت استعادها بالذكرى وأدرك أن الخلود إنما هو امتداد لأمثالها من اللحظات وأن المشكل الذى أدى بأصحابه إليها كان طبيعيا جاءت نتيجة طبيعية كذلك . ثم انقضت فترة أخرى فأخرجت من جيبى شيئا كنت مصمما من قبل على وضعه فى الصندوق وانتحيت به ناحية من الحجرة لايغطيها فرش ثم

وضعته على الأرض وأشعلت فيه النار . ووقفنا ننظر إلى الصغيرة وهى تحرق ورقات أحرقت نفسى ثم قلت لها : وهذا هو الماضى ..لقد أمسى رمادا . اشتبكنا فى قبلة ونحن واقفان ، ظهرها إلى النار ووجهى رليها إليها ونظراتى تضطرب بين لهب على الأرض ولهب على الخد . ثم سكتنا معا . نحن والنار !!

وإن أنس فلن أنسى أنها خرجت وراءى ليلئذ لتودعنى إلى الباب فإذا بقدمى تعثر بشىء تفحصانها فألفيناه كتابا .. وهو ذلك الذى كان تقرأ فيه ساعة سمعت طرقتى . وكنا قد غفلنا عنه فى ظلام الصالة فتركناه ودخلنا نتدافع .

وقد ضحكنا من هذا كأنه صديق ثالث !!

ــ ١١ ــ

ماذا كنت تظننى فاعلا ياصديقى ؟!

كان لابد لى من الغفران وقد التمست السبيل إليه شهرين أويزيد !!

رأيت الدنيا من نافذتها فلما تباعدنا ضللت عن الدنيا وأنا فيها ، وناهيك بحيرة رجل يضل رشده حتى يتطلب الشىء وهو منغمس فيه .

لقد ضمدت جراح قلبى فرأيتها ضرورة جميلة ، ثم اختبرت فيها معانى جديدة لم تسمح لى فيما مضى أن أعاين شيئا منها فرأيت قبلتها فى بلاغة منطقها وعذوبتها فى حلاوة ماتقول . وقالت لى عيناها النديتان : إن حياتى معك ستكون امتدادا للتكفير فلاتظن أني سأتمرد على النعمة ، إن الحياة قدمتك « تعويضا » لما أنزلته بى من أضرار لمست جميع جوارحى !! ثم أحسست لأول مرة بمعنى « التملك » فازدهانى ذلك . وأحببت السيدة « ف »

أكثر من قبل حين ألفيتها ملك قلبي ويدى ، كنت من قبل أملك الحكمة وحدها ولا صلة لى بوعاء الحكمة فأصبحت اليوم أملك الحكم والوعاء فى وقت واحد .

ما أجملها وهى ترسم طريق المستقبل وتنظم شئون بيت ستسدل علينا ستائره وتوصد علينا أبوابه ، وما أبرع حياءها الصادق المغرى وهى تبدى رأيها فى فراش النوم !! وما أحلى دعابتها وهى تقول : حذار أن تنسى أننى سأظل مدرسة !! فأعترض بعدم قبولى بل وبعدم موافقة الوزارة على زواج المدرسات أو تدريس الزوجات ، فتوضح قولها وهى تضحك : لا .. بل قصدت أننى سأسهر على دروسك أنت يا « شاطر » أم هل تريد أن تنكص عن تقدمك لامتحان الكفاءة !! ثم دفعتنى إلى الأمام بنظرة ملأتنى بالثقة .

ولم نلبث طويلا حتى حددنا ليلة لقائنا ، كأننا خشينا أن يعود الزمن فينقض غزلا صنعناه من عصب ودموع . وهناك فى حارة « ش » فى الطبقة السادسة حيث ترقد المنازل تحت أبصارنا كانت أولى الليالى الحقيقية فى حياتنا المشتركة !!

واسمح لى أن أحدثك عنها بشىء لأن معانى مبهمة قد رفرفت على فراشنا فيها : جعلنا نتسامر حتى نامت المدينة وكانت السيدة « ف » (وسأظل أدعوها بذلك وإن أصبحت زوجتى لأنى أحب هذا الاسم) كانت تتكلم وهى مغضية وترسم على الملاءة البيضاء بسبابتها رسوما غامضة ، فأدركت بغريزة الرجل ما أدركته هى بغريزة المرأة من أنه يجب أن تكون الليلة الأولى فى حياة الزوجين متميزة « بشىء ما » عن بقية الليالى والا ضاعت فى غمار الزمن . وقد كانت هى تجهد نفسها لتقدم « العوض» عن شىء غير موجود فغابت عنها لذلك شخصية القارئة المنطقية الجدلية وحضرت فى الفراش نيابة عنها امرأة غاية فى الرقة ونهاية فى الأنوثة ومثل فى

البذل . وكان ذروة مابلغته أفكارها فى هذه الليلة أن توسلت إلى وهى تطوقنى وشخصى لا يزال غريبا حتى هذه اللحظة ثم جعلت تقول :

ــ ماذ يجرى فى الدنيا لو أن حياتى انتهت فى هذه الساعة ، أتدرى ماذا كنت أشبه لو تحققت لى هذه الأمنية ؟ سيكون شأنى شأن السياسى الذى مات فى أوج رفعته بعد أن حقق لوطنه ظفرا لم تقلل من أبهته المعارضة . ثم ابتسمت فى انكسار كأنما رأت على وجهى دلائل الإنكار ثم استأنفت كلامها : ألا ليتك تصدق !! فابتسمت وأنا أنحى عن وجهها خصلة عبرت الخدود ، لكننى أبصرت عينيها سابحتين فى الدمع ورأيت بوادر انفعال حاد على شفتها السفلى ثم سمعتها تهمس بصوتها المستميت الوانى همسات امرأة أصبحت فى فراش زوج وكان همسا جميلا صبته فى سمعى سحرا وفتنة :

ــ أريد أن أتوج علاقتنا بما تعتبره أنت عملا عظيما .. لاأريد أن أظل منك هكذا فى موقف الممنوحة فدعنى أشعر أننى منحتك شيئا !

فى مثل هذه الليلة فى كل عرس يقدم النساء لأزواجهن ما يملؤهن الغرور بعد تقديمه كأنهن يقلن لهم : انظروا .. لقد ظللنا كل هذه السنوات محتفظات به من أجلكم أنتم !! فمرنى بشىء أفعله من أجلك ياأخى : مرنى أن أصعد إلى السماء فأعود لك بنجم ، أن أنزل إلى النيل فأنشله بأحد الغرابيل ، أو أن أسهر الليل واقفة إلى جوارك وأنت نائم فأعد أنفاسك وأحصى خفقات قلبك حتى إذا ما أصبح الصبح جلت فى بيتنا أقضى مايتطلب لأستأنف عند المساء عمل البارحة . أو مرنى أثب من النافذة وأنا ألوح لك بالمنديل ، أو مرنى بأى شىء تراه محالا وثق أننى سأقدر عليه . آه .. ألا تريد أن أمنحك شيئا ما ؟! إذن فامنحنى هذه الأمنية .

« ليتك تكتم أنفاسى بشفتيك حتى أسلم الروح بين ذراعيك . أيها

الحبيب ! »

وخيل إلى أنها صادقة فيما تتمنى لأنها بكت بحرقة فرأيت من الحتم على أن أمسح عن وجهها الدموع !! كانت هذه هى « العلامة المميزة » لليلتنا الأولى ولابد من علامة مميزة لهذه الليلة وإلا ضلت بين الليالى !!

ثم ركبنا بعد ذلك متن الزمن كما يركبه كل زوجين وجرت بنا الأيام تعدو نحو الغاية التى يجرى إليها الناس . ولم تتخلف السيدة « ف » فى يوم من الأيام عما اختطته لنفسها من تحقيق السعادة لى بكل ماتطيق ، وأن تجعل حياتها معى امتدادا لفترة التكفير حتى ضقت فى بعض الظروف ذرعا بحنانها وحبها وكدت أشرق به كما تشرق بالماء الزلال .

فكثيرا ما كتمت عنها أننى مريض لأن لهفتها على صحتى كانت تزيد فى أوصابى . وكتمت عنها أننى اختلفت مع رئيسى لأنها لاتستطيع أن ترى فى الرجال من هو أكمل منى . أما آمالنا فى المستقبل فقد طالما سهرنا فرسمناها بريشة واقعية جميلة تجعل فى كل ركن من أركان الصحراء واحة وبئرا وفى كل فج من فجاج الجبل صخرة يتفجر منها الماء ، وفى كل متاهة فى نواحى المحيط منارا بعيد المدى طويل الشعاع .

غير أننا كنانعانى شيئا من شظف العيش فلم نكن نحيا فى بحبوحة خصوصا بعد الأشهر الأولى من حياتنا المشتركة أعنى بعد أن نضب معين جنيهات كنا ادخرناها لليالى السكرة التى لاينبغى أن نفكر فيها إلا فى الكئوس . وقد اعتمدت السيدة « ف » بعد ذلك على قلبها كما يعتمد الجمل على سنامه أيام سفره الجائع . وقد جعلتنى أأتدم بالحنان .. أجل جعلتنى أغمس الخبز فيه فهل تتصور ذلك !؟ إن بعض قطع البطاطس المقلى بالزيت أوشيئا من الخضر والجبن القريش أو طبقا من « الطعمية » البيتى » تضعه سيدة بيتى على مائدة غدائنا ثم تنثر حوله بضع كلمات كما تنثر

المشهيات حول الحمل المشوى ، لجديرة بأن تفتح أبواب شهية المرضى بل وأبواب النفس كلها للحياة .

ماكان أجملها حين توازن بين شرائح اللحم الذى يجثم حول مائدتها النكد وطبق الفول الذى يؤكل صباحا بالزيت وظهرا بالطماطم لكن الحب يبسط من حوله جناحين !!

على أن معظم ذلك قد كان على حسابها لأنها كثيرا مادست جزءا من غذائها فى غذائى خصوصا إذا كان لحما . وكم أقسمت أنها ظلمتنى حتى ويعلم الله أنها لم تذق منه شيئا . فهل يؤاخذها الله على قسمها الباطل أم أنه يخفف الحساب عن لون من الناس يحب الله فى الناس ويفنى فيه بفنائه فى خلقه ؟ أظن ذلك

ولم تجعلنى أفكر يوما من الأيام أن الزوجة ثقل على زوجها مهما تضق ذات يمينه ، لأنها كانت دائما تظن بالغد خيرا وترى الشمس التى ستشرق علينا خيرمن الشمس التى رأيناها من مرتفع السطح وهى تتوارى عند الأفق . ومن أجل ذلك لم أندم قط على وصل حبلى بحبلها بل كنت فى بعض الظروف أستعرض ماضينا معا فأشفق عليها مماتبذله فى البيت .

لقد أحالت مسكننا الصغير هذا إلى جنة ، حتى السطح الذي كان فضاؤه وقفا علينا جعلت منه معرضا للأزهار . فكنا نأكل العدس وعيوننا تنظر إلى زهرات القرنفل أونجلس للقراءة وأنفاس الحجرة عبقة برائحة الورد . ولم يكن هناك جلباب من جلابيبها تجرى عليه قوانين القدم لأنها كانت « تطعم » جلبابا لجلباب وكثيرا ما كنت أضحك حين أرى انسجام اللونين بعد « التطعيم » وأسألهاعن السر فترد على بتخابث : ألاتظن أننى يوم شراء القماش كنت حاسبة حساب هذا ! فنضحك معا .

وألقت فى نفسى بخاطر عظيم أسرنى طول أيام حياتى ، مدة عشنا

معا وبعد أن فرقت بيننا الأقدار ، ألقت فى خاطرى أننى أعظم ما أتصور وأذكى مما أظن ، وأجمل مما أرى فى المرآة .. رجل كامل .. ظاهرك آية فى الكمال ، وباطنك أنا أدرى الناس به ، فإذا كنت تحبنى فارتفع إلى الذروة التى أراك عندها .. لاتجعلنى أفتش عنك فى العلياء ثم تنزل إلى مكان خفيض .

أراك عند القمة فأستحلفك ألاتكذب بصرى !!

أحسست بعد ذلك أن الصدع الداخلى الذى تولت « أم مختار » فيما مضى توسعته بيدها الخرقاء ، قد أخذ يلتئم !!

وكأن شيئا جديدا ولد فى نفسى فلم تقو سطور الكتب على أن تذكرنى بالإخفاق ولم تعد « أم مختار » قادرة على التلصص واقتحام وحدتى على وبلبلة أفكارى ، فاطرد لى الفهم واتسق التفكير واستشعرت لذة فى القراءة الرسمية وتذوقت حلاوة المعلومات حتى وددت أن يخطو الزمن إلى الوراء خطوات أرجع بها طالبا ولو كان من حولى عشرة نسوة من طراز « أم مختار » و « زينب » !!

ووصوصت عصافير الربيع على أعص الأزهار فى سطحنا الواسع وتناهى إلى سمعى مع عمق الحارة نداء باعة الخس والملانة ففاحت روائح الامتحان ثم دخلت الكفاءة وكانت السيدة « ف » تلقانى عند رأس السلم عند عودتى من كل علم كما تتلقى الأم ولدها الصغير ، ثم تستقبلنى ببسمة تنسينى رهق العمل . فإذا ماهممت أن أحدثها عن الإجابة أشارت برفق ألا أفعل قائلة : دعك من الماضى .. فكر فى المستقبل . « آه .. لكأنما كان الماضى بغيضا إليها فى كل شيء » .ثم ظللنا نترقب النتيجة حتى أعلنت النتيجة ، فما تظن أنت نتيجة عملى ...خمن .لكننى لن أتعبك ، فأننى رسبت .

غير أنى لم أجزع ولم أثر على الأوضاع ولم أفقد ثقتى بالمستقبل ، لأنه كان فى داخلى « مختار » غير الذى رعته « أم مختار » . فى داخلى رجل يعتقد أن الفرص غير دائمة السنوح ، وأنها كالظباء والطير والسحاب والمطر قد تجىء فى موسم وقد تجىء فى غير موسم . وكانت دهشتنا كبرى حين رأيت رسوبى فى « الإنجليزى » وحده وأن بقية درجاتى خصوصا فى اللغة العربية كانت مشرفة على النهاية . فجددت عزمى وشحذت أدواتى وأقبلت على الدرس ، وكانت السيدة « ف » دائما إلى جوارى تقرأ وتقدم لى القهوة، وتبسم لى فى صمت وتدفعنى بأشعة من عينيها إلى الأمام حتى آن الأوان ونجحت فى الكفاءة !! الكفاءة التى كانت « أم مختار » ترى صعودى إلى القمر أيسر على بكثير من نيلها ماعاشت .. لكننى نلتها فى الشوط الثانى ونلت فيها مجموعا يدعو إلى الإعجاب ، لأن السيدة « ف » خلقت منى إنسانا غير الذى كنت تعرفه .

وبدأ خط حياتى يأخذ اتجاها جديدا . فأصبحت موظفا يجلس على مكتب ، وقد نفثت فى هذه « الأداة » سحرها حين جعلت منى شابا مستقيم الظهر بعد أن كان منحنيا ، خافت الصوت ، لأنه فرغ من النداء على أصحاب الرسائل فى الأحياء الوطنية ممن يسكنون السطح .. يطرق الأبواب برفق وبأصبع واحدة ، لأنه لم يعد يستخدم « سماعات » الأبواب ، يقف أمامه طلاب الحاجات ، فلايسعى هو إليهم ، لا يمشى كثيرا ولا يستعمل رجليه إلا فى شئونه الخاصة . فى بيته سيدة تحمل شئون البيت وجل شئون الخارج إلافيما يتعلق بعمله فحسب . تتجه إليه بقلبها أينما كان وحيثما حل، وتبشره بالصبح القريب . وإن كانت بقايا شفق المغرب لاتزال حائرة على الأفق . وهذه هى حالى !!

ثم جرى فى جدب عيشتنا رخاء نوعى ، وإن كانت السيدة « ف » على

الرغم من ذلك لاتزال بادية النحافة مفرطة الرقة ، لأنها لم تكن مشغولة إلا بي . ثم ازداد شغلها بي وبمخلوق ثالث . منذ استبان حملها بعد عامين ونصف عام من بدء حياتنا الزوجية وجعل خيالها المشبوب يصور لها أنها ستلد غلاما هو صورة مني ، أو تمثالا مصغرا للتمثال الكبير ، الذى سهرت على هواه أكثر من ثلاثة أعوام .

وكنت مشفقا عليها في الأيام الأخيرة من حملها ، لأنني رأيت كأنما كان بطنها مستأثرا بحيويتها جميعا حتى امتصها من سائر الجسد ، وحتى صوتها الواني فارقته الحيوية . لكنها كانت فرحة مستبشرة تحمد للحياة منحتها ، حتى لكأن الحياة لم تجد بها من قبل على أنثى سواها . ورأيت السيدة « ف » تقضي شطرا من أوقاتها في خياطة ملابس صغيرة لولد وبنت ، ثم تشرع في تطريز حواشي بعضها بأزهار وأوراق ، فكنت أرى الطرز على أديم الملابس وكأنه ليس طرزا ، بل قبلات وبسمات أمومة تصبها يداها بالحرير .

ثم جاءها المخاض في ليلة من ليالي الشتاء ، وكانت ليلة عجيبة جعلت من نفسي مسرحا لإحساسات عديدة .

كنت في حجرة أخرى ومع السيدة « ف » إحدى جاراتها الطيبات ظلت إلى جوارها بعد أن نزلت من عندنا حكيمة المستوصف تسب وتلعن لأننا استدعيناها قبل الأوان بكثير ، ولأن السلم أورثها دوارا وانبهار نفس ؛ ولأن عسر ولادة مرتقبا يحتمل معه أن تنتقل الوالدة إلى أحد المستشفيات ؛ ولأن المطر كان يتساقط رذاذا على قدوم هذا المولود !

وما إن فارقتنا الست الحكيمة حتى انحلت عرى السماء بغيث كأنه أفواه القرب ، فخيل إلي أن السماء قد جاءها المخاض هي الأخرى وأنها تحس عسرا لأن زخيرا وأنينا وقلقا ودموعا قد سيطرت على الجو . ولم يكن

سقف مسكننا أهلا لأن يتحمل هذه الويلات فبدأ يكف وأخذت قطرات المطر تتساقط على بعض قطع الأثاث وشرع بعضها ينقر الأرض فذكرنى ينقره على حصير المسجد فى شارع درب الجماميز ليلة بت فيه هاربا من برد الشارع ، فثارت نفسى بذكرى مضة وملأنى هول وفزع فسارعت أعمل عملا أقف به تساقط الماء . ولم يكن هناك سلم أستعين به على تسلق الحائط فلجأت إلى حبل الغسيل الممدود فى السطح فقطعته بسكين ثم جعلت منه أنشوطة رميت بها فنشبت فى إحدى خشبات السقف المطلة من البناء على أرض السطح ، وتسلقت الحائط فصرت فوق سطح المسكن .

كان الليل قد تقدمت خطواته فكاد ينتصف ، والقاهرة مستسلمة لهطول المطر كأنها هرة شريدة . وليس هناك ضوء إلا من مصابيح تنظر من وراء الشيش ، وإلا مايشع من قناديل الشوارع . وهناك برق يلمع بين فترة وفترة فيلقى نوره على منزل الوقف الرابض أمام بيتنا العالى .

وبدت البيوت مغسولة فازداد سوادها تحت جنح الليل ، ولم يكن هناك ريح وإن كان الشتاء يسيل بردا وقرا . وكان فى يدى سفود من الحديد لأنظف به المبزاب مماعسى أن يكون قد اعترض سبيل الماء حتى يسيل إلى الشارع ، وما أن تقدمت على يدى ورجلى زاحفا فى حذر وخوف حتى بصرت من بعد قريب بعمق الحارة من تحت ، وبالظلام المسيطر على عمقها كأنه ظلام الغد وكان هناك ميازيب أخرى تلقى بمائها فأسمع صوتها من بعيد. وغمرتنى حالة غامضة لعل الجو الذى كنت فيه هو الذى خلعها على ، فقد جعلت أعمل السفود فى مجرى الميزاب لأخلى للماء طريقه وأنا أعد : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. وأقلب بصرى فى السماء والأرض والسحاب والبرق ومنزل الوقف والشجرة العتيقة والمهوى البعيد العميق الذى يفصل بينى وبين الحارة.. ثم استحلت إلى شىء أشبه أن يكون جزءا من

الليل فرأيت أن الحياة التى تدب من تحت هذا السقف لون من العبث سينتهى على الرغم منا فلماذا لا ننهيه بإرادتنا ـ وهذه إحدى بدواتى ـ ولما نظرت إلى ظلام الحارة فلم أستبن طول المسافة ذكرت ظلام الماضى قبل أن أولد ، وقلت فى نفسى : ليس بينى وبين أن أعود إلى هذا الظلام الذى كنت فيه قبل أن تلدنى « أم مختار » إلا أن أعمل عملا بسيطا جدا هو أن أترك جسدى هذا يهوى فى الظلام . فيتصل الظلامان !! لكن الميزاب لم يطهر بعد ولايزال الماء يتساقط على أثاثنا تحت السقف . فجعلت أعمل السفود . لم أكن فى هذه النوبة أعد : واحد .. اثنين ، بل كنت أقول : ولد .. بنت ..ولد .. بنت. ويدى غادية رائحة فى فتحة الميزاب . وابتسمت حين عن لى أن أجعل من ذلك فألا لمخلوق أنا سبب وجوده فقلت : إذا سمعت صوت الميزاب يصب ماءه فى الحارة ، وأنا أقول : ولد ، كان ولدا ، وإلا كان بنتا ، ثم عاودت عملى وارتقبت غايته حتى آن للسفود أن يخرج من الفتحة الأخرى وتبعه الماء وأرهفت سمعى وشفتاى تتحركان : « ولد : بنت » وكان لدردبة الماء فى أخدود الحارة المظلم العميق صدى مفزع الوقع أحسه قلبى ، وكنت فى هذه اللحظة أقول : بنت !! ولم ألبث أن ألقيت على المهوى البعيد تحت بصرى نظرة أخيرة تراجعت بعدها فى حذر وبطء بعد أن رميت بالسفود إلى أرض السطح ، ثم تسلقت الحبل عائدا إلى مسكنى .

كانت آهات متألمة مكتومة تتناهى إلى سمعى وأنا فى الحجرة الأخرى. لم تكن آهات معركة الحياة والموت وإنما كانت آهات معركة الحياة مع نفسها وجعلت أتدبر مغزى هذا وكيف أن لقاء أو أكثر يهدى إلى الأرض مخلوقا قد يكون نعمة لها وقد يكون نقمة عليها!! وكيف أن هذا المخلوق سيحمد لأبويه فعلهما فى يوم من الأيام أو أنه يود لو أن كلا منهما كان أعرض عن صاحبه كما وددت أنا من قبل . وجعلت معان غامض تجول فى نفسى فتملكنى

تماما ما كفت السيدة « ف » عن الأنين ثم أتخلص منها إلى حد ما إذا ما سمعتها تئن . وألفيت نفسى فجأة أبسط كفى بالدعاء وإن كنت قليل الابتهال مؤمنا بأن الله يعلم السر والنجوى ويعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور .لكن شخصا مرتقبا جعلنى أخرج عن مألوف ماتعودت للملك سألت عما عسى أن أفعل إذا ما درج هذا الإنسان على الأرض وطلب من أبيه حاجات قد يكون بعضها عسير القضاء .

ثم خرجت جارتنا الطيبة تزف إلى البشرى فبشرتنى بغلام ، وتجلجلت حين خاب فأل الميزاب فلم تكن بنتا ، وأحسست من فورى أننى انقسمت قسمين متساويين أحدهما اسمه « مختار » وهو أتفه ما فيهما ، والثانى يطلبون منى الآن أن أطلق عليه اسما ، فقلت : أتريدون أن أسميه؟ .. أشكرك يارب .. ليكن .. اسمه .. اسمه « وحيد » !! فتراجعت جارتنا الطيبة إلى حجرة الأم وهى تتغنى بالاسم الجديد ، وخيل إلى ـ وأنا أنطق به للمرة الأولى عذبا حلوا منسوبا إلى قائلا : وحيد مختار ـ أن الشمس توشك أن تشرق فى الخارج وإن كنا فى صميم الليل ، وكأن الأحياء على الأرض قد أخذوا يتضامون ويتلاصقون ويزحم بعضهم بعضا ليفسحوا مكانا يتسع له ..

وأصبح عقد الأسرة منذ ذلك التاريخ مكونا من ثلاث حبات سلكت فى خيط من الحب . وكثرحديثنا عن المستقبل حتى كدنا ننسى الماضى وكأن كل جزء من عمرنا يصير غريبا عنا تماما حين يبتره الصباح إذا كان مساء . أو يبتره المساء إذا كان صباحا . ورجعنا إلى أحلام المراهقة ونحن فى ذروة الشباب . فكأن طفلنا هذا قد أوقفنا على رأس الطريق فاستأنفنا الحياة مرة أخرى .

ورأيت فى عينيه السوداوين سعة الدنيا فعجبت لهؤلاء الذين يضيقون لها وعندهم عيون الأطفال ثم ذكرت شيئا قديما كنت رأيته أيام فاقتى

وتشريدى يوم وقع بصرى فى إحدى المركبات العامة على رجل جاوز الأربعين يحمل طفلا يبدو أنه أول أطفاله وبجانبه زوجة على هيئتها مسحة تدل على أنها لم تسلخ عامها الثانى فى بيت الزوجية ، وقد حمل الأب عنها طفلهما. فلما أطل فى عينيه وهو بين الناس نسى أن حوله ناسا فجعل الرجل المكتمل هذا يناغى الطفل وكأنه طفل . وقد ابتسم بعضنا وكتم بعضنا ابتسامة لأن هيئة الأب كانت تثيرالإشفاق والسخرية والدهشة فى وقت واحد . وخيل إلى أن زوجته كانت تبتسم لتوارى خجلها من هذه الحركات . ثم طالت المناغاة ونحن ننظر والطفل يبسم فى لفائفه البيضاء على ذراعى أبيه . وأخيرا أكب عليه الأب برأسه الضخم الأصلع ووجهه الغليظ المتكور وفمه الباسم الواسع وطبع عليه قبلة خفت أنا أن يزهق روحه فيها . وقد نزلت من المركبة يومئذ وأنا أسائل نفسى : علام كل هذا ؟ فلم ألبث أن اهتديت إلى الجواب فى « وحيد » وفحواه أن هذا الوالد كان يقبل نفسه فى ابنه ويتمسح بأستار الخلود وهو يتمسح بلفائفه البيضاء . أجل كان يتمسح بالخلود لأنه لا يرى حياة ابنه إلا امتدادا لحياته التى ستنقضى ولأنه يرى ابنه فرصة أخرى لحظه إن كان قد كبا ، وشوطا جديدا يبلغ به اسمه الذروة إن كان قد نال قسطا من النجاح .

وهذا هو عين ما أوحى به إلى ولدى « وحيد » بل هو جزء منه : خيل إلى أن جدار الإنسانية العظيم كان محتاجا إلى لبنة مهمة ، ظل مكانها مفتوحا على هيئة ثغرة ، حتى تنفس ولدى أنفاس الحياة . وكنت أنظر إلى الأطفال فى الماضى على أنهم مخلوقات تجىء عرضا بلا قصد .. فهم عند الرجال وعند النساء « وإن كنت متطفلا عليهن فى حكمى » أرواح في الطبقة الثانية من الأهمية تدلف إلى الوجود بعد الشىء المهم الذى يضعه الرجل فى الطبقة الأولى من نفسه ألا وهو المرأة . لكن هذه الأرواح لاتلبث

أن تفرض نفسها على « المنتجين » بالعويل والصراخ ودق الأرض بالأرجل في بعض مراحل العمر ، وبالمطالب التي لا تتوانى ولاتنقضي في بقية المراحل، حتى إذا ما بلغ الذكر منهم شأوه ، وبلغت الأنثى منهن شأوها يحثوا عن رأس الطريق الذي سار عليه آباؤهم وأمهاتهم من قبل ، فدرجوا لا يلقون نظرة على من خلفهم .

لكنني بعد ذلك أحببت الأطفال وحنوت على كل طفل يصادفني في الطريق ، وصرت أتوجع لآهة أسمعها من بعد وأعرف فيها آهة ولدي وإن كنت لاأعرف صاحبها ، وجعلت أذكر « أم مختار » وأعجب من قلبها هذا الذي احتوته حناياها ، وكيف استطاع أن يعذب وليدا !!

ثم ذكرت الماضي وأنا أطالع عيني « وحيد » فاستعذت بالله من قصر العمر وقرب المنية ، حتى لا أتركه كما قد تركني أبي ، واستعذت من « أم مختار » حتى لا تنقلب السيدة « ف » بعد مماتي امرأة جديدة بفعل إكسير تصبه لها عاقر فاجرة مثل الست زينب . ثم استعذت بالله من زميل له يدله على طريق الهرب كزميلي أنور أمين ، ومن مبيت الليالي في المساجد أو اللوكاندات الحقيرة . واستعذت بالله من الجوع ووجدت نفسي مستعدا لأن أحتمله بدلا منه ، فأجوع بقية عمري حتى لايأكل « وحيد » بطاطا ولبنا ليحس بالمغص والغثيان والدوار ، ولاينزوي بقبضة من الحلبة الخضراء عند مدخل حارة مسدودة ، ويده تنازع فمه الجذور حتى لايلتهمها ، كما حدث لأبيه قديما يوم كان على مقربة منه حمار يأكل البرسيم !! .

لكنني عدت فقلت : أفي قوانين الحياة أن يلد المحظوظ محظوظا ، وأن يلد المنحوس منحوسا ، وأن يكون ابن الغبي غبيا وابن الذكي ذكيا ، وابن الفقير فقيرا حتى آخر الدهر ؟!

إن كثيرا من ساكنات الأكواخ قد قمن عن طفل ، ثم لففنه في خرق

بالية وتركته بعد أيام قلائل يطلبهن بالصراخ فلايجدهن ، لأنهن يعملن فى الخارج ليحققن لأنفسهن كسرة من الخبز . وقد طالما أهدت هذه الخرق إلى الناس أبطالا وعباقرة . وهذا هو ابنى وليس فى خرق ، ولكنه فى ثياب نظيفة ، تمخضت عنه أم من فضليات النساء وأذكاهن ، فلماذا لايكون عظيما .. أليس من الجائز أن يخرج الإنجليز من مصر ؟ . إنهم سيخرجون حتما بمجهود رجل ، فلماذا لايكون « وحيد » هو هذا الرجل ؟

لم أعد أنظر إلى الحياة من نافذتى الشخصية ولا من نافذة السيدة « ف » ولم أعد أراها تنقضى بموتى ، فأنظر إلى حياة نؤمل فيها ونحن تحت التراب وماذلك إلالأننا خلفنا فيها أكبادنا تمشى على أرضها !! وجعلت الأيام تمر ووحيد ينمو ، وجعلت نظرة واقعية جدية حازمة تكسو الحياة فى نظرى ، فلم أتفاءل ولم يجمح تفاؤلى حتى أمسيت فتخيلت ولدى طبيبا ناجحا فحسب ، أو محاميا ماهرا أوقاضيا يحمل الميزان ، أوسفيرا لدى إحدى الدول : إنسانا هبت على شراعه الريح رخاء سخية ، فلم تحوله من شرق إلى غرب ولامن جنوب إلى شمال ، كما حدث لشراع أبيه . ألاتذكرأنى نلت الكفاءة من الخارج . ثم هأنذا أسهرمقلبا بين يدى كتب طلبة البكالوريا والسيدة « ف » إلى جوارى تقرأ أو تقدم القهوة أوترمى بالكتاب سريعا على مقعد قريب ، لأن صوت « وحيد » تناهى إلى آذاننا من الحجرة الأخرى ، يناغى أو يبكى أو يحلم بأى شىء .

أما السيدة « ف » فقد اعتمدت اليوم فى حياتها على قلبها وحده . كانت فيما مضى تحابى رجلا واحدا على حساب نفسها فأصبحت اليوم تحابى اثنين . كانت فيما تيقنته بعدئذ تعتبر نفسها « تذكرة قطار » كل مهمتها أن توصلنا إلى نهاية الرحلة ، ثم ترمى بعد ذلك فى أى مكان ، وقد ساءنى أن استشففت هذا فى دخيلتها ، حتى أذكر أننى وقفت منها موقفا

عدائيا لأول مرة منذ تزوجنا ونهرتها على سلوكها . أحسست أنها تريد أن تستغرق في الحاضر بكل مافيها ، حتى لايطل عليها الماضي بعين ، فكان مثلها مثل الذي يصطخب ويعج ويهذي ويتمايل متساكرا حتى يتحقق له السكر قبل أن تنتصف كأسه !! وهي بعد امرأة شديدة الحساسية ، يؤثر في قلبها كل لمس ، وإذا كانت العلاقة بين القلوب والأجسام قديمة وثيقة ، فإن هذه الحساسية قد لحقت جسمها كما نبتت في قلبها ، فرأيت السيدة « ف » تضوى وتذبل لأنها اعتمدت في حياتها ـ كما قلت لك ـ على قلبها كما يعتمد الجمل على سنامه في ليالي سفره الطويل . ولم تكن دائرة الرخاء في بيتنا قادرة على تحمل التضييق . ومعنى هذا أن شريكتي الحريصة على إسعادنا كانت تقص من ضروراتها لتقدم لنا كماليات . فهذا يدخر لأستعين به على دروسي الخاصة في اللغات ، حتى لا أخفق في امتحان البكالوريا . وهذا يدخر باسم « وحيد » ، لأنه سيحيا حياة على نمط غير الذي عشناه ، ولابد له من الترفيه ولقيا الحياة على أحسن وجه ، أما ذلك فيدخر لأمرغير منتظر وفي الحياة مفاجآت كثيرة .

وتحول العش الصغير المشرف على القاهرة من الطبقة السادسة إلى جنة كبرى بها حور وولدان وروح وريحان حتى إنه كان يخيل إلى في كل يوم وأنا أصعد درجات سلمنا العالي عند عودتي من الخارج أن كل درجة أقطعها إنما تدنيني من النعيم . وكثيرا ماكنت أبصر بها واقفة عند مدخل السطح على رأس السلم المسقوف فتلقاني بابتسامة فصيحة تحمد بها سلامتي وتطلب بها قبلتي . وقد ظلت السيدة « ف » هكذا مدة طويلة تحسب بالسنوات أشعرتني فيها أني عشيق لازوج ، وما كان أقدرهاعلى تجديد حياتنا ورفع الملل عنها .

كانت تغير ماء حياتنا كما يغير البستاني ماء النافورة فلم تفح منها

رائحة العطن !! وكانت طريقتها فى ذلك كالنسيم فيها حركة وفيها هدوء فى وقت معا . فقد أجبرتنى بعد بضعة شهور أن أستقل وحدى بفراش زفافنا واستقلت هى بفراش إضافى صغير جعلته فى إحدى زوايا الحجرة الفسيحة التى لم يبخل عليها بناتها بالسعة لأن السطح كبير . وكثيرا ما كانت السيدة « ف » تناجينى وهى فى الفراش المستقل بعد أن يخيم علينا الظلام بإطفاء النور وكانت قادرة على ابتداع أساليب ناعمة قصيرة تجدد بها حبى وشوقى إليها ، حتى إذا مافرغت من الهمس وأحست أننى ألت إلى حال أرجو فيها امحاء ما بيننا من مسافة أخذت فى التراجع وجعلت تنضح هذه الحرارة بمايخفف حدتها شيئا فشيئا فأنام راضيا وتسهر هى فى خيالى وتداعب أحلامى كأننا على أبواب التعارف ولسنا زوجين مرت علينا أعوام ستة !

كنت قد نلت شهادة البكالوريا فى هذه الأثناء فاستقررت فى موضعى من الأرض وأحسست أننى بلغت غاية من التى يمكن أن يقف عندها الناس ، وازدهانى أنى صرت موظفا محسودا من زملائى وأصدقائى أمثال أبو الفتوح الذى نهرنى فى إحدى الليالى مساء أدعيت كما ظن « أننى راسب كفاءة » . فما بالك بى وبه كذلك بعد أن أصبحت « ناجح بكالوريا »؟! ثم ازدهالى كذلك أن جمعت المصادفات بينى وبين أحد الزملاء القدامى فى المدرسة الثانوية فى الإسكندرية يوم لقينى فى شارع محمد على وتصافحنا على شوق ثم تساءلنا عن الأحوال فإذا به يقول بملء شدقيه : أنا موظف فى المالية .. من حملة البكالوريا .. أظنك لم تستأنف دراستك يامختار بعد أن قطعتها ؟! فلما أخبرته بحالى خيل إلى أن تطاوله قد تقاصر حتى صرنا رجلين يتأرجح كل منهما أمام صاحبه فى كفتى ميزان وفقته أنا بأننى علمت نفسى بنفسى . وزفت إلى السيدة « ف » فى إحدى الأمسيات خبرا حسبناه بشرى . ذلك أن أخا أو أختا لوحيد قد أخذ سمته فى طريق البشرية ليتنفس

أنسام الحياة بعد سبعة شهور غير ما فات . وضحكت أنا من نواحى قلبى ورفعت صوتى بالقهقهة وكتمت هى ضحكتها واحمر وجهها وهى تنظر إلى الأرض . ثم استأنفنا الحديث فبصرتها بحالتها الصحية وعدت فأبديت يأسى من سماعها نصحى لأن أما تحرم نفسها من أجل ولد واحد وزوجة تحرم نفسها من أجل زوج ، ستصبح عما قريب أما تحرم نفسها من أجل اثنين .. إذن فلا أمل !! ثم سارت بنا الحياة سيرتها العادية كنفس المشهد الذى تراه فى أحد الشوارع المزدحمة .. كل حى فى شأنه الذى يشغله وقدماه تنهبان الطريق . وكما أنه لايتوقف الناس فى الشوارع إلاإذا حدث حادث فإن حياتنا المنزلية ما كانت تتوقف إلاإذا حدث حادث . وكان ذلك ظهر يوم من الأيام ، يوم عدت من عملى فعاين قلبى ما بداخل المسكن قبل أن أطرق الباب . خلت أن السيدة « ف » غائبة عن البيت لأن أنفاسها ورائحة شخصيتها لم تتناه إلى. ولكننى طرقت الباب فلم ترد وعاودت الطرق فإذا بها تفتح وتقف أمامى منتصبة يكسوها شحوب الموتى . رأيتها امرأة غير التى تركتها وقت الضحا كأنما بدلتها يد سارق وسألتها ماخطبها فعلمت أن الجنين قد سقط فى الشهر الرابع عقب حملها حشايا السرير وأن نزيفا حادا يلح عليها منذ الصباح ، قلت وأنا أدق كفا بكف فى عجب يخالطه الأسى ويغمره الأسف : ألم يكن هناك طبيب ياسيدتى .. هل أقفرت القاهرة من الأطباء ؟! لكنى لم أحظ بجواب لأنها كانت تتحامل على نفسها لتدخل إلى الفراش . ثم انقضت ساعتان على الحادث أوثلاث ساعات حتى جئتها بطبيب وكان أول ما عمله بعد أن عبر الباب أنه عجب لمنظرها بحملقة عينيه وفتح فمه ثم باشرعمله ووصف العلاج وأوصاها بالراحة . وخيل إلى بعد أن انصرف وبعد أن زودنى بأوهام جديدة أن جسد هذه السيدة قد ركب عليه ميزاب فنزف دمها وأنها هالكة لامحالة .

وأخذت إجازة وسهرت على راحتها وعلى مطالب « وحيد » وخيل إلى أن دقات ناقوس عظيم تتناهى إلى مسمعى من بعد فيأتى صداها خافتا واهيا ولم يكن هذا إلا ناقوس الخطر تدقه يد الزمان .. وغمرتنى قشعريرة من المستقبل وبدأت آية الليل تغشى آية النهار حين استشعرت خوفا على شريكة حياتى . لكن هذا الخوف لم يجعلنى أفقد رشدى فقد كنت أشبه بالجائلين فى المعركة تتقاذفهم جوانبها وتطحنهم رحاها على الرغم من الجبن أو الشجاعة . وامتدت يدنا إلى المدخر ننفق منه فى هذه الملمة حين أبلت السيدة « ف » من مرضها . واستأنفت عملى فى الخارج واستأنفت عملها فى البيت . لكن نحولا ورقة جديدين كانا قد مسا عودها . وأوصيتها بالراحة بل وجعلت أعاونها فى كثير من أعمال المنزل وأنا أتضاحك كأن أغسل عنها صحاف الطعام أو أكنس أرض الشقة أوأعمل القهوة لنفسى أو أقشر أو أخرط البصل أو البطاطس ونحن فى المطبخ .وخلقت بأعمالى هذه جوا من السعادة والطمأنينة وماكنت أدرى أنه مصنوع لاعلاقة له بالطبيعة ولاصلة له بالحقيقة ، أشبه بالجو المرح الذى يخلقه المتفائلون فى المخبأ تحت ألسنة النيران .. أجل كان مصنوعا لأن كمينا غادرا من جحافل الدهرقطع علينا ضحكنا فأمسكنا عن القهقهة فجأة وأخلينا السبيل لدموع جديدة !!

***

ظللت أستمع إلى سعال السيدة « ف » بضع ليال متوالية وكل منا فى فراشه المستقل ثم رأيتنى أقترح عليها فجأة تحت جنح الظلام أن أعرضهاعلى طبيب فأجابتنى بصوت شممت منه رائحة الخوف والقلق وطول الترقب والرضا بالعرض :

ــ آه .. كنت على وشك أن أطلب إليك هذا !!

فذكرتنى بقولها أول عبارة فاهت بها ليلة طرقت عليها مسكنها

فألفيتها محمومة فعجبت للأحداث كيف ينادي بعضها بعضا ويذكر بعضها ببعض . وركبني شؤم وخوف . وحتى تخيلت أشياء أخرى كلها شرور وهلاك ثم بصرت بنفسي وكأنها تبحث عن « وحيد » لتنجيه ولنمت نحن .. أنا وهي !! أما هو فليبق للحياة !!

ورأيت من الصواب ألا أسترسل في هذه الهواجس لكنني ظللت منقبض الصدر حتى غلبني النوم . وطالعنا من النافذة نهار كئيب رأيت على نور شمسه وجه السيدة « ف » عجيب المظهر حتى لجأت إلى نفسي أسألها وألح عليها في المسألة : ياإلهي !! إلى أين يذهب الجمال بعد أن يغيب عن بعض الوجوه ؟اويدت السيدة « ف » واسعة العينين ملتهبتهما نوعا كأنما قد سهرت تبكي . فأقبلت عليها وجعلت أربت خدها بيميني وهي جالسة في الفراش فرأيت عليها انكسارا وذلة لم أعاين مثلهما في حياتي فأهويت إليها لأقبلها فإذا بها تدفعني عنها . فصرخت في وجهها مستعيذا من فألها السيء.. لكن ذلك لم يحولها عن موقفها ولم يخفف عنها ما أحاطت به نفسها من جو خائف مذعور دامع حزين . بل حدث أن رأيت دمعتين كبيرتين تتدحرجان على خديها ووجهها مرفوع إلى .

كان على أن أصابر حتى تسمع كلام المختصين وقد كنت معلقا على قولهم أملا عظيما . ثم كنا معا قبل الظهر في عيادة أحد الأطباء أتقدمها وتتبعني ونحن نجتاز عتبة الغرفة ثم جلست السيدة « ف » على سرير الفحص فذكرتني بجلوس المحكوم عليهم بالموت على الكراسي المكهربة . كانت أشبه بثوب أبيض مغسول . ورأيتها وكأنها قد كبرت عشر سنوات في ثوان عشر وكأنما أشفق عليها الطبيب فسألها عن أمرها برقة . فحركت شفتيها عدة مرات قبل أن تجد ما تقوله له . فهون الرجل علينا الأمرمقدما لكنني جعلت أرقب قسمات وجهه وحركات يديه وهو ينقل السماعة على

ظهرها من مكان إلى مكان فرأيت دلائل الخطر على وجهه الهادىء .
وأخذتها نوبة من السعال وهي بين يديه فاغرورقت لذلك عيناى .

كنت مقدرا سلفا موقف أسرة أم مصدورة ومتصورا رعى هذا المرض الوبيل فى صدرها المخصب الذى مهد الحنان فيه طرقا وشق الحب فيه أودية وتركت الحساسة آثارها فى كل فيه . واستدار الى الطبيب وخاطبنى بعينيه قبل أن تقوم هى من مقامها ثم ألبس وجهه بعد ذلك قناعا مستعارا من البشاشة والرضا وبدأ يشرح الموقف قائلا : لا خوف .. المسألة فى غاية البساطة . شرارة صغيرة وقعت على حطب يقبل النار فأضحت مهمتنا أن نضرب حولها حصارا حتى لاتتحول إلى حريق !!

وتركت السيدة « ف » تغير مكانها لاهثة فتجلس على أحد المقاعد وسألت الطبيب عن أحسن ما يمكن عمله فأشار علينا أن تلجأ هذه السيدة الرقيقة إلى إحدى المصحات ، ورأيت بوادر الاستسلام تبدو على وجهها ونحن نهبط درجات السلم فى طريقنا إلى البيت فجزعت وزجرتها بدموعى أن تتشجع . كان عقلها الكبير متوقفا عن عمله تماما ، لم تكن هناك رابطة تصل بينها وبين الأرض إلا غريزة المحافظة على البقاء وعاطفة الأمومة ومن هاتين الزاويتين ليس غير رأت الدنيا فى ذلك النهار .

ولم يكن هناك مفر من أن أتركها وأذهب لأدبر أمر المصحة وقد كنت ساعتئذ نهبا لأفكار كثيرة ، ولست أدرى لم ذكرت « أم سمك » التى كانت تداعبنى وأنا ساعى بريد . لقد جعلت صورة « أم سمك » تلح على أفكارى دون أن أعرف لذلك أصلا حتى تبينت بعد أنها زوجة عسكرى مطافى وأن رجال المطافى يكافحون الحرائق ، وأننى اليوم بالنسبة إلى السيدة « ف » كزوج أم سمك أكافح نارا جائعة ربما اجتاحت بيتنا كله . وتألمت حين تحركت فى الأنانية وحب الذات وحب الولد وهممت أن أقطع الرحلة فأعود

إليها لأوصيها بابننا « وحيد » لكنني استفظعت هذا ثم عدت فاستصغرته .. لأنها أم !

قلت في نفسي وأنا راجع إلى البيت بعد أن هيأت لها موضعا في إحدى المصحات في ضاحية قريبة : إن في الناس سعداء تورق في أرضهم أعمدة التليفون ، كما أن فيهم أشقياء تجف من لمسهم خضرة الأشجار . فهل نحن الصنف الثاني يارب ؟! وهل الأصل في حياتي أن تكون متقززة قلقة كأنها سيارة على طريق جبلي ؟. أعنى أن الهدوء فيها ونعومة الحركة أشياء خارجة عن طبيعة الطريق ؟! لكنى الآن لست مسئولا عن نفسي وحدها فهناك مخلوق ضعيف في الرابعة من عمره يطالبني بالحماية ويسألني أن أجنبه المكاره . ثم وطنت نفسي على أن أحتمل وأن أتكلف الابتسام وإن ناء ظهري تحت عبء فادح وجعلت ذلك قرارا نهائيا وأنا أصعد السلم في طريقي إلى المسكن وأدرت المفتاح في الباب كما كنت أفعل أيام العزوبة ثم دخلت فأبصرت السيدة « ق » في فراشها المستقل وبجانبها زجاجة دواء كنا اشتريناها وقد شربت منها أول جرعة . ولم يكن وحيد إلى جوارها فقد تركته كما كان قبل ذهابها إلى الطبيب عند جارتنا الطيبة التي كانت أول من نطق باسمه يوم سميته . واستقبلتني شريكتي بوجه متسائل متلهف إلى الخروج وإخلاء المكان . وسيطرت عليها الحساسة فأحالتها ذعرا خالصا وخوفا ولهفة ، وجعلت ألقى على جفاء الموقف شيئا من الرقة بما أصطنعه من بسمات ولكن جهدي ضاع هباء . ولم تمض ساعة حتى كانت في إحدى الغرفات مع ثلاث غيرها من اللاتي قضى عليهن أن يذبن قليلا قليلا تحت أنفاس المرض كما يذوب هيكل الشمعة .

كان على أن أدبر أمر طفلنا الصغير لأنه من المحال أن أتركه في البيت ومن المحال أن أستصحبه إلى المكتب أو أن أدعه حملا ثقيلا على جارتنا وإن

عرضت ذلك بكرم وسخاء . واستعنت بمعلوماتي القديمة ومعارفي أيام كنت ساعي بريد فذكرت سيدة عجوزا كانت تسكن وحدها في حجرة رطبة وتترقب مطلع كل شهر خطابا حكوميا يصل إليها ، علمت منها فيما بعد أنه إعانة دائمة من وزارة الأوقاف ساعدها على أن تجرى عليها بعض ذوى الوجاهة المؤمنين . رأيت هذه العجوز فيما مضى تتحلى بالرضا والتقوى فما رأيتها إلا باسمة . قلت في نفسي فلأجعلها أما لوحيد حتى تعود أمه . وسلكت من فورى سبيلي إليها ودخلت الحي الوطني البعيد بعد بضع سنين تقضت دون أن يجد داع يدعوني إليه ، وألفيتني فجأة أمام « أم سمك » وكانت مطلة بنصف جسدها من باب البيت الخارجي وأردافها في الداخل ، ولما ألقيت عليها التحية دقت صدرها وتفلت بين ثدييها وبين الملابس ثم قالت : بسم الله الرحمن الرحيم .. لعلهم يطلعون في وضح النهار . وحملني مرحها المرحب وترحيبها الملون بطبعها على أن أبتسم فابتسمت وإن كان قلبي في مناحة ، ثم صافحتني ودعتني جادة إلى فنجان من القهوة ، ولم تنس أن تطرى حلاوتي وتغير حالي وظهوري بمظهر الأثرياء .. ثم لم تنس أخيرا أن تقول وهي تضيق عينا وتوسع عينا وتهز رأسها ذات اليمين وذات الشمال : لكنك على الرغم من هذا كله لست خيرا منه .. هل تعرف من أعنى ؟! فأجبتها باختصار لأنهي الموقف : أجل .. أجل .. جناب القومندان !! «أعنى زوجها » .

وتلوت بي الحارة وتعرج الطريق . ومررت بالمنزل الذي استنبت هواى وسقا حبي وأجرى الخضرة في قلب لوحته ريح السموم . فأطللت من الباب حيث رأيت كل شيء قد تغير ! كان هناك على عتبة مسكن السيدة « ف » أطفال عدة شعث غبر حفاة مفتوحو الصدور لم تعرف وجوههم الماء من أيام تقضت . جلسوا عند الباب المفتوح الذي جعل سبورة للكتابة وأضحى عاطلا

من صندوق البريد . فاسترجعت نظرة تنديها الدموع وسرت أتنقل خطواتى على الأرض وإن كنت سائرا فى الماضى أذكر ليالينا التى كنا نقطع سوادها بأحاديث بيضاء ونجوى مشرقة وأذكر الأحداث التى تلقفتنا بعد ذلك حتى أدى بى المسير إلى البيت المنشود . فطرقت الباب وسألت عن السيدة فأجابنى غلام كان يلهب نحلة خشبية بكرباج فى يده : « عزلت يا افندى » فأدركت أنه من سكان بيتها القديم فلم أر بدا من أن أرجوه ليسأل عن عنوانها ، فالتقط نحلته من الأرض ودخل وهو يفرقع الكرباج فى الهواء حيث صعد السلم وهو يدندن وما لبث أن رجع إلى بالعنوان .

وهنالك فى الجيزة فى طرف قصى من حى وطنى جديد ، لا يزال سكانه يجلبون الماء إلى بيوتهم بصفائح وجرار من حنفية عامة قريبة ، ولا يزالون يريقون ماءهم المستعمل فى الحارات أمام البيوت . وفى هذا الحى عثرت على السيدة المطلوبة . وقد أبدت فرحها بلقائى وسارعت فنفضت لى مجمل حالها قبل أن أسألها فجعلتنى أشم أنها فى عسر لأن وزارة الأوقاف خفضت ما منحته إياها من إعانة ، ثم إنها خجلت أن تشكو إلى الوجيه المؤمن . فحمدت الله فى سرى وشكرته على أن قيض لى امرأة كهذه فى طريق «وحيد » ثم رميت سريعا إلى ما أهدف وشرحت لها الأمر فرحبت بالفكرة لكننى لقيت عناء غير قليل فى حملها على تحديد المبلغ .

ولست أنسى اليوم الذى تركت فيه فلذة كبدى عندها فى الجيزة ثم عدت فنمت وحدى فى الشقة . جعلت أعجب من سخرية الأقدار وأتدبر كيف أن عقد الأسرة قد تفرقت حباته فألقيت واحدة فى ضاحية وألقيت أخرى فى ضاحية وبقيت أنا ممثلا الحبة الثالثة فى المدينة وحدى .

وكان وحيد يسألنى عن أمه ونحن فى طريقنا إلى الجيزة فأخبرته أننا ذاهبان إليها . وحاولت أن أجول به فى كل مكان ، حتى يغلبه النوم وهو

على كتفى ، فأدخل به إلى منزل كافلته الجديدة وهو نائم .

كان لابد من خوض هذه المعركة . وكنت واثقا أنه سيبكى ، وأنه سيضرب عن الطعام ، وسيهمل أشياء كثيرة ، ولكن كان لابد من تحمل هذا كله ، وستتكفل العادة بإساغة غير السائغ واحتمال غيرالناعم ما دامت قد فرضت علينا ، وتركته نائما عندها وقفلت إلى منزلى وسرت نحو القاهرة ، وأنا متخيل أننى فقدت أحد أعضائى . تخيلت أننى أثب على رجل واحدة، أو كأننى أهز ذراعا واحدة فحسب فى حركة المشى ، أو كأننى فقدت عينى. المهم هو أننى شعرت أنى تغيرت . فبكيت .

ما لى صرت سخى الدموع ؟! هل هو حقيقة ؟! أحقيقة ما يقولونه فى أمثالنا العامية ، من أن الحزن يعلم البكاء ؟ : لكن خاطرا خطر لى وأنا فى الطريق بعد أن عبرت « كوبرى عباس » ، فوثبت من الترام وعدت أدراجى إلى الكافلة لأقترح عليها اقتراحا .

وعجبت من رجعتى ، وربما ظنت بى الظنون فاعتبرتنى « مفتشا » ولكنى عدت إليها فى الحقيقة لأقترح عليها أن تقيم فى مسكنى مع وحيد فى القاهرة ، فإن ذلك أنظف وأيسر وأدنى إلى التعاون ، فما كان منها إلا أن لوت بوزها الجاف وحركت تجاعيد وجهها المكرمش بما يفيد أنها بدأت تتشكك فى سلامة تصرفاتى وبياض نياتى لأن انتقالها إلى بيتى لتعول طفلا فيه ، مدلوله عندها أنها أضحت خادما .. وقد كانت قديما من السيدات.. وذلك مخز فى نهاية الأعمار « حسن الختام يا رب !! » فلم أجد مفرا من أن ألوذ بالصمت ، بل أطريت حين رأيها وألقيت نظرة على الطفل النائم فى فراشه المؤقت ، وخرجت بظهرى من الباب وأنا أدافع نفسى التى تلح فى تقبيله .

تفتحت علينا أبواب المطالب وبدأ المدخر يتآكل ، وعدت رجلا غير

عازب ولامتزوج ألف الحياة المنظمة ثم حرم منها . فقسمت أوقاتى بالقسطاس ، أعمل فى المصلحة ، ثم أعود فأجهز طبخا لأكلى وأكل السيدة « ف » . ثم أستصحب بعضه مع شيء من الفاكهة والدواء وأذهب بذلك كله إلى المصحة ، ثم أعرج من هناك إلى الجيزة حيث أدرك « وحيد » قبل أن ينام فأقدم إليه الفاكهة والحلوى وشيئا من القبلات . وأجلس منصتا وأنا راغم إلى حديث امرأة تقص أمر الزمان الخالى على مسامعى فأبتسم ، ولا أزال حتى ينام وحيد . بعدئذ أستقل الترام إلى حيث أستلقى فى فراشى محطم الأوصال .كانت المعركة على أشدها بين السيدة « ف » وبين المرض ، وقد كانت معركة لا تتكافأ القوى فيها ولا تتقارب . كما أن السيدة « ف » بذلت لعدوها ما كان ضدها ، أعنى أنها استسلمت للتفكير خصوصا عندما كانت ترى متاعبى وبعد أن علمت ببرنامجي اليومى ، وبعد أن رأت آيات الكلال بادية على فاسترسلت فى هواجسها حتى آخر الشوط ، وكثيرا ماكانت تسألنى عن المال فأفر من الجواب ، وكثيرا ما كانت تستحلفنى أن آكل بجوارها من فاكهتها التى حملتها إليها الآن أو شيئا من اللحم فكنت أعرض عن اقتراحها آسفا متألما . وشكاها طبيبها إلى عدة مرات وحدد موضوع الشكوى فرأيته معقولا : كانت إذا ما أحست شيئا من النشاط أو التقدم استهلكته فى التجربة أن تقرأ أحد كتب جاراتها أو أن تتحرك أكثر من المطلوب فتهلك بهذا نواة صالحة من الممكن أن يبنى عليها صرح الصحة، ثم تعود السيدة « ف » فتحزن على ما أفسدته . وهكذا دواليك ، فلما رجوتها أن تمتثل للنصائح صارحتنى بأنها ظلمتنى لأنها حملتنى فوق ما أطيق فى كل مراحل حياتنا المشتركة .. ثم عادت تسألنى : ألست تحس هذا !؟

ونفد المدخر ومددت يدى إلى الناس فاقترضت . وإذا كان المرتب السليم

من الديون عاجزا عن استيفاء طلباتي فهو من باب أولى أعجز إن مسه الدين . فارتبكت خطواتي في طريق المال ورأيت نفسي رجلا مظلوما ، وضربت بي الكافلة فشددت في مطالب رأتها ضرورية لوحيد ، وللمصحة حاجات لا تنفد . وفكرت في هذه الفترة أن أنقلها إلى القسم المجاني فألفيته مزدحما بمن فيه فضلا على أن هناك طلبات قديمة . ثم فطنت أخيرا إلى أن هذا عمل غيرصالح وسيكون سببا في انهيارها النفسي حين تدرك أنني أفلست وأنه لا مناص لها من تغيير المكان بسبب النفقات فأشفقت من ذلك عليها وإن كانت تعلم أنني في عسرة لكنها ليست على يقين ، وكثيرا مايسعد النفس أن تعيش في المجهول .

ثم وقع لي حادث كان أشق ما عانيته في حياتي ، وكان بسبب المال .

كنت أتطلب ما أكفل به زوجتي وما أكفل به ولدي ، وكنت أبحث بكل ما في عن غذاء ودواء ! أشياء لايستغني عنها كيان حي يدب على الأرض. وضاقت بي المسالك ولم يعد هناك باب مفتوح وكنت ليلتئذ راجعا إلى بيتي بعد أن ضربت في الطرقات كأنني أفتش عن طفل ضال ، وكان الليل قد انتصف منذ كثير وبدأت الشوارع تلفظ آخر من فيها كما بدأت الحانات تلفظ كثيرا من رائديها . وهناك في شارع محمد علي ، على الرصيف الأيمن المتجه نحو باب الخلق ، حيث يجثم الظلام المعقود من عقود البواكي وحيث أبواب المتاجر قد أوصدت وليس هناك إلا ريح الخريف تخفق عند مدخل الحارات الضيقة المتفرعة من الشارع . وعند مدخل إحدى الحارات وعلى بعد يقرب أن يكون عشرين مترا رأيت شبحا في الظلام وقفت أراقبه لأني سمعت صوت قيئة فعرفت أنه سكران ، ورأيت الرجل بعد قليل يترنح ثم يسقط على الأرض ثم رأيته مرة أخرى يتحامل محاولا أن ينهض ثم يدير وجهه نحو الحائط ويضع عليها ذراعيه مربعتين كما تربعان على الصدر ثم يريح

عليها رأسه ، وتمر دقيقة فيستأنف قينه ويئن ويزحر ثم يهوى إلى الأرض .

رأيتنى مدفوعا إليه باسم الإنسانية وباسم الألم الذى يجمعنا ولو أن ألمه قد لحقه من نشدانه اللذة وذلك بخلاف ألمى ، وأنهضته من تحت إبطيه وكان ضئيلا فلم يعينى ورأيت تتابع أنفاسه فعلمت أنه مرهق ، وسألته عن اسمه فغمغم بما تركنى غير فاهم شيئا . ثم انزلق من بين يدى ليجلس على الأرض . كان يلبس جلبابا من الصوف قاتما رأيته أسود تحت إشعاع النور الوانى الذى يدخل إلى الحارة من أحد مصابيح الشارع . وكان جلبابه واسعا يبدو أنه فصله وهو أكثر سمنة وتحته قفطان ينفتح أعلاه عن صدار يكشف عن صدر ظاهر العظم . وامسكت بالرجل مرة أخرى لأنهضه لتتاعس كأنه يريد أن ينام ، وتكررت هذه الحركة فأحست يدى بحافظته فى جيبه ورأيت جزءا منها يطل وأنا أكب عليه لأنهضه ، وكانت كبيرة تحدث لامسها أنها من محافظ التجار وأن فيها أوراقا مالية من فئات كبيرة .

وهنا ذكرت رسائل السيدة « ف » وحضرنى ما ذكرته عن المرأة حين يراودها الشيطان !! كان الشيطان يراودنى فعرض على الموقف عرضا بارعا رائعا واضحا ملموسا لايخفى فيه شيء : زوجة مصدورة تئن على أحد الأسرة فى مصحة ، تريد زبدا وفاكهة ولحما وعقاقير لاتحصى وأمامها حتى الشفاء طريق مفروش بالأوراق المالية ! وولد فى كفالة امرأة غريبة ظنت أن أباه ينبوعا يفيض بالخيرات ولم تكن كذلك من قبل ، ومرتب مدين لا يقوم بحاجاتنا من غير دين فما بالك به بعد أن أثقل . والغد قاتم مظلم حين تخرج السيدة « ف » من المصحة لتنام فى البيت فتلوثه فيعرض الأب الولد للمرض وتفنى الأسرة . أيد كثيرة ممدودة أبدا نحو عائل ضعيف قد نضب معينه وقد سنحت له الفرصة ليأخذ من مسرة هذا السكير الذى طفح المال فى الطريق بعد أن شربه خمرا ـ ليأخذ ما يخفف به آلام الجراح فماذا فى هذا !؟

ومددت يدى إلى الحافظة ثم عدلت فأرجعتها فارغة . ثم سعل السكران فتذكرت سعالا هناك عند أطراف المدينة يهدم أركان صدر أم وزوجة ، وتخيلت أنها تقول فى هذه اللحظة : غدا بعد الظهر سيأتى مختار ومعه الدواء . فمددت يدى إلى جيب الرجل مرة أخرى فأحسست أن الحافظة خارجة من مكانها بكثير وكنت مصمما ، وخيل إلى أنها تناوشنى وتناغينى وتستفزنى وتقول لى خذنى .. ولكنى ذكرت المسئولية والضمير والسجن وعسكرى الدورية الذى لايستبعد أن يبغتنى وأنا فى مكانى ، وسمعت كأن بابا حديديا ضخما يصر وكأننى أدخل فإذا به باب سجن ، ولكن المنظر امحى سريعا من خيالى فأيقنت أنه باب المصحة حيث ترقد السيدة « ف » يقطع أوردة صدرها السعال ويسيطر على أنفاسها الداء الوبيل !! فأغمضت عينى كمن سيقفز إلى الماء ثم أخذت الحافظة ودسستها فى جيبى وتركت الرجل ينبطح على الأرض كيفما شاء وجعلت أنقل خطواتى ذاهلا لا أدرى سالكا سبيلى على البلاط المتخذ من أحجار الجير ، وقد فضلت هذا الشارع على الشارع العام . ثم جعلت أدور فى طرقات شتى أدت بى أخيرا إلى حارة « ش » التى أسكنها من قديم .

ثم جعلت أعاين جريمتى بنفسى .

ألقيت عليها نظرة تحت النور وفتحت قفلها بيد مرتعشة فطالعتنى خضرة الأوراق . أحسست أننى فى واحة وإن كنت لا أملكها لأن هجير الصحراء كان قد جفف ريقى . وتنفست طويلا ثم شرعت أحصى النقود فلما وجدتها عشرين جنيها هممت أن أحمد الله لكننى كفكفت لسانى وأطرقت نحو المنضدة كأننى أحول وجهى عن وجه الإله الذى يطالعنى من فوق . ثم جعلت أتصور كيف أن هذا المال سيستحيل حالا إلى طعام ودواء امرأة مريضة وقد كان من قبل مقدورا عليه أن يستحيل إلى خمر ولذة . وخلقت

للموقف فلسفة ترضينى حتى عدت فطمعت فى عطف الله ثم رجوته العفو .

وامتد بى السهر وأنا أفحص المحتويات غيرالنقود وأقلبها بين أصابعى حتى ألهمت شيئا فشرعت فى تنفيذه .

كان اسم ضحيتى السكران هو المعلم عنتر سلامة صاحب مخبز الأمانة بدرب سعادة . وقد عرفت هذا من بطاقات تزيد على الخمسين كانت بين أوراقه . فأمسكت قلمى وشرعت أكتب إليه.

« سيدى : لاتسب ولاتلعن فما كنت قاصدا إلا إنقاذك .. تقدمت نحوك إنسانا ثم رجعت عنك شيطانا وذلك بحكم الحاجة وأنا معذور . امرأتى مصدورة ووحيدى مشرد . إنسان ناضب المعين تالف المرافق . فاعتبر نقودك دينا فى ذمتى أرده إليك عند التيسير وثق ياسيدى أننى متألم . هل تعرف شيئا عن أكل الميتة وشرب الدم فى حالات الاضطرار ؟! هذا هو ما فعلته بالضبط فلا تظننى لصا .

هذه هى أوراقك ـ ماعدا النقود ـ راجعة إليك بالبريد . فلا تلعنى والسلام » .

وذلك هو مافعلته بعد ما اجترحته يداى فى ليلتى المشئومة . وقد عمدت إليه بعد أن خيل إلى أن كلمة « الأمانة » فى بطاقة السكران يبصق فى وجهى . إن لكل جريمة عقابا بلاشك ، وقد كانت عقوبتى فى داخلى فلم أنم بقية الليل لأن رجال الشرطة طاردونى فى الأحلام بل أن السيدة « ق » نفسها زارتنى عاتبة غاضبة وكان آخر ماقالته لى : « الخبيثون للخبيثات » فقد أصبح كل منا إنسانا له ماض ملوث .

ولم أنهض من فراشى إلا بعد ساعة من ميعادى المألوف ونهضت فاتر العظام كأننى سهرت فى حانة ، وكان أول ماتذكرته هو فعلة أمس وكيف أننى سرقت ، لكننى عدت فخففت عن نفسى بأن الضحية سكير غنى معوج

السلوك بين أوراقه صورة فتاة من بنات الهوى وقفت إلى جواره وقد لفت ذراعها حول عنقه ولبست طربوشه وتركته وهوعارى الرأس ثم التشحت بكوفيته الحريرية ذات الهدب الطويل !! .. يستحق !!

قابلت السيدة « ف » فى المصحة أصيل اليوم وكنت متخم الحقيبة بما حملته من أشياء . وأظن أننى رأيت فى عينيها تساؤلا عن سر هذا الإغداق فحولت بصرى حتى لكأنها ستعرف . وقد كانت السيدة « ف » مع الأسف سيئة الحال وقد رجتنى يومئذ ـ وآلمنى هذا ـ أن أعود إليها غدا بوحيد حتى تراه . وقد فعلت . وجعل ولدنا يسألنى ونحن فى الطريق : إلى أين نحن ذاهبان يا أبى !؟ فرأيت من الصواب ألاأذكره بأمه التى نسيها بعد اثنى عشر شهرا أوهمناه خلالها أنها مسافرة حتى أسكته اليأس أو لعل الأيام هى التى أنسته .وسألنى وحيد مرة أخرى : إلى أين يا أبى ؟ فأجبته : إلى حيث أريك أناسا كثيرين مرضوا لأنهم كانوا يلعبون فى الحارة ويلوثون أيديهم بالقذارة .

واستقبلته أمه وهى فى فراشها فاحتضنته بنظراتها وإن لم تقم من مرقدها وغرقت عيناها فى الدموع ثم أفاقت لتقول :

ـ وحيد .. ألاترى « ماما » ؟

ونظر إليها الصبى فلم يعرف فيها أمه لأن كل شىء قد استحال فتراجع خائفا لائذا بأحضانى قائلا :

ـ لا . لست « ماما » .. أمى سافرت !!

فزلزلنى مقاله وعرفت السيدة « ف » بماذا كنا نخدعه لكننى حاولت جاهدا أن أقنعه بأنها هى فذهبت محاولاتى أدراج الرياح فأجهشنا بالبكاء. وبكت الثلاث المريضات من حولنا . ورأى وحيد هذه المظاهرة الحزينة فانخرط يبكى هو الآخر لكن المؤلم فى الأمر هو أنه كان يقول بإصرار دامغ

بالغ :

ـ لا .. لا .. إنها ليست « ماما » !!

***

حقيقة أنها لم تكن « ماما » كما قال وحيد ولم تكن السيدة « ف » بل كانت امرأة متعبة فى آخر شوطها اللاهث وسفرها المكدود .. وقد خاضت المعركة الأخيرة بعد ذلك بأسبوع واحد .

تركت « البرافان » محيطا بسريرها من أقطار ثلاثة ليخفى عن عيون الناس منظرا طالما تلمست حكمة الله فيه فلم أعرف مكانها !! لقد اصطرع الموت والحياة واشتبكا بعنف فى مكان ضيق . وكانت ظلال الحياة تحتل ملامحها ثم تجلو ثم تعود فتحتلها تحت لواء أنفاسها المبهورة .

تركت « البرافان » محيطا بسريرها ووقفت فى الشرفة الغربية ألقى نظرة على شمس الخريف المائلة إلى المغيب وأسترجع بخيالى صورة المريضة التى كأنها هى الأخرى شمس فى منحدرها إلى المغرب وتقاسمتنى الذكريات وتوزعتنى الأحداث فذكرت يوما مضت عليه أعوام أبقت فيه إلى الإسكندرية حيث جلت فى حقول عزبة خورشيد فرأيت الغربان فى ملابس الرهبان كما أراها الآن تسف حول جريد النخل ، ورأيت هناك الهدهد يبحث عن كنوز سليمان فذكرت حبا قديما ظننا أنه سيدوم ما دامت هذه وتلك ، لكنه انقضى وكلها باقية !! ثم ذكرت « نزل السعادة » فى كفر الدوار ذلك الذى أويت إلى حجرة غريبة فيه وأنا أنهنه دمعى وأمسك جنبى من طعنة المقدور . ثم ذكرت كيف أن حنان الطبيعة فى تلك البقعة قد مسح عنى أحزانى وشفانى من الآلام فرجعت إلى القاهرة ناقها فى طريقى إلى التحسن، ثم ذكرت كيف أن هذا قد أدى بى أخيرا إلى مسكن السيدة « ف » والليل ساكن مظلم !

آه .. وهذه هى السيدة « ف » نفسها ترقد خلف ظهرى .. من

يصدق ؟! أجل من يصدق أن هذه هى تلك ؟!

واختفت الشمس وراء الأفق فأدرت ظهرى إلى الخلاء ونظرت نحو الداخل مستندا إلى إطار الشرفة الخشبى الذى ركب على سياجها الحديدى ثم أرجعت كفى إلى الوراء وجعلت أنقر بأناملى على القضبان وأنا أهز رأسى واحدى ساقى ملفوفة على الأخرى . ثم رأيتنى أهمس فجأة وكأننى أخاطب أحدا : أجل من يصدق أن هذه هى السيدة « ف » !! وعدت فاستقبلت الخلاء بوجهى وجعلت ظهرى ناحية الحجرة ، وطالعت السماء فألفيت فيها ألوانا من الشفق تحليها عند الغرب وكان هناك زناران متوازيان أحدهما وردى والثانى رمادى عادا فألقيا إلى خاطرى من جديد بذكرى ليلة نزل السعادة . عند ئذ سألت نفسى : ولكن أين السعادة ؟ ثم تحولت عن مكانى ودخلت إلى الحجرة وعبرت إلى السرير من باب « البرافان» حيث جلست على حافة الفراش من عند قدميها . وأوقد فى الحجرة مصباح ألقى على بقايا زوجتى نورا أحمر مصفرا زادها شحوبا وغربة .. أجل وغربة لأن شبحها أمسى غريبا فى نظرنا نحن الأحياء . لم تكن هناك بشاشة ، لكن كيف أطلب البشاشة فى هذه المواطن وقد قلنا إنها معركة . كانت الحسناء جلدا يشف عن أوردة زرقاء يبدو الدم متحيرا فيها لا يسير كمايتحير الماء فى الجدول الراكد .

وأدمنت النظر إليها أرقب آية الموت وأتدبر مغزاها ـ وآية الموت لاتتدبر إلا إذا عثرت فى أحد أحبابنا - فألفيتها واضحة جدا لأنها عكس الحياة كانت واضحة جدا ، بل إنها أمست أشد وضوحا فى نفسى عن الأيام التى عشناها معا فى حارة « ش » !! غير أن أمرا واحدا خنقنى وحير لبى وشتت أفكارى ألا وهو قسوة المعركة !! إن السيدة « ف » مسالمة بطبعها وقد آلت حالها إلى رقة توشك أن تكون ذوبانا ففيم يا رب هذه المعركة ؟!

إن كل شيء فيها يخفق وإن كانت الأهداب الطوال قد رقدت نهائيا على خديها رقدتها الأخيرة .. ثم حمي الوطيس فأيقنت أن ساعة الفصل قد حانت وأصبح المنظر أقرب إلى أن يكون بركانا ينفجر فى عود من القمح طويل ناحل رفيع أصفر ، فأنظر كيف يتفجر البركان فى العود ؟! حتى إذا ما سكنت الحركة ألقيت قبلة على جبينها البارد ثم سحبت على وجهها الغطاء ، وأخليت السبيل لدمعى المحبوس ؟!

ـ ١٢ ـ

لم توصنى بشيء فى الفترة التى فيها تكثر وصايا الناس عندما يشعرون أن أقدامهم علقت أخيرا بشباك المنية فيتخيرون ما يقولون . ولعل السر فى ذلك راجع إلى ثقتها بى . وكانت نظراتها فى آخر العهد اعتذارا واستغفارا كأنما كانت تقول لى : لقد حملتك كثيرا من المتاعب .. آسفة . ما كنت أقصد إلا إلى إسعادك !!

ثم توقفت فى طريقى كأنما لألقى نظرة على المرحلة التى قطعتها من عمرى ، ولأرى عدد الصفقات التى عقدتها على هذه الأرض فأحصى فيها الربح والخسارة .

بدأت بصفقة « ميلادى » فرأيتها خاسرة لأنها لم تكن ضرورية ولم أكن ضروريا فهناك «وحدات » من طرازى من المقطوع به أنها صالحة لأداء الرسالة التى كلفتها فى الحياة والتى انحصرت فى عملين أحدهما توزيع الخطابات على البيوت ، وثانيهما الانكباب على كشوف الماهيات فى حسابات البريد .

ثم كانت صفقة حبى لسكينة وقد علمت قصتها فإنها لم تنته إلى شيء.

كانت تحلم بفتى فى الإسكندرية وفتاها الحقيقى فى الدلنجات وعيشها الدائم فى حقول أبى المطامير ، فانظر كيف كانت الأقدار تتسلى بالبيع والشراء دون أن تعقد صفقة كما يضيع الفارغون وقتهم على القهوة فى مساومة باعة « الأمواس » و « الفانلات والشرابات » !! .

ولعلك لم تنس صفقة حبى للسيدة « ف » وما لقيناه فيها من عناء مزدوج . كان كل منا مدفوعا نحو صاحبه لكن عقبة معنوية ظلت قائمة بيننا شهرين كانا أطول من الدهر . وأحرقنا قلوبنا وقرحنا أعيننا حتى اقتنعنا بالزواج فعقدنا به صفقة ، وجعلت أنسام خفيفة عطرة تهب على فراشنا وتحرك ستائر عشنا فى نعومة وبطء مفعمين باللذة ، لكن ذلك لم يطل ، فبغتتنا ريح أزعجتنا ، ودهمتنا أحداث شتتت شملنا المجموع .

وهنالك صفقة أخيرة لست أدرى حكم القضاء فيها تلك هى صفقة ولدى .. صفقة وحيد . إننى مسامح غافر للزمان كل ما مضى ، مستعد أن أتحمل من بلاياه كل مايسوق على شرط ألاتخسر صفقتى فى ولدى .

غير أن بلبالا شديد الوقع قاسى الإلحاح يمسك دائما بتلابيبى . فحواه أننى أخاف على وحيد من رشاش العدوى . وإن كانت الظروف القديمة كلها لا ترشحه لشىء من هذا . لكننى أخاف عليه .

جعلته تحت مراقبة دائمة من الطبيب المختص وأغدقت على كافلته العطاء على الرغم من عقابيل الديون التى أورثتنيها صفقة الزواج . وكنت أستصحب معى لوحيد كثيرا من الفاكهة وشطائر الخبز المحشوة بالكبد وأراقب أكله فيها وأنظر إليه وهوينتقى قطع الكبد من بين لباب الرغيف فأتمنى أن أحشو له الجزء الباقى من الخبز بفلذة كبدى لو يستطيعها الحى !! أما صحتى الشخصية فقد كنت واثقا منها ولعل لثقتى بها دخلا كبيرا فى المناعة . كنت أقول بينى وبين نفسى : ماذا عسى أن يتغلب على إنسان

غلب الجوع ونام على الأرض فلم يصبه أذى يذكر ! ؟ وجعل وحيد يتفتح ، ونسيت غبن الزمان حين رأيت إشراق الحياة على وجهه الحلو ، وبصرت بتزاوج جميل متعانق فى قسماته ، وهو خليط من وسامتى وملاحة السيدة « ف » وأحسست أن الشمس بدأت تدخل من النوافذ الشرقية إلى مسكنى على السطح فى حارة « ش » بعد أن كانت كأنها أضربت عن دخوله منذ غابت سيدة البيت .

ونلت ترقية جديدة وتحسنت تبعا لها حالتى المالية . وقطعت دابر الديون ، ومد الله لى فى عمر الكافلة العجوز حتى بلغ وحيد سن السابعة فاستردته منها . ولست أنسى يوم وقفت هذه المرأة عند باب بيتها الخارجى فى الجيزة لتودع ولدها الذى آنس وحدتها ثلاث سنوات وهى منكبة عليه تقبله والدمع يجرى على بوزها المعروق ، ثم عاد ابنى إلى المسكن الذى ولد فيه والذى ارتحلت عنه والدته ، تلك التى كانت تتمنى أن ترى ضحكة الشباب متدفقة من فمه للمرة الأولى فحسب ، ثم تقضى نحبها سعيدة !! كلنا نريد !!

عشت فى المنزل بعد وفاتها تحت ضغط عنيف من الذكرى لكننى قررت ألا أرحل عنه ، حقيقة أن هناك مناظر كانت قاسية شرسة كأنها تصنع أوتركل ، ولكننى احتملتها . هل كنت تتحمل أن ترى أصص الزرع فى السطح قد جفت لأنها فقدت يدا كانت سبب خضرتها ثم عاثت فى تربها الفيران فأتلفت نظامها ؟! أوهل تتحمل أن تسألك عنها أوانى المطبخ وقطع الأثاث حين تقف بينها كما كانت تسألنى ؟ وهلا تحس ألما فى القلب حين تكون فى حجرة فيخيل إليك أنها فى الأخرى ، وحين تسمع حركة فيخيل إليك أنها صادرة منها ؟! لقد احتملت هذا كله ردحا من الزمن حتى خفت عنى وحدته . وربما كان لمجاورة أصدقائنا فى البيت دخل فى الموضوع لأننى

ألقيت عليهم شيئا من العبء فى رعاية وحيد إذا غبت فى الخارج تحت ظروف قاهرة .

وتيسرت حالى فتذكرت المعلم عنتر سلامة الذى سلبت نقوده وهو سكران ، فعزمت على رد المال إليه لكننى رأيت أنه من الأحجى أن أتأكد من وجوده ، فدلفت فى ضحى يوم إلى درب سعادة حيث تفقدت مخبز الأمانة وتعللت بالسؤال عن ساكن فى الحارة وما كان إلا موهوما ، ثم دخلت .

رأيته جالسا على مكتب يكسوه غبار تطاير من الدقيق والردة ويحيط بمجلسه إطار خشبى فى نصف قامة الواقف وأمامه تليفون وعليه الملابس البلدية المألوفة . ولما ألقيت السلام دعانى إلى الجلوس دعاء كريما ثم أكد لى حين سألته أنه لا يعرف إنسانا بهذا الاسم . فشكرته وخرجت وأنا أقول بينى وبين نفسى : آه لو يعلم !! ثم وصله حقه بعد يوم واحد فى حوالة بريد.

صرت أضطجع فى فراشى وأسترسل فى أفكار عريضة وأفرض بينى وبين نفسى أننى تزوجت سكينة يوما ما ، فهل كان ولدى منها سيكون «وحيد» أعنى أننى كنت أستنبط منها هذه « الصورة » بالذات أو أن هناك صورة أخرى .. وابتسمت ساخرا من سخافة سؤالى لأننى لم أهتد إلى جواب ثم أنصت إلى وحيد فى الحجرة الأخرى وكان رافعا صوته بالمذاكرة ولما استحضرت صوته دعوت للسيدة « ف » بالمغفرة لأنها أهدت إلى شيئا غاليا قبل أن تتركنى .

وخفق قلبى بالحنان من أجل ولدى وهو يذاكر ، وخفت عليه من المستقبل على الرغم من حاضره المدرسى الباهر الذى لا ينبىء بشر ، بل هوعلى العكس يبشر بخير كثير . ثم تمنيت أمنية عجيبة ، تمنيت لو أن تجارب الآباء تهدى إلى الأبناء محفوظة فى علب لأقدم تجاربى لوحيد ناضجة مهضومة فأجنبه مرارة عبورها ! غير أنى عدت فذكرت قولى ذات مساء للسيدة

« ف » : إن التجارب الفردية قلما تنفع الناس .. كتجربة اللص الذى حبس ، ألا تراها لم ينتفع بها اللص الآخر ؟! أما التجارب التى تتوارثها الأجيال فتلك هى التى تنفع . ثم عدت فاسترجعت تجاربى فإذا بها تجارب قليلة الربح باهظة التكاليف . وماذا فيها حتى ينتفع به وحيد ؟! لخير له أن يزاول تجربته بنفسه . كل ما أستطيع أن أعمله هو أننى لاأشقيه . أعنى أن أجاهد حتى لايعرض له فى الطريق من يزلزل نظام حياته كما زلزلت أمى نظام حياتى . إن بعض الأصدقاء يشيرون على بالزواج ، فما ينتظر أن تفعله زوجة الأب مادامت أم مختار قد عملت فى ولدها ما عملته ؟!

على أننى نلت من السماء كل ما يكفينى !! وإننا إذا تزوجنا امرأة صالحة أول مرة كانت كفيلة بأن تجعلنا نسىء الظن بالزوجة الثانية فنخشى أن تجىء فى مستوى أقل من مستوى الأولى . وإذا تزوجنا امرأة غير صالحة فى المرة الأولى كانت كفيلة أيضا بأن تجعلنا نسىء الظن بالتى تليها لأنه من الجائز أن تكون أسوأ منها ، حسبنا تجربة واحدة فى عالم الزواج لأن فى الرجال رجالا لايجرؤون أن يزاولوه مرة فى العمر !!

وألف ابنى حياة الوحدة كما ألفت أنا تدبير شئون البيت . وقنعت من الحظ بما أغدقه من راحة وسلامة تحققتا بعد فترة تفيض بالأخطار . وبدا لى أن عوضا عظيما سيؤدى إلى فى مواهب ابنى فقد كان زهرة إخوانه وعنوانا للجد والمثابرة فذكرنى هذا بشىء قديم . هو أن الأقدار لن تبخل علينا ونحن فى ظلمات الموج بطوق من الفلين يمد فى أنفاسنا حتى تسنح لنا فرصة خيرمن التى مرت بنا. ودرجنا معا على طريق الحياة ، يدى فى يده ، وتحابينا جدا لأنه لم تدخل بيننا امرأة غريبة . وكانت معانى الأبوة تتضاءل فى معاملتى له رويدا كلما كبر لأحل محلها على التدريج معانى أخرى من الصداقة والحب . وكنت أرجو أن أعيش حتى تكتمل له أسباب النجاح ويأخذ طريقه

فى الحياة سليما واضحا مستقيما لا متاعب فيه . وكنت مستعدا أيضا أن أتوقف فورا فى اللحظة التى يبدأ فيها حياته العملية ، ولو أننى سأكون فى سن صالحة للحياة . وماذلك إلا لأننى رأيت أنفاسه امتدادا لأنفاسى ، وإن كنت تحت التراب .

وأحببت الحياة جدا حين ألفيته موفقا فى دراسته الثانوية . وقد طالما سهرت إلى جنبه أقدم له الشاى بيدى وأطعمه الشطائر فى الليالى التى يسهرها فأراه وهويختلس نظرة إلى وجهى كان مدلولها واضحا جدا . كان يعجب فى ضميره من رجل عاش أبا وأما فى وقت واحد . وكثيرا ما كنت أذكر له ماضى فى المدرسة وأبصره بأسباب إخفاقى فيكتم ضحكة مؤدبة وهو يستمع إلى أخطاء أبيه .

وأتم وحيد دراسته الثانوية على أحسن وجه . وأعلنت نتيجة البكالوريا فنجح فيها وجلسنا معا تفصل بيننا منضدة ثم شرعنا نرسم المستقبل . كان كل منا مرتكزا بمرفقيه على الخشب حاملا وجهه بين كفيه ، ونحن نستعرض المدارس العليا التى يجوز لابنى أن يلتحق بإحداها ، فما راعنى إلا أن قلوبنا خفقت بمعنى واحد ، ثم التقت أعيننا فإذا بأمنية كل منا سابحة فى عين صاحبه . قال وحيد : الطب يا أبى . فأجبته وأنا أحلم : الطب يا بنى !! ثم أغضى كل منا فلم ينظر إلى الثانى .وأحسب أن ذكرى حارة لامرأة عزيزة كانت تجوس خلال قلبينا لأننا ما لبثنا أن تحولنا إلى الحائط ننظر معا إلى صورتين متجاورتين : صورة أبى الزيتية التى كانت كأنها تنظر إلى صورة شمسية كبيرة للسيدة « ف » .

أحسسنا ليلتئذ أن لنا عند الزمان ثأرا . وشعر وحيد بمايشعر به أهل الغريق كلما رأوا صفحة البحر . وخيل إلى أن نفسه هفت إلى أن تعرف كيف تقضى الداء على صدر لو كان عاش لحنا عليه وأغدق ألوانا من الرحمة

والحب لاتقوى على إغداقها أنثى . عرفت ذلك لأننى كنت مشتاقا إلى هذا المعنى بالضبط حتى إنه سبق لى فتمنيت أن لو كان طبيبا ، وإن كنت واثقا أن كثيرا من الأطباء يقعدهم الحب ويفسد فنهم إذا ماباشروا علاج عزيزة .. لكنها أمانى !

كنت حاسبا للمستقبل حسابه فاستعددت له ماليا بما قترت على نفسى وظاهرنى تفوق وحيد فرحبت به مدرسة الطب . وحلت لى الحياة فتمسكت بأهدابها حتى يتاح لى أن أرى الثمرة الوحيدة التى سلمت لى فى شجرة الوجود ، فأرى كيف تنعقد للنضج وكيف تجرى فى شحمتها الحلاوة .!!

ثم لفتنا أمواج العيش فى خضمها الواسع حتى نسينا أننا نعيش ، والسر فى ذلك هو أن مركبتنا درجت عجلاتها على طريق مستو فأصبحت لاتتقزز حتى كدنا يستولى علينا النعاس . لكننى أفقت مساء يوم على طرق عنيف عجبت له كيف وقع وكيف اهتدى الطارق إلى بابى .

رأيت أحد خدم المكتب الذى أعمل فيه ماثلا فى ظلام السطح وفى يده برقية .. كانت من الإسكندرية .. وبإمضاء « عباس » يقول لى فيها : أمك فى خطر . وكنت قد تناولت طعام عشائى بشهية عظمى لم تكن معتادة فوضعت يدى على بطنى أتحسس موضع المغص ، لأننى جزعت !

لاتعجب ياصديقى فإن جزعنا من فقد الآباء جزء من خوفنا من الموت . فكما نرى حياة أبنائنا امتدادا لحياتنا على الأرض فإنا نرى وجود آبائنا بقاء للأرومة التى نبتت منها شجرتنا وكأنهم خط الدفاع الأول فى قتال المنية ولذلك فإننا نجزع من موتهم . وعاودتنى صورة حزينة رأيتها فى المصحة هى صورة السيدة « ف » وتصورت منظر أنثى يجثم عليها الموت وتمسك بأنفاسها الحشرجة فكانت أم مختار. وقضيت الليل لا أنا ساهر ولا أنا نائم حتى قرب ميعاد القطار الأول فقبلت « وحيد » الذى لم يكن قد رأى جدته

واستودعته الله وهبطت السلم أدور فى ظلامه قاصدا محط سكة الحديد .

كنت مفعم النفس بأحزان مبهمة لا أدرى نهايتها ولامأتاها كأنها أحزان من تنقبض نفسه من حادثة أليمة لاعلاقة له بها . وهبطت الحى الذى لفظنى منذ سنوات ووقفت عند ارتفاع الضحى على باب مسكننا القديم فسمعت أصواتا كثيرة . وكانت هناك أشباح مختلفة الطول ترف من خلف بللور الباب عاينتها فى فترة قصيرة منذ وقفتى . وطرقت ففتحت لى امرأة لاأعرف وجهها ولم تكن تعرف وجهى بالطبع . لكنها خمنت أننى ابنها ففسحت لى الطريق . وفى نهاية المدخل ألفيت عباس أفندى الكبير فقرأت على وجهه ملخص الحوادث : علمت أن كل شيء قد انقضى منذ ساعات وأن القلب الذى لم يسعنى فيما مضى توقف تماما عن الحركة !! لكن نفسى تحركت لوقوفه ففاضت عيناى بالدموع . وعبرت عتبة المخدع الذى آليت ألا أعبره ماحييت لأنها ظروف يجب أن ننسى فيها قسمنا . ثم اتجهت إلى فراشها المحاط بالنسوة حيث رفعت عن وجهها الغطاء وألقيت قبلة على جبينها البارد ، ثم سحبت الغطاء عليه من جديد !! لشد ما يغير الموت أحكامنا على الناس !! إنه لا يثير إلا محاسنهم ولايعرض إلا فضائلهم لكأن أجسادنا يوم تفنى تأخذ معها نقائصنا فلا يذكر الأحياء منها إلا الفضائل . أو لكأننا آنية رخيصة قديمة معدودة فى سقط المتاع ، يقول عنها مالكوها يوم يدركها الكسر : « ياخسارة .. كنا ننزح بها الماء الوسخ على الأقل !! »

وساهمت فى حمل جثمانها واستمعت إلى نفسى ساعتئذ وهى تقول لى : احملها مرة وحيدة لعدة ثوان يارجل .. أو هل تبخل عليها بثوان وهى حملتك أشهرا فى حشاها ؟!

ثم رأيت عباس أفندى الصغير وقبلته فى جبينه . ورأيت عباس أفندى الكبير وقد حالت حاله وأكل الزمان أطايبه فبدا كأنه حقل من القطن جنى

محصوله فآض حطبا فى سبيله إلى التقطيع .. ثم الحريق !!

وكان أشد ما هزنى - ولعلى قد عجبت له - أن الست زينب ماتت قبل أمى . وكتمت ابتسامة حين خيل إلى أن ضحكتها تحت ضغطة الموت كانت تفرقع كعادتها كما تفرقع البندقة بين شقى الكسارة . ثم علمت أن زوجها سارع بعد أشهر من وفاتها فتزوج .

وأما الذى أخبر عباس أفندى الكبير بعنوانى فهو ذلك الموظف الذى لقينى فى شارع محمد على وقال إنه موظف بالبكالوريا فى وزارة المالية فإنه عاد إلى الإسكندرية فى إجازة فقابل عباس أفندى مصادفة ونفض له مجمل حالى .

وكانت القاهرة تستدعينى بعنف طيلة ثمان وأربعين ساعة أقمتها بعيدا عنها ، وذلك لأن ولدى فيها .خيل إلى فى كل ساعة منها أنه قد حدث له ما يتطلب وجودى حالا ، لذلك حثثت الرحيل فى أول فرصة . ومر بى القطار على عزبة خورشيد فألقيت إليها نظرة نحوالشرق لم تكن دامعة وإن كانت حافلة بالذكريات . قلت : سكينة .. عم خليل ، البسطامى .. الحاج عبد المجيد البدال !! وذكرت جيدا يوم مررت إليه لأسأله عن قوم رحلوا وأناس غابوا وجمع شتت شمله الزمان فجلست على صندوق فارغ وجعلت أستمع إلى موسيقاه الحزينة التى كان يرسلها وهو مشغول بالزباين قائلا « سبحان من يغير ولا يتغير » فهززت رأسى وهمست : « أجل سبحان من يغير ولايتغير » لقد غاب عن خشبة المسرح أناس جدد .

وهكذا خرجت الإسكندرية من نطاق فكرى إلى آخر العمر. إلى يوم أسلم أنفاسى ، وانحصرت كل أمانى فى مدينة القاهرة .

وجدت بنا الحياة ، وتقدم وحيد فى دراسة الطب وبدأ الشباب يلمسه بالعصا المسحورة التى تلقى على النفس والجسد حرارة ووهجا ولألاء ، وبدأ

يحدثنى عن بعض زميلاته ونحن على الطعام ، ثم أخذ هذا اللون من الحديث يضيق ويضيق حتى انحصر فى اسم فتاة واحدة ، فأيقنت أن مرحلة التبلور قد انقضت وأن هذه الفتاة قد سكنت من قلبه حيث كانت السيدة « ف » تسكن من قلبى فابتسمت ودعوت لوحيد !!

ولما أتم دراسته العامة وبدأ مرحلة التخصص اختارأن يتخصص فى أمراض الصدر فأحسست من جديد أننا نشرع سلاحنا لنأخذ ثأرنا وتصورت أن السيدة « ف » تبتسم لنا من وراء التراب وأنها مرتاحة وأنها غفرت لولدها أنه أنكرها يوم لقائهما الأخير، ساعة أصر على أن التى يراها فى السرير أمامه امرأة غير أمه فأبكاها وأبكانى وأبكى المريضات الثلاث !! وتحقق لى ما تخيلته من أن جدار الإنسانية العظيم كان فيه موضع للبنة قائم على هيئة ثغرة لم تنسد حتى كان « وحيد » ثم أترعت كئوس سعادتى يوم رأيت لافتة تحمل هذا الاسم : « الدكتور وحيد مختار » يبرق لونها الفضى على سواد الخشب فوق ناصية لشارعين مهمين . وقد ذكرنى هذا بسواد السبورة التى كنت أقرأ عليها أسماء الناجحين فى كل عام فلا أرى بينها اسمى . فضحكت ، ثم قلت للزمن : لقد عفوناعنك !

ومنذ ذلك التاريخ أجبرنى الدكتور على أن ننتقل من هذا المسكن لأنه لم يعد مناسبا فوافقت . لكننى جعلت أقلب طرفى فى جنباته وألقى بنظرى على كل شىء فيه لأن ذكريات حلوة وذكريات مرة ذاقها قلبى وأنا بين حيطانه . وخيل إلى أننى سأودع صديقا قديما شهد ليل حياتى الطويل ثم شهد انبثاق النور ، فأسيت عليه !

لكننى عدت فذكرت قانون التغير، وأدركت أن عامة الناس أيضا يعرفونه ولاينكرونه . ألم يقل الحاج عبد المجيد البدال : « سبحان من يغير ولايتغير » .. أليس هذا اعترافا بخضوعنا الجبرى لهذا القانون الباقى !!

وحملت العربة متاعنا .وهبطت السلم الطويل وأنا أقول لكل درجة فيه : وداعا ، حتى إذا ما استقررت على الأرض وجالت عيناى فى الفناء المظلم المسقوف لآخر جولة ،، ملأت خياشيمى رائحة الجلد الذى وضع فى المخزن. ورأيت لجار الأدوات الموسيقية محتضنا هيكل عود يجرى عليه « الصنفرة » وهو يدندن كأنه يعزف ، فقلت له : السلام عليكم .. ووداعا يا أسطى .. فوقف آسفا وهو يقول : « كده .. كنتم أناسا طيبين !! لكن .. !! فأكملت قوله وأنا أصافحه : « سبحان من يغير ولايتغير .. وداعا !! »

وطافت بى ذكريات شبابى وأنا أهبط منحدر الشارع المؤدى إلى ميدان باب الخلق فاستدرت إلى الخلف حيث ألقيت على الحى نظرة !!

وهناك فى الحلمية الجديدة وفى إحدى الطبقات المتوسطة الارتفاع كان سكن الدكتور وحيد مختار مع أبيه وخادم يقوم بحاجات سادته !! سنبقى دائما يا صديقى عبيدا نسود عبيدا فهذا هو قانون الحياة !!

وتحولت المعانى جميعا إلى نطاق ابنى ، ولكن الذى كان يحقق لنا السعادة المشتركة هو أن وحيدا كان يبلغنى بين آن وآن خبرشفاء مصدور على يديه أو شفاء مصدورة ثم عودتهما إلى الحياة الحرة الحلوة الطليقة فكنت ابتسم وألقى نظرة على الصورة الشمسية الكبيرة للسيدة « ف » المعلقة إلى جانب صورة أبى الزيتية »

***

كان الوقت أصيلا فى الخريف ، وكانت هناك نافذة شمالية فى حجرة نومى يتدفق منها الهواء مداعبا فى تدفقه ستارا خفيفا هفهافا يدل على أن اليد التى اشترته لاتحسب للمال حسابا كبيرا لأن صاحبها فى بحبوحة .

كنت مستلقيا فى فراشى راقدا على ظهرى . أحلم وأنا يقظان بذكريات الخريف ، وما أكثرها وما أقساها !! وألقى نظرة مرة إلى اليسار

ومرة إلى صورة أبى فأذكر ما قد لقينا معا وأنا فى مقتبل العمر. ثم أذكرالمتاعب وكيف أن مرارتها فى الذكرى تضحى فى بعض الوقت حلاوة محبوبة . وجلت فى مراحل العمر كلها فحمدت الله . ذلك أن صفقة واحدة هى صفقتى فى ابنى ربحت فعوضت على الخسائر . إن ضحكة واحدة من شبابه المونق كفيلة بأن تجفف نهرا من دموعى !! ما أجمل أن يحمل جثمانى عدة ثوان يوم أدرج على طريق القبر !

وطرق الباب ، ودخل وحيد باسم الثغر متهلل الوجه ضاحك القسمات تفيض من ملامحه سعادة تخضرمنها صحارى الدنيا. ثم أقبل وأخرج من حضنه شيئا فغرت فمى حين رأيته بعد أن أخرجه من غلافه . صورة زيتية لى قدمها هدية لوالده فى عيد ميلاده . أعنى عيد ميلاد وحيد !! فقبلته فى جبينه ودعوت له وقلت وأنا فى مرقدى : علقها هناك .. هناك بجانب صورة جدك .. سيفعل ابنك هكذا يا وحيد ! ففعل .وخرج لبعض شئونه فى البيت وجعل يأمرالخادم بأشياء ، ثم انخرطت أنا فى التفكير.. وخيل إلى أن نوما يرنق بأجفانى وأنا أطالع صورتى على الحائط فذكرت النوم . وذكرت على الخصوص نوعا منه . نوعا لايطير عن الأعين إذا ما وقع لايسمح لصاحبه أن ينقلب عن ظهره حتى تحركه يد الله فى اليوم الموعود . وجعلت نسمات الخريف تنوس بالستارعلى الشباك المفتوح وجعلت أفتح عينى وأقفلهما وكأن نوما ثقيلا جدا ركب أجفانى . ونظرت إلى الصورة . صورة أبى وصورتى . ثم قلت : سيأتى زمن تعلق فيه صورة ثالثة على أحد الجدران إلى جانب هاتين ، وتكون صورة وحيد .ثم رابعة وتكون صورة ابنه .. ثم خامسة وتكون صورة ابن ابنه .. ثم سادسة !! وجعلت أعد وأتصور ملامح لا أعرف أصحابها فى سلسلة الأسرة . وجعل خط الصور يطول إلى الأمام فأخذت بينها فى ظلمة عميقة . ورأيت على الجدار الجديد خطا من صور جديدة

غريبة مختلفة فى كل شىء حتى فى ملبسها . قلت : هذا جيل جديد لأسرة بدأت بأبى ..

ثم ثقل النوم ، وأحسست كأن أنامل ثقالا تضغط على عينى وفتورا يسرى فى العظام وتراخيا يجرى فى المفاصل . فاستسلمت . وجعلت شريط الماضى يمر أمامى قطعة قطعة حتى ذكرت قانون التغير الذى يؤمن به عامة الناس ، حتى الحاج عبد المجيد البدال الذى قال لى وأنا جالس ضحى يوم من الأيام فى دكانه على صندوق شاى فارغ : « سبحان من يغير ولايتغير » فهتفت بصوت لم يخرج من شفتى « أجل .. أجل .. سبحان من يغير ولايتغير ..!! » .

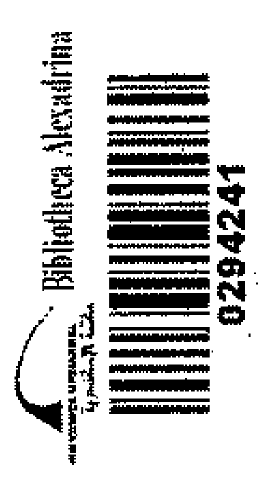
الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدي
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضي لا يعود
(٩) ألوان من السعادة
(١٠) أشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) أسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء

رقم الايداع ٢٠٢٧

الترقيم الدولى ٩ ـ ٢١٠ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه